أعلام العرب

٦٦

ابن زيدون

تأليف

علي عبد العظيم

يونيه ١٩٦٧

دار
الكاتب
العربي
للطباعة
والنشر

أعلام العرب

٦٦

ابن زيدون

تأليف

علي عبد العظيم

دار الكاتب العربي للطباعة والنشر
القاهرة ١٩٦٧

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله على آلائه . والصلاة والسلام على خاتم أنبيائه وعلى آله وصحبه ومن اقتدى بهم وسار فى سبيلهم بقوة وعزم وايمان .

مقدمة

ابن زيدون علم من اعلام الأدب العربى المتازين ، وقمة باذخة من شواهق الأدب الأندلسى الرفيع ؛ ترك أثرا خالدا فى الأدب العربى بما أبدعه من نظم رقيق ، ونثر أنيق ، وسياسة بارعة وحكمة بالغة وتصنيف محكم اقيم ، وتوجيه رشيد سديد .

وسنرى من خلال بحثنا أن آثاره الأدبية لم يتردد صداها فى الأدب العربى وحده ، بل تعداه الى غيره من الآداب . وظل يرسل اشعاعه الوضاء جيلا بعد جيل .

وعلى الرغم من اصالة مواهبه الأدبية وشهرته العظيمة فانه لم ينل ما هو أهل له من التقدير ، فان الباحثين ومؤرخى الآداب لم يولوه ما يستحقه من عناية بالغة ولم يقبلوا على دراسة آثاره دراسة علمية دقيقة الا منذ أمد قصير ومع اقبال الباحثين أخيرا على دراسة آثاره فانها لا تزال بحاجة الى معاودة البحث والتدقيق .

ولا يكاد اديب يذكر الأندلس الا ذكر معها فتاها الشاعر الرقيق

وكاتبها المبدع ابن زيدون ، ولا يكاد باحث يتناول الحب والغـزل الا تناول حياة ابن زيدون وقصته العاطفية العميقة مع الشـاعرة الممتازة ولادة بنت الخليفة المستكفى ، ولا يكاد شاعر يتغنى بالجمال الا هتف بنونية ابن زيدون :

أضحى التنائى بديلا من تدانينا
وناب عن طيب لقيانا تجافينا

ومع هذا كله فان آثاره الأدبية لا تزال بحاجة الى البحث والنقد والتحقيق .

ولعل هذا راجع الى عوامل عديدة صرفت الباحثين عنه امدا طويلا ، بل عن الأدب الأندلسى جميعه الا قليلا .

ومن أهم هذه العوامل :

أولا ـ فقد معظم الآثار الأدبية الأندلسية فى النكبة التى حلت بالأندلس فقضت على معظم الآثار الاسلامية فيها . فقد استبد التعصب بالمسيحيين المنتصرين فغدروا بالمسلمين واستباحوا حرماتهم ، وأقاموا محاكم التفتيش التى أنزلت ببقية المسلمين أقسى ضروب الوحشية وأعنف أساليب النكال ، ولم تكتف بهذا بل انتقلت قسوتها الفاشمة الى تراث الحضارة الاسلامية فكادت تقضى عليه القضاء الأخير ؛ وفى هذا يقول « بلاسكو أبانيز المتوفى سنة ١٩٢٨ » :

« وماذا عمل ملوك أسبانيا الذين أتوا من الشمال بعد كل ذلك ؟ طردوا الحضارة من أسبانيا !! طردوا العرب واليهود وأحلوا محاهم الدين والتعصب !! اليست الملكة ايزابيلا هى التى وضعت نظام التفتيش ؟ **ألم تطفىء أسبانيا فى ذلك العصر سراج العلم الذى كانت تضيئه الجوامع الاسلامية ..** » (١) .

---

(١) المجمل فى تاريخ الاندلس للأستاذ عبد الحميد العبادى ص ٢٠١ « مطبعة السعادة بالقاهرة سنة ١٩٥٨ » .

كما يقول ستانلى لين بول :

« أقنع الكاردينال شيمنيس الملكة ايزابيلا المتعصبة أن تصدر مرسوما تخير فيه العرب بين التنصر ومغادرة البلاد ، وجاء فى هذا المرسوم : أن أسلافهم كانوا مسيحيين وأن الكنيسة تعدهم — وهم من سلالتهم — مسيحيين منذ الولادة ، فيجب عليهم أن يظهروا دينهم الموروث ..

وبعد هذا المرسوم أغلق الكاردينال الحانق المساجد **وأحرق المخطوطات والكتب النفيسة التى هى عصارة الفكر العربى فى عدة قرون .. »** (١) .

ثانيا — ما بقى من التراث العربى الأندلسى تبدد بين مكتبات العالم العامة والمكتبات الخاصة ، وبعضه لحقه التلف نتيجة الاهمال — ومعظم ما سلم من هـــذا التراث لا يزال مخطوطا رهن مكتبة الاسكوريال أو باريس أو المكتبة الأهلية فى برلين أو مكتبات استانبول أو غيرها من المكتبات : ولا تزال مكتبات عديدة بالبلاد العربية سواء بالمساجد أو فى الدور أو بالمكتبات العامة لم تفهرس فهرسة علمية دقيقة ، وقد بذلت ادارة المخطوطات بالجامعة العربية وهيئة اليونسكو جهودا مشكورة فى محاولة تسجيل هذا التراث ولكنها لم تتناول منه الا القليل . والأغلبية العظمى منه تكاد تكون مجهولة للباحثين .

ثالثا — ما تم طبعه من هذا التراث قليل جدا ، ومعظمه تم طبعه دون تحقيق علمى دقيق أو فهارس شاملة تيسر للباحثين الوصول الى أهدافهم العلمية من تحقيق هذا التراث النفيس له وحسبنا أن نشير هنا الى مثالين يدلان على عدم العناية الجدية بهذا التراث .

أولهما : كتاب الذخيرة لابن بسام ، وهو موسوعة أدبية كبرى

---

(١) قصة العرب فى اسبانيا للمؤرخ ستانلى لين بول ترجمة الأستاذ على الجارم طبع دار المعارف بالقاهرة سنة ١٩٥٧ ص ٢٠٩ .

تلقى أضواء كشافة على تاريخ الأدب العربى بالأندلس فى القـــرن الخامس الهجرى ، وقد حفظت لنا نصوصا أدبية قيمة لا نجدها فى غيرها من المراجع الأندلسية . وهى مكونة من أربعة أقسام فى ثمانية مجلدات ضخمة حصلت عليها جامعة القاهرة وطبعت منها المجلد الأول سنة ١٩٣٩ والثانى سنة ١٩٤٢ ثم تركت المجلدات التالية وقفزت الى المجلد السابع فطبعته سنة ١٩٤٥ ووقف الأمر عند هذا الحد ؛ وقد سمعنا منذ سنوات أن الجامعة ستستأنف طبع بقية المجلدات ولكنها نية طيبة لا ندرى متى تخرج الى حيز الوجود . ومن الطبيعى أن ما تم طبعه من الكتاب لم توضع له الفهارس العلمية انتظارا لطبع بقية الكتاب !!

ثانيهما : كتاب نفح الطيب : وهو أكبر موسوعة أدبية أندلسية بين أيدينا الآن ، ويعتبر من أهم مراجع الأدب الأندلسى ان لم يكن أهمها ؛ وقد تم طبع الكتاب منذ أمـــد بعيـــد بالمطبعة الأميرية سنة ١٨٦٢ م دون تحقيق علمى أو فهارس تفصيلية ، ثم حاول طبعه الأستاذ أحمد فريد رفاعى فطبع منه بضعة عشر جزءا ولم يستطع اكمال طبع باقى الكتاب ؛ ولقد صدر قسم من الكتاب فى جزءين فى ليدن سنة ١٨٦١ مشفوعا بجانب من الفهارس فى أكثر من مائة صفحة ، لكن هذه الفهارس على دقتها تناولت جانبا من الكتاب ، وأهملت وضع فهارس النصوص الأدبية من شعر ونثر وخطابة على ما لها من أهمية كبرى فى هذا الكتاب . ثم نشر الكتاب كاملا الشيخ محيى الدين عبد الحميد سنة ١٩٤٩ فى عشرة مجلدات واكتفى بفهرس مجمل لكل جزء من اجزاء الكتاب . مع العلم أن النفع بهذا الكتاب القيم لا يمكن أن يتم دون وضع فهارس تفصيلية شاملة له ، لأن المؤلف ينتقل من موضوع الى موضوع دون مناسبة أو لأوهى المناسبات ، ويتنـــاول كثيرا من الموضوعات فى أبحاث متفرقة بمواضع متباعدة من أجزاء الكتاب .

رابعا ـ انصرف كثير من الباحثين ومؤرخى الآداب عن دراسة

الأدب الأندلسى لأنهم كانوا ينظرون اليه بوصفه صدى خافتا أو تقليدا غير متقن لأدب المشارقة ، وحكموا عليه هذا الحكم الظالم دون بحث أو تنقيب . وبعضهم تعصب لوطنه فاهتم بتراثه الأدبى ؛ وبقيت الأندلس مهملة لأنها ليس لها وارثون من أدباء العرب المحدثين .

وحسبنا أن نشير الى كتاب خريدة القصر لمؤلفه محمد بن محمد ابن على الأصفهانى المتوفى سنة ٥٩٧ هـ وهو سفر ضخم مكون من اثنى عشر مجلدا تناول فيه مؤلفه شعراء القرنين الخامس والسادس فى العالم العربى فى الشرق والغرب على السواء ، وقد عنى رجال الأدب بنشر أجزاء هذا الكتاب كل فيما يخص وطنه وبقى المجلدان الحادى عشر والثانى عشر دون نشر حتى الآن ، لأنه ليس لدينا باحث أندلسى يعنى بنشر هذين الجزءين ، وقد حملت هذا العبء انا وصديقى الأستاذ عمر الدسوقى أستاذ الأدب العربى ورئيس قسم الدراسات الأدبية بكلية دار العلوم بجامعة القاهرة حيث قمنا بتحقيق هذين المجلدين وقد صدر الجزء الأول منهما والباقى تحت الطبع .

* * *

ولكن الانصاف يقتضينا أن نشير الى أن طائفة من أعلام الباحثين بدأت تتجه حديثا الى الأدب الأندلسى محاولة نشر ما يقع بين أيديها من نصوص أدبية ، أو القيام بأبحاث نقدية تحليلية ، وبعضهم تقدم برسائل جامعية وبعضهم حاول القيام بكتابة تاريخ جامع للأدب الأندلسى ، ولكن هذه المحاولات لن تبلغ مداها الا بعد نشر التراث الأندلسى وتحقيقه طبقا للمناهج العلمية الدقيقة .

ولقد قاسيت عنتا كبيرا فى كتابة رسالتى الجامعية « ابن زيدون : عصره وحياته وادبه » لأن ديوانه طبع دون تحقيق علمى طبعة مليئة بالأخطاء والتصحيف والتحريف ناقصة عددا كبيرا من النصوص الأدبية ، فضلا عما أضيف اليها من شعر منحول .

فاضطررت اضطرارا الى تحقيق الديوان تحقيقا علميا استكملت فيه ما به من نقص ونفيت ما فيه من منحول وصححت ما فيه من أخطاء وشرحت ما فيه من ابهام ، ورجعت في هذا التحقيق الى أربع نسخ مخطوطة من هذا الديوان وأضفت اليها ما أغفلته مما عثرت عليه في مئات المصنفات ؛ ثم حملت مثل هذا العبء في تحقيق رسائله وآثاره النثرية .. وبعد هذا كله استطعت ان اخطو في بحثي في ثقة واطمئنان ؛ ثم حملت أشد من هذا العنت أنا وزميلي في تحقيق خريدة القصر — ولا نستطيع أن نجحد فضل فئة من أعلام المستشرقين نشروا طائفة من النصوص الأندلسية وكتبوا أبحاثا عميقة حول هذه النصوص ، من أمثال رينهارت دوزي Reinhardt Dozy واميليا غرسية غومس Emilio Garcia Goncz وليفي بروفنسال Levi Provençal وآنجل جنثالث بالنثيا Angel Gonzalez Palencia والدكتور نيكل A.R. Nykl وكوندى Condé وستانلى لين بول Stanley Lane Poole وأوغست كور Auguste Cour وهنرى بيريز Henri Pérès وغيرهم من كبار المستشرقين ، كما حاول كثيرون كتابة تاريخ الأندلس وقد بذلوا جهدا كبيرا في هذا السبيل ، ولكن نشر النصوص الأدبية والتاريخية والعلمية هو الوسيلة الأولى لنشر هذا التاريخ على منهج علمي قويم .

* * *

والانصاف يقتضينا أن نقرر — على الرغم مما سبق — أن ابن زيدون لم يكن خاملا فشهرناه ، ولا منسيا فذكرناه . ولا مجهولا فعرفناه ، فقد كانت له منزلة في نفوس السابقين والمعاصرين جميعا.

روى الصفدي (١) أن بعض الأدباء قال : « من لبس البياض وتختم بالعقيق ، وقرأ لأبي عمرو ، وتفقه للشافعي ، وروى قصيدة ابن زيدون — النونية — فقد استكمل الظرف » .

(١) تمام المتون « مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢٤٨ أدب » ورقة ٥

وفى رواية أخرى للسخاوى (١) « قال أبو بكر بن مجاهد : « من قرأ بقراءة عمرو ، وتفقه للشافعى واتجر بالبز ، وروى شعر ابن المعتز فقد استكمل الظرف » ، ثم قال : « روى الحميدى عن أبى محمد بن حزم الحافظ انه قال : من تمذهب للشافعى ، وقرأ لأبى عمرو وتختم بالعقيق وروى قصيدة ابن زريق فقد استكمل الظرف .. قلت (٢) : وكان بعض الفضلاء يقول : لو رأى ابن حزم قصيدة ابن زيدون النونية لعدل عن قصيدة ابن زريق (٣) ، ولكن يقال : انه ما حفظها أحد الا وفجع ببعض أحبابه .. »

وقد رجعنا الى ترجمة ابن حزم عند الحميدى فلم نجد لهذا الرأى ذكرا (٤) ، ومما لا شك فيه أن ابن حزم سمع بقصيدة ابن زيدون كما سمع بها الحميدى فابن زيدون صاغ هذه القصيدة الخالدة قبل سنة ٤٣٥ هـ ، وتوفى ابن حزم مواطنه بقرطبة سنة ٤٥٠ هـ وتوفى الحميدى صاحب الجذوة سنة ٤٨٨ هـ وهو من أهل قرطبة أيضا . ويظهر أن الرواية الأولى كانت لأحد المشارقة فعارضها أحد المغاربة بنونية ابن زيدون كعادة الأندلسيين فى تحدى أدباء المشرق ويؤيد هذا الرأى ما ذكره الادكاوى فى مقدمة تسديس النونية لابن حبيش : « وقعت على تسديس قصيدة الرئيس الوزير أبى الوليد ابن زيدون التى يقول عنها المغاربة : من حفظها وتمذهب للامام مالك بن أنس ولبس البياض وقرأ لورش كان من اظرف

(١) الجواهر والدرر فى ترجمة شيخ الاسلام ابن حجر جـ ١ لوحة ١٦٧ و ١٦٨ « نسخة مصورة عن باريس بدار الكتب المصرية رقم ٤٧٦٨ تاريخ » .

(٢) القائل هو شمس الدين السخاوى صاحب كتاب الجواهر والدرر .

(٣) قصيدة مشهورة قالها ابن زريق بالأندلس وهو غريب عن وطنه حينما أحس بمرض الموت مطلعها :

لا تعذليه ، فان العذل يولعه

قد قلت حقا ، ولكن ليس يسمعه

(٤) جذوة المقتبس لمحمد بن فتوح الحميدى نسخة مصورة بدار الكتب المصرية رقم ١١٩٧٥ ح عن نسخة اكسفورد ـ لوحة ٤٢٩١ مذهب أهل المغرب والاندلس .

أهل زمانه خلاف ما تقوله المشارقة : من حفظ قصيدة ابن زريق وتختم بالعقيق وتمذهب بمذهب الامام الشافعى . وقرأ لأبى عمرو كان من اظرف أهل زمانه » (١) ومن هذه الروايات يتضح أن قصيدة ابن زيدون نالت شهرة ذائعة جعلت أدباء الأندلس يتحدون بها أدباء المشرق ؛ ولشهرتها نسجت حولها الأساطير روى أبو نصر الهورينى « أن نونية ابن زيدون اشتهرت حتى صارت محدودة (٢) » ويقال : « ما حفظها أحد ألا مات غريبا (٣) » ولشهرة هذه القصيدة لهج كثيرون بمعارضتها منذ صياغتها حتى الآن .

ولسنا بسبيل حصر جميع المعارضين لهذه القصيدة وحسبنا أن نذكر أن شهرة هذه النفحة الشعرية ذاعت فى الشرق والغرب ، وأن فحول الشعراء جعلوها انموذجا ينسجون على منواله ، وآخر من عارضها من المحدثين أحمد شوقى فى قصيدته التى صاغها بالأندلس أيام منفاه بها وتقع فى نيف وثمانين بيتا استهلها بقوله :

يا نائح الطلح أشباه عوادينا
نشجى لواديك أم نأسى لوادينا (٤)

كما طارح شوقى على منوالها صديقيه الشاعرين اسماعيل صبرى وحافظ ابراهيم . فكتب اليهما من منفاه بالأندلس أبياتا استهلها بقوله :

يا ساكنى مصر أنا لا نزال على
عهد الوفاء وان غبنا مقيمينا

---

(١) تسديس النونة الزيدونية ص ٢ « نسخة خطية بدار الكتب رقم ٦١٧ شعر تيمور » .

(٢) المحدود : المشئوم سيىء الحظ ، مأخوذ من الفعل « حد » المبنى للمجهول بمعنى قتر عليه فى الرزق وفى الخير على العكس من المحدود وهو المحظوظ .

(٣) مسودة التحريرات النصرية ورقة ٦ « نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية رقم ٨٨٤٥ أدب » .

(٤) الشوقيات جـ ٢ ص ١٢٧ .

هلا بعثتم لنا من مـــاء نيلكم
كأسا نبل بها أحشاء صادينا

فأجابه صبرى بأبيات استهلها بقوله :

بأفق أندلس برق يحيينـــــا
يبيت يضحك منا وهو يبكينا

وفيها يقول :

وهل تبينت فى أطلال قرطبـــة
آثار ولادة مـــع ابن زيدونا

واجابه حافظ من أبيات :

عجبت للنيـــــل يدرى أن بلبـــله
صاد ، ويسقى ربا مصر ويسقينا
والله ما طاب للأحبــــــاب مورده
ولا ارتضوا بعدكم من عيشهم لينا
لم تنأ عنه وان فارقت شـــــاطئه
وقد نأينا وان كنا مقيمينــــــــا

وقد لهج شوقى بمعارضة ابن زيدون بعد أن ساعدته الظروف بقراءة ديوانه بعد طبعه (١) ، وباطلاعه على نفح الطيب الذى ضم طائفة منتخبة من شعر ابن زيدون وعلى سرح العيون فى شرح رسالة ابن زيدون المطبوع بالمطبعة الأميرية بالقاهرة منذ أكثر من مائة عام .

ونلاحظ أن معظم الشعراء لهجوا بقصيدة ابن زيدون النونية ويبدو لنا أنهم لم يطلعوا على ديوانه والا لوجدوا فيه قصائد عاطفية عميقة لا تقل أثرا عن القصيدة النونية ، ولقد ظل ديوان ابن زيدون مخطوطا حتى سنة ١٩٣٠ ، واذا رجعنا الى نسخه الخطية وجدناها ناقصة كثيرة التحريف والتصحيف . ومن هنا اشتهر ابن زيدون

---

(١) قرظ شوقى ديوان ابن زيدون فى طبعته الاولى سنة ١٩٣٢ .

عند الباحثين بهذه القصيدة كما اشتهر برسالتيه الهزلية والجدية ، وقد لهج بهما كثير من الأدباء وتعرض لشرحهما لفيف من الباحثين .

أما الذين تناولوا ابن زيدون بالدراسة من قدماء ومحدثين ومن شرقيين وغربيين فاننا سنشير اليهم عند الحديث عن مكانة ابن زيدون الأدبية ومنزلته فى الأدب القديم والحديث .

وحسبنا أن نشير الى أن ابن زيدون ظل فى مستوى دون مستواه الحقيقى حتى العصر الحديث . فقد طغت عليه شخصية ابن هانىء الأندلسى لأن الفاطميين أحاطوه بهالة من المجد والشهرة تمهيدا ليكون شاعر دولتهم الكبير ، وأحس هو هذا الاتجاه فبالغ فى مدحهم الى درجة ترفعهم فوق مراتب البشر استجابة لأهوائهم وأهدافهم المستورة فلما مات شابا قال فيه المعز لدين الله الفاطمى « كنا نريد أن نفاخر به شعراء الشرق فلم يقدر لنا ذلك » وقد تأثر ابن خلكان — على جلالة قدره — بهذه الدعوة فقال فيه : « لولا غلوه فى المدح وافراطه المفضى الى الكفر لكان ديوانه من أحسن الدواوين .. وليس فى المغاربة من هو فى طبقته — لا من متقدميهم ولا من متأخريهم ، بل هو أشعرهم على الاطلاق ، وهو عندهم كالمتنبى عند المشارقة . وكانا متعاصرين » (١) ونحن نعلم ان ابن خلكان مؤرخ كبير وراوية من الثقات ولكنه ليس من النقاد البارعين ، ونعلم أيضا أن اثر الدعوة الشيعية لم يزل بزوال الفاطميين وانما ظل صداه يتردد حتى العصر الحديث .

وقد ظلت نظرة ابن خلكان مسيطرة على الباحثين قرونا عديدة فعقدوا لواء الزعامة الشعرية بالأندلس لابن هانىء ، ومن المؤكد أنهم لم يدرسوا ابن زيدون ولا ابن حمديس ولا ابن شهيد ولا ابن خفاجة ولا غيرهم من شعراء الأندلس الموهوبين .

---

(١) أنظر ترجمة ابن هانىء فى وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٥ ، ٦ طبعة القاهرة سنة ١٣١٠ هـ وله ترجمات فى جذوة المقتبس للحميدى والمطرب لابن دحية والاحاطة لابن الخطيب والتكملة لابن الأبار .

ومن العجيب أن يختار البارودى زهاء أربعين ألف بيت لثلاثين شاعرا من فحول شعراء العصر العباسى ، ولكنه اقتصر على ابن هانىء من الشعراء الأندلسيين .

ومهما يكن من أمر فقد اتجه كثير من الباحثين من عرب ومستشرقين الى الدراسات الأندلسية فى العصر الحديث فكشفوا ما تراكم من غبار القرون على هذا الكنز الثمين . ونال ابن زيدون من العناية ما هو به جدير .

وقد أسهمنا فى الكتابة عنه فى رسالتنا الجامعية « ابن زيدون . عصره وحياته وأدبه » ورجعنا فى بحثنا الى مئات المصادر القديمة والحديثة ، العربية والأجنبية ، المطبوعة والمخطوطة ، ومع هذا فلا تزال هناك جوانب فى حياة هذا الشاعر الكبير تحتاج الى معاودة الدراسة والبحث ، ولعل هذا الكتاب يصور بعض هذه الجوانب ويكمل ما بدأناه .

ولعله يجذب الأنظار الى التراث الأندلسى المجيد ومافيه من آيات بينات .

القسم الأول

الفردوس المفقود

الفصل الأول
الحضارة الأندلسية

حمل العرب معهم الى الأندلس تراثهم الاسلامى المجيد ، كما حملوا معهم بذور الحضارات القديمة من مدنيات الفرس والاغريق والرومان والهنود .. وظلت موجات الحضارات القديمة والحديثة تنتقل من الشرق الى الغرب على التوالى فى سرعة عجيبة سواء عن طريق العلماء الوافدين أو الراحلين أو عن طريق المصنفات .

وعنى حكام الأندلس عناية فائقة باستقدام كبار علماء المشرق وشعرائه وأدبائه ؛ ومن أبرز أعلام المشرق الراحلين الى الأندلس أبو على القالى صاحب الأمالى ، وصاعد الشاعر البغدادى وزرياب الفنان العظيم فى الموسيقى والغناء وأساليب الحياة الاجتماعية الراقية . ومن أشهر الأندلسيين الذين قاموا برحلات علمية الى المشرق وعادوا منه لينشروا ما نقلوه فيه من علوم وآداب : عبد الملك ابن حبيب ومنذر بن سعيد البلوطى ، وابن الفرضى وأبو الوليد الباجى ، وغيرهم من الأعلام ؛ بل ان كثيرين منهم رحلوا الى الشرق لينشروا فيه ما وصلوا الى ابتكاره من علوم مثل جمال الدين محمد ابن مالك صاحب الألفية ومحيى الدين بن عربى وابن خلدون وغيرهم من كبار المصنفين وكانت الرحلات لأداء فريضة الحج من الغرب الى الشرق متوالية متتابعة ، وكل من أدى هذه الفريضة يحرص على أن يقابل مشاهير علماء المشرق فيدرس ما لديهم ويعود به الى الأندلس ذخيرة يعتز بها أمام أهله وأصدقائه والمحيطين به وبقدر

ما يحمل من اجازات علمية (١) تعلو مكانته وتذيع شهرته وترتفع منزلته بين طوائف المثقفين وكان خلفاء الأمويين بالأندلس يحرصون على أن يجذبوا اليهم طوائف علماء المشرق وأدبائه ويغمروهم بالهدايا والألطاف واذا لم يتيسر لهم استقدام هؤلاء العلماء حرصوا على أن يحصلوا على مصنفاتهم الأدبية قبل اذاعتها بالشرق فقد أرسل الخليفة الحكم المستنصر ألف دينار الى أبى الفرج الأصفهانى ليبعث اليه نسخة من كتابه الرائع « الأغانى » قبل أن يظهر بالمشرق ، وقد أنشأ بقرطبة مكتبة جامعة لم يسمع بمثلها ، ويقدر بعض الباحثين كتبها بمائتى ألف مجلد ويقدرها آخرون بمقدار ٤٠٠ ألف مجلد (٢) وكانت فهارسها وحدها ٤٤ كراسة فى كل كراسة منها خمسون ورقة ، ولم يكن بهذه الكراسات غير أسماء الكتب وحدها دون تعريف كامل بها (٣) وهذا العدد يدعو الى الدهشة وبخاصة اذا علمنا ان مخطوطات دار الكتب بالقاهرة الآن أقل من مائة ألف مخطوط ؛ وكان الحكم يقضى ساعات وأياما بهذه المكتبة وعهد الى أخيه عبد العزيز بالاشراف عليها .

وكان اقتناء الكتب شارة من شارات الرياسة والشرف حتى عند الجهال (٤). ويقدر الباحثون عدد مكتبات الأندلس العامة بنحو ستين مكتبة أنشأها الخلفاء الأمويون وغيرهم ، بل يقال : ان غرناطة وحدها كانت بها سبعون مكتبة عامة (٥) .

(١) الأجازات العلمية هى أن يجيز أستاذ مرموق المكانة لأحد تلاميذه أن يروى عنه كتبه أو ما حصله من كتب غيره ، ويكتب له وثيقة بذلك ؛ ولابد للمجيز أن يثبت فى اجازته سند ما يرويه عن غيره من مصنفات أو آراء .

(٢) الحلة السيراء ص ١٠١ — ١٠٣ The Moors in Spain, By Stanley Lane Poole. London 1920 . P. 155

(٣) نفح الطيب طبع ليدن جـ ١ ص ٢٥٦ وبلاغة العرب فى الأندلس ص ١٠ وتاريخ ابن خلدون جـ ٤ ص ١٤٦ .

(٤) نفح الطيب جـ ١ ص ٣٠٢ .

(٥) الأدب العربى وتاريخه للأستاذ محمود مصطفى مطبعة مصطفى البابى الحلبى سنة ١٩٣٨ جـ ٣ ص ٣١ ، ٣٢ .

وكان بالربض الشرقى من قرطبة مائة وسبعون امرأة يشتغلن بكتابة المصاحف بالخط ، هذا فى ناحية من نواحى قرطبة فكيف بجميع أحيائها (١) بل ان دكان نسخ واحد بقرطبة كان يستخدم مائة وسبعين جارية فى نقل المؤلفات لطلاب الكتب النادرة (٢) .

ولم تكن ثقافة الأندلسيين مقصورة على الأدب العربى وحده بل اقبلوا على الثقافات الأخرى يلتهمونها التهاما وبخاصة ثقافة الفرس والاغريق والرومان ، وكانت السفارات متبادلة بين الأندلس ودولة الروم الشرقية وكان حكام الدولتين يتبادلون الهدايا والتحف والألطاف وقد تلقى الخليفة عبد الرحمن الناصر من الامبراطور الرومانى هدايا عديدة استغلها فى تشييد مدينته « الزهراء » ما بين أعمدة رخامية وتماثيل مذهبة وأحواض مرمرية ، وكانت هذه الصلات ردا على صلات بغداد العباسية بالفرنجة أعداء الأندلسيين الألداء (٣) .

أما ما روته بعض المصادر الأدبية من أنهم كانوا يضيقون بالفلسفة القديمة والحديثة (٤) فان هذا حدث مرات محدودة حيث قام بعض الخلفاء والحكام باحراق طائفة من الكتب الفلسفية ارضاء للعامة فى ظروف خاصة ، فعل هذا الحاجب المنصور مع انه كان محبا للفلسفة مقبلا عليها (٥) ومن المعروف أن دراسة الفلسفة مقصورة على صفوة المثقفين فى جميع العصور ، وقد ذكر صاعد الأندلسى أسماء عشرات العلماء المشتغلين بالدراسات الفلسفية بالأندلس فى عصره « توفى سنة ٤٦٢ هـ » حيث أعلن أن العقول قد تحررت وأن كل من بقى لديه آثار فلسفية أظهرها « فلم تزل

---

(١) المعجب لعبد الواحد المراكشى مطبعة الاستقامة سنة ١٩٤٩ ص ٣٧٢ .

(٢) أثر العرب فى الحضارة الأوربية للأستاذ عباس محمود العقاد طبع دار المعارف سنة ١٩٤٦ ص ١١١ .

(٣) The Moors in Spain. P. 140-134

(٤) نفح الطيب جـ ١ ص ١٣٦ .

(٥) المصدر السابق .

الرغبة ترتفع فى طلب العلم القديم شيئا فشيئا ، وقواعد الطوائف تتحضر قليلا الى وقتنا هذا فالحال بحمد الله أفضل ما كانت بالأندلس فى اباحة تلك العلوم » (١) .

وخير دليل على اباحة العلوم الفلسفية وانها أصبحت محل التنويه والاطراء وأن الفلاسفة أصبحوا فى منزلة لا تكاد تقل عن منزلة الفقهاء — خير دليل على ذلك ما صاغه ابن زيدون فى قصيدته الفائية التى وجهها الى المعتضد بن عباد حيث يقول فيها :

همام يزين الدهر — منه — وأهله
مليك فقيه كاتب متفلسف (٢)

وما كان ابن‌زيدون ليقرن — فى مدحه للمعتضد — الفقه بالملك ، والكتابة بالفلسفة مالم تكن لها جميعا مكانتها من التقدير (٣) .

وفى عصر الطوائف الذى عاش فيه ابن زيدون برزت طائفة من أعلام المشتغلين بالشئون الفلسفية من أشهرهم ابن حزم الفقيه الكاتب الفيلسوف .

ب — والاسلام بطبيعته يجعل التعليم فرضا حتميا « فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون » ويجعل كل عالم ملزما أن يبث علمه ؛ فقد أخبرنا النبى صلى الله عليه وسلم أن « من كتم علما ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة » (٤) والتعليم فى الاسلام بالمجان دون أجر (٥) قال تعالى « اتبعوا من لا يسألكم أجرا وهم مهتدون » وقد حدد الرسول صلوات الله عليه مهلة عام واحد لمحو الأمية وهدد

---

(١) طبقات الأمم ص ٦٧ .

(٢) ديوان ابن زيدون تحقيق على عبد العظيم ص ٤٨٦ من قصيدته فى مدح المعتضد وتهنئته بعيد الأضحى سنة ٤٤٦ هـ .

(٣) تاريخ العرب مطول للدكتور فيليب حتى وزميليه مطبعة دار الكشاف ببيروت سنة ١٩٥١ جـ ٣ ص ٦٦٢ ، ٦٦٣ .

(٤) رواه أبو داود والترمذى والحاكم وغيرهم .

(٥) التعليم فى الاسلام عبادة والعبادة لا يطلب صاحبها عليها أجرا الا من الله وحده — وعند الضرورة يباح له أن يأخذ عليها الأجر الدنيوى .

من لا يعلمون العلم ومن لا يتعلمونه بالعقوبة العاجلة فى الدنيا ، واعتبر اهمال المعلمين والمتعلمين عدوانا ومنكرا يوجب اللعنة والعذاب (١) وفى ضوء هذا التوجيه السديد أقبل المسلمون على العلم ينهلون من معينه العذب ويطلبونه فى جميع المصـــادر ويتلقونه من كافة الأمم ولم يكتفوا بتحصيل شتى أنواع العلوم بل وضعوها موضع التجربة والاختبار فميزوا الصحيح من الزائف ، وقاموا بتجارب علمية عديدة أسسوا بها حضارة شامخة البنيان متينة الأركان ظلت مصـــدرا للحضارة الانسانية عدة قرون ؛ أما فى الأندلس فقد ازدهرت الثقافة الاسلامية ازدهارا عظيما ، وحسبنا أن نرجع الى طبقات الأمم لابن صاعد الأندلسى والى المكتبة الأندلسية (٢) والى نفح الطيب ، وغيرها لنعرف مقدار ما بلغته الثقافة الأندلسية من نمو وازدهار ، والى هذا أشار دوزى فقال : « كان كل فرد فى أسبانيا يعرف القراءة والكتابة وذلك مالم يشاهد فى وقته فى بلد آخر ما عدا أســـبانيا الاسلامية » (٣) ويقول ربيرا Ribera فى محاضرة له : « يمكن وصف التعليم على عهد الحكم المستنصر بوصفين أحدهما الالزام والآخر المجانية » (٤) والالزام لم يكن حكوميا فحسب وانما فرضته البيئة الاجتماعية ، وكان العرب اذا فتحوا بلدا أنشأوا فيها مسجدا ومدرسة (٥) ويوازن دوزى بين الحالة فى الأندلس والحالة فى أوربا فيقول : « كان كل فرد فى الأندلس يعرف القراءة والكتابة على حين

---

(١) اشتراكية الاسـلام للدكتور مصطفى السباعى « الطبعة الثانية » سنة ١٩٦٠ ص ١١١ — ١١٤ .

(٢) سلسلة كتب من تراث الاندلس لمؤلفين مختلفين نشرها قديرة المستشرق الاسبانى فى عشرة مجلدات طبع مدريد .

(٣) الأدب الاندلسى للأستاذين أحمد بلافريج وعبد الجليل خليفة مطبعة الوحدة العربية بتطوان سنة ١٩٤٠ ص ٣٩ .

(٤) المصدر نفسه والصفحة السابقة .

(٥) بلاغة العـرب فى الأندلس للدكتـور أحمـد ضيف . مطبعـــة مصر سنة ١٩٢٤ ص ١١ .

كانت أوربا المسيحية تتخبط فى دياجير الجهالة اذا استثنينا منهم رجال الدين ، وعلى العموم كان أفراد الطبقة الراقية بأوربا فى جهل تام وظلام دامس » (١) هذا فى عهد العرب مع أن أسبانيا فى العصر الحديث لا تتجاوز نسبة المتعلمين فيها ٢٥٪ كما تقرر هذا غوستاف لوبون (٢) وكان تعليم البنات شائعا عند الأندلسيين ، وكانت كثيرات منهن يحفظن عدة دواوين من شـــعر العرب وينظمن ويترسلن كالأوربيات اليوم (٣) وقد بلغت بعضهن من المكانة أنها كانت أستاذة تدرس أمهات الكتب الأدبية واللغوية للرجال مثل اشراق السويداء قال أبو داود سليمان بن نجاح « أخذت عنها العروض وقرأت عليها النوادر لأبى على القالى والكامل للمبرد وتوفيت سنة ٤٤٣ هـ » (٤) وكان للطب أربع مدارس آهلة بالمدرسين والتلاميذ من جميع الملل والأجناس فى قرطبة واشبيليه وطليطلة ومرسية (٥) أما المدارس العامة فكان بقرطبة وحدها ثمانون مدرسة عامة ، وكان الحـكم قد أنشأ بها سبعا وعشرين مدرسة اتخذ لها المؤدبين يعلمون أولاد الضعفاء والمساكين القرآن الكريم وأجرى عليهم المرتبات (٦) .

وكانت المجامع العلمية والأدبية تعقد بقصور الخلفاء وأحيانا بالمساجد العامة ، وكان الحاجب المنصور يبذل جهده فى ازدهار العلوم ونشرها بين الشعب على اختلاف طبقاته وأجناسه فكان يزور المدارس ويحضر الدروس ويختلط بالطلبة ويمتحن المدرسين ويكافىء التلاميذ على جهدهم ويجلس فى مجالس العلم للمناقشة

(1) A Short History of the Sarcens, By Amir Ali. New y ork 1899.p. 515,

(٢) حضـارة العرب لغوستاف لوبون ترجمة زعيتر سنة ١٩٤٥ ص ٦٠٦ .

(٣) غابر الأندلس وحاضرها للأستاذ محمد كرد على المطبعة الرحمانية بالقاهرة سنة ١٩٢٣ ص ٨٧ .

(٤) التكملة لابن الابار طبعة مدريد سنة ١٨٨٧ جـ ٢ ص ٧٤٥ .

(٥) بلاغة العرب فى الأندلس ص ١٢ .

(٦) غابر الأندلس وحاضرها ص ٨٩ .

والبحث ويختار من نوابغ العلماء القضاة والقراء والخطباء وان كان يتظاهر بكراهته علوم الفلسفة والنجوم ارضاء للعامة (١)، وكان له مجلس أسبوعي يجتمع فيه بأهل العلم للمذاكرة في مختلف العلوم، شأنه في هذا شأن الخلفاء والأمراء الذين كانوا يحددون أوقات خاصة يجتمعون فيها بالعلماءوالشعراء والأدباء ويغدقون عليهم الأموال (٢) مما جعل قرطبة مصدر اشعاع يرسل اضواءه على العالم المسيحي وحمل الشاعرة الألمانية هروزثيا على تسمية قرطبة باسم « زينة العالم » (٣) وكان للعلماء والمؤرخين والشعراء مجامع علمية وأدبية أشبه بالأكاديميات العلمية في العصر الحديث وذلك لنشر المعارف والعلوم . وقد أنشأ الحكم مجمعا علميا في قصر مروان، وقلده غيره من أمراء الأندلس فكونوا مجامع علمية لهم، وأنشأ أحمد بن سعيد مجمعا في طليطلة وكان أربعون عالما من طليطلة يعقدون اجتماعاتهم عنده في ردهة فرشت أحسن فرش فيفتحون عملهم بتلاوة آيات الذكر الحكيم، ثم يتذاكرون تفسير ما تلوه ثم يستطردون الى البحث في فنون شتى من العلم والحكمة (٤) وهناك قول مأثور ينقشونه على أكثر معاهدهم العلمية هو : « ان العالم يقوم على أربعة أمور : علم الحكماء وعدل العظماء، ودعاء الصلحاء وشجاعة الشجعان » (٥) .

هذه النهضة الفكرية جعلت أوربا الغارقة في الظلام تتجه بكليتها الى هذه البقعة المباركة المشرقة بأنوار العلم والعرفان والى هذا أشار غوستاف لوبون بقوله : « مضت مدة طويلة قبل شعور أوربا بهمجيتها، ولم يبد ميلها للعلم الا في القرنين الحادى عشر والثانى عشر من الميلاد، فلما ظهر فيها أناس رأوا أن يرفعوا عنهم أكفان

---

(١) نفح الطيب ج ١ ص ١٣٦ وبلاغة العرب في الأندلس ص ١٠ ، ١١ .

(٢) رحلة الأندلس ص ١١٣ .

(٣) الاسلام في اسبانيا للدكتور لطفى عبد البديع مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٥٨ ص ٨٨ .

(٤) غابر الأندلس وحاضرها ص ٨٨ ، ٨٩ .

(٥) تاريخ العرب مطول ج ٣ ص ٦٦٩ .

الجهل ولوا وجوههم شطر العرب ، ولم تكن الحروب الصليبية سببا فى ادخال العلوم الى أوربا كما يظن على العموم وانما أدخلت اليها من أسبانيا وصقلية وايطاليا » (١) ويقل لين بول : « ملك المسلمون ثلثى شبه الجزيرة وسموها الأندلس لتمييزها وأسسوا فيها مملكة قرطبة العظمى التى صارت أعجوبة القرون الوسطى وحملت مشعل المدنية والثقافة متألقة متوهجة فى الغرب على حين كانت أوربا غارقة فى ظلمات الجهالة والبربرية فريسة للمنازعات والحروب » (٢) .

ونحن نعلم أن الثقافة تزدهر وتؤتى أطيب ثمراتها فى ظل الحرية التى يكفلها القضاء ويسهر عليها الرأى العام ، أما حرية القضاء فيكفى أنه كان يتمتع باستقلاله عن السلطة التنفيذية حتى كان الخليفة لا يستطيع أن يولى قاضيا الا اذا انطبقت عليه شروط خاصة ووافق على ولايته رجال القضاء ، والى هـذا يشير ابن الخطيب بقوله « فكانت للقضاة بها المنزلة العالية والرتبة السامية مع كون الخلفاء منقادين لأحكامهم واقفين عند نقضهم وابرامهم » (٣) .

ومن الشروط المرعية فى ولاية القضاء أن يكون القاضى غنيا « خوفا من أن يميل به الفقر الى الطمع فيما فى أيدى الناس » (٤) وكان للقضاة فى الأندلس مشاورون حتى لا يصدروا الا عن آراء ناضجة (٥) وما أشبه هذا بنظام المحلفين المتبع فى كثير من الدول الغربية الآن .

ولقد كان والد الشاعر أحد هؤلاء المشاورين الكبار وفى مقدمة

(١) حضارة العرب ص ٥٨٨ ، ٥٨٩ .

(٢) The Moors in Spain p. 43

(٣) تراث الاسلام جـ ٢ ص ٢٠ ، ٢١ ورحلة الأندلس ص ١٠٤ .

(٤) أعمال الأعلام جـ ٣ ص ١٦٩ ونفح الطيب جـ ٢ ص ١٤٤ .

(٥) ابن زيدون عصره وحياته وأدبه ص ٥٧ ، ٥٨ .

الفقهاء ذوى الرأى والمكانة عند الحكام (١). ولقد كاد الفقهاء يثلون عرش الحكم بن هشام الربضى . وقام بينه وبين هؤلاء الفقهاء صراع عنيف رجحت فيه كفتهم لولا أنه أحسن الاحتيال واستطاع بدهائه وحيلته أن يفض الجموع التى التفت حولهم وأن يكسب أخيرا الرأى العام الى جانبه ، وأعانه على هذا تزمت كثير من الفقهاء ، وجمودهم وتمسكهم ببعض النصوص الفقهية التى يخالفهم فيها كثير من الفقهاء ؛ ولم يهدأ بال الحكم ولم يستقر حكمه حتى نفى زعماء الفتنة الى اقريطش « كريت » (٢)

هذه النهضة العلمية صحبتها نهضة اقتصادية وعمرانية واجتماعية سجلتها المصادر الكبرى فى تاريخ الأندلس بصفة خاصة وفى تاريخ الحضارة العربية بصفة عامة .

وحسبنا أن نشير فى هذا المقام الى بعض مظاهر هذه النهضات .

يقول ابن حوقل : « وأما جزيرة الأندلس فتغلب عليها المياه الجارية والشجر والثمر والرخص والسعة فى الأحوال من الرقيق الفاخر والخصب الظاهر الى أسباب التملك الفاشية فيها ؛ ولما هى فيه من أسباب رغد العيش وسعته وكثرته يملك ذلك منهم مهانهم وأرباب صنائعهم لقلة مئونتهم وصلاح معاشهم وبلادهم .. » (٣) ولوفرة الثروة عندهم كانوا يكرهون السائلين ويقسون فى معاملتهم اذا كانوا قادرين على الكسب ، فلا نجد بالأندلس سائلا الا أن يكون صاحب عذر (٤) وقلما يكون العذر الا لمرض يعوق عن العمل ، فقد كان الحكام يبسطون أيديهم بالبذل والمعونة لمن يحتاج الى عمل يمارسه ويحدثنا المراكشى ان ابا الحزم بن جهور حاكم قرطبة كان يوزع الأموال على أهل الأسواق لتكون رءوس أموال يحافظون على

(١) اعتاب الكتاب لابن الأبار « مخطوط بدار الكتب المصرية ص ٧٦ » .
(٢) المعجب ص ٢٠ ، ٢١ .
(٣) نفح الطيب جـ ١ ص ١٢٩ ، ١٣٠ .
(٤) الحلل السندسية جـ ١ هـ ص ١٨٥ .

أصولهم أمانة فى أيديهم ويفوزون بأرباحها خالصة لهم (١) وهو موقف لم تصل اليه المدنية الحديثة حتى الآن ، فالمصارف تقرض ولكن بشروط وضمانات قاسية وبأرباح تتجدد عاما بعد عام ربما استنفدت طاقات وأرباح التجار والعمال (٢) .

وانعكست ظلال هذه الثروة على حياة الأندلسيين فقد حفلت كتب التاريخ بأنباء قصورهم الشاهقة وآثارهم الزاهرة وحياتهم الحافلة بألوان البهجة والمتاع ، فهم أول من عنى برصف شوارع المدن بالحجارة واضاءتها وكان بعضها يمتد الى عشرة أميال تضاء بمصابيح تطل عليها من المنازل المحاذية لها (٣) ويوازن الدكتور حتى بين حواضر الأندلس فى القرنين العاشر والحادى عشر وبين لندن وباريس فى القرنين السابع عشر والثامن عشر ثم يذكر « أن لندن لم يتحقق لها قنديل واحد عمومى حتى ما بعد ذلك بسبعمائة سنة ، وأما فى باريس فبعد ذلك ببضعة قرون كان الذى يتخطى عتبة داره فى يوم ماطر لا يأمن الخوض فى لجة من الوحل » (٤) .

أما ازدهار الاقتصاد الزراعى والهندسى فى الأندلس فيحدثنا الأستاذ مستيم Mestyme فى مؤتمر المستشرقين بمرسيليا سنة ١٨٧٦ : « أن فرنسا أخذت من الأسبان العلوم المختلفة وأساليب الزراعة وتعلمت منهم حفر الترع والخلجان ونظام الرى وحاصلات الشرق من الحبوب والأشجار والنباتات التى زاولوا زراعتها بالأندلس وعالجوها حتى صارت صالحة للزراعة بأوربا » (٥) .

أما الصناعة فقد ضربوا فيها بسهم وافر ، فهم أول من أسس

---

(١) المعجب ص ٥٩ ، ٦٠ .

(٢) من الانصاف لثورتنا المجيدة أن نقرر أنها الغت أرباح القروض التى تقدمها الجمعيات التعاونية للفلاحين المصريين وقد صدر بالمجلة الليبية اخيرا مرسوم بالغاء أرباح المصارف الزراعية والعقارية .

(٣) غابر الأندلس وحاضرها ص ٨٤ .

(٤) تاريخ العرب مطول جـ ٣ ص ٦٢٦ .

(٤) تاريخ العرب مطول جـ ٣ ص ٦٢٦ .

مصانع الورق فى أسبانيا وفى صقلية ومنهما انتقلت هذه الصناعة الى ايطاليا (١) وقد برع الأندلسيون فى كثير من فنون الصناعة ولا يتسع المجال لتناول صناعاتهم بالتفصيل .

ومن الطبيعى أن تزدهر التجارة بازدهار الزراعة والصناعة ؛ وقد حفزهم هذا الى انشاء الأساطيل التجارية التى كانت تمخر عباب البحر الأبيض والمحيط الأطلسى وبهذا غزوا أسواق الاسكندرية والقسطنطينية ودمشق وبغداد (٢) أما الحضارة العمرانية ــ ونقصد بها حركة البناء والتشييد ــ فهى نتيجة حتمية لازدهار الحضارة ووفرة الثراء وقد حدثنا المؤرخون أحاديث مستفيضة عن هــذه الحضارة ، ومهما يكن فى أقوالهم من مبالغات أو ما نظنه مبالغات فان الآثار الباقية حتى الآن تنطق بمدى ما وصلت اليه فنونهم العمرانية مما أدهش معاصريهم ولا يزال يفوز باعجاب المعاصرين فى العهد الحديث ، مما جعل هذه الآثار مقصد عشرات الآلاف من أنحاء العالم يشدون اليها الرحال ويقفون أمامها موقف الاعجاب والتقدير .

ولقد طوى الشاعر شطر حياته فى قرطبة ، والشطر الثانى فى اشبيلية وهذا يقتضينا الاشارة الى الحضارة العمرانية فى كلتا المدينتين لنلمس أثر البيئة فى تكوين شاعرنا العظيم .

أما قرطبة فهى درة الأندلس الوضاءة واحدى كبريات الحواضر العالمية فى القرون الوسطى أفتن العــــرب فى تشييدها وعمرانها فناهزت قصورها ستين ألف قصر وحماماتها سبعمائة حمــــام ومساجدها ١٦٠٠ مسجد (٢) ولا يكاد سكانها يبلغون الآن خمسين

---

(١) تراث الاســلام جـ ٢ ص ٨٧ يراجع فى هذا : غابر الأندلس وحاضرها ص ٨١ وما بعــدها وتاريخ العرب مطول جـ ٣ ص ٧٠٢ ــ ٧٠٩ ورحلة الأندلس ص ١١٢ ، ١١٣ و A Short History. تاريخ العرب جـ ٣ ص ٦٢٩ ، ٦٣٠ .

(٢) صبح الأعشى جـ ٥ ص ٢٢٦ ، ٢٢٧ و A Short Hist. p. 518.

الفا ؛ وما كانت بأوربا مدينة في وقتها يتجاوز سكانها الخمسين الفا على أكثر تقدير (١) .

وكما اشتهرت قرطبة بجامعها الكبير اشتهرت بالقنطرة الفخمة المقامة على نهرها المتدفق والمجال لا يتسع للافاضة في هذا الحديث فالمراجع التاريخية حافلة بالتفصيل (٢) .

وقد لهج شاعرنا بوصف قرطبة فى قصائد عديدة يقول فى احداها (٣) :

أقرطبـــة الغــراء هل فيك مطمع ؟
وهل كبد حــــــرى لبينك تنقع
وهل للياليـــــك الحميدة مرجع ؟
اذا الحسن مرأى فيك واللهو مسمع؟
واذ كنف الدنيـــا لديك موطأ

نهارك وضـــاح وليلك ضـــحيان
وتربك مصبوح وغصنك نشـــوان
وأرضك تكسى حين جـــوك عريان
ورياك روح للنفــوس وريحـــان
وحسب الأمـــانى ظلك المتفيأ

واستمر الشـــاعر فى قصيدته يتحدث عن مشاهد قرطبة الجميلة ويصف ما تحفل به من روعة ورواء حيث تحـــدث عن « العقيق » و « عين شهدة » و « الجوسق النصرى » و « مصنعة الدولاب » و « قصر ناصح » أما الزهراء ضاحية قرطبة الجميلة فقد لهج بها فى عديد من قصائده .

---

(١) أثر العرب فى الحضارة الأوربية .

(٢) راجع نفح الطيب و The Moors in Spain ففيـــه وصف حافل مستفيض لهذه الآثار .

(٣) من مخمسات طويلة قالها فى الحنين الى قرطبة مطلعها :

تنشق من عرف الصـــبا ما تنشقا وعاوده ذكر الصـــبا فتشـــوقا

وأما اشبيلية فتقع على شاطئ الوادى الكبير فى أجمـــل بقاع الأندلس وأعدلها هواء ، وكانت حاضرة للأندلس **قبل الفتـــح** الاسلامى ، وفى عهد عبد العزيز بن موسى بن نصير ذكر الحميدى « انها مدينة كبيرة عامرة لها أسوار حصينة وأسواقها عامرة وخلقها كثير وأهلها مياسير ، ويطل عليها جبل الشرف وهو شريف البقعة كريم التربة دائم الخضرة مسافة ٤٠ ميلا تظلها اشجار الزيتون والتين وسعته ١٢ ميلا وفيه ثمانية آلاف قرية عامرة بالحمامات والديار الحسنة لا تكاد تشمس منه بقعة لالتفاف زيتونه واشتباك غصونه (١) ويذكر الأستاذ البتانونى فى رحلته (٢) : « ان المسافة بينها وبين قرطبة ١٣١ كيلو مترا وكانت عروس الأندلس فى عصر ملوك الطوائف ، وهى الآن أحسن مدينة فى الأندلس بعد مدريد وســكانها ١٥٠ ألف نفس وهم أقل من نصف عـددهم فى مدة العرب » .

وكانت مشهورة بمجالس اللهـــو والشراب حتى قال فيها ابن رشد : « اذا مات عالم باشبيلية فأريد بيع كتبه حملت الى اقرطبة حتى تباع فيها ، واذا مات مطرب بقرطبة فأريد بيع تركته حملت الى اشبيليه » (٣) وليس معنى هذا أن اشبيليه منصرفة عن الأدب ولا أن قرطبة منصرفة عن الطرب وانما يريد أن لكل منهما صفتها الغالية عليها ومن آثارها البديعة الباقية قصر بنى عباد ويسمونه الآن الكازار « وهى محرفة عن كلمة القصر » .

وكما لهج شاعرنا بقرطبة تغنى باشبيلية ومن أمثلة ذلك قوله من قصيدة فى وصف حديقة غناء باشبيلية للمعتضد تضم حماما رخاميا مفعما بالماء الحار والى جانبه تمثال مصقول لغادة هيفاء (٤) :

---

(١) صفة جزيرة الاندلس ص ١٩ ــ ٢١ .
(٢) رحلة الأندلس ص ٥٩ .
(٣) الحلل السندسية ج ١٠ ص ٢٤١ .
(٤) فجر الاسلام ص ٧ ــ ٩ وابن زيدون عصره وحياته وأدبه ص ١٥ .

بوأتنى نعمـــاك جنة عـــــدن
جال فى وصـــفها فضـــل القريض

مجتنى مــــدن ، وظـــل برود
ونسيم يشفى النفـــوس مريض

وميـــــاه قد أخجل الورد أن عا
رض تذهيبـــه لهـــا تفضيض

لـــع طـــلة من العيش مـــا ان
للهـــوى عن محـــلها تقويض

وللشعراء فى الحديث عن قرطبة واشبيلية وغيرهما من حواضر الأندلس أوابد عديدة حفظتها لنا كتب الأدب والتاريخ أو ما بقى منها من مطبوعات ومخطوطات .

وبعد أن أوجـــزنا الحديث عن حضـــارة الأندلس فى عصر ابن زيدون ، حان لنا أن نتكلم عن الأحداث السياسية فى عصره ولقد كان له فى هذه الأحداث نصيب أى نصيب وبخاصة مع بنى جهور وبنى عباد .

الفصل الثانى

الأحداث السياسية

انتثر عقد الخلافة الأموية بالأندلس ولم يكن هنـــاك بد من انتثاره ؛ وليس عجيبا أن ينفرط هذا العقد النظيم ولكن العجيب أن يظل متماسكا أو شبه متماسك نحو ثلاثة قرون :

فلم تكن هناك وحدة شاملة وثيقة تضم شتات هـــذه الأمة الا وحدة الدين الاسلامى والثقافة العربية فلما ضعفت النوازع الدينية استسلم القوم الى مظاهر الترف ومغريات النعيم ، فضعف شأنهم وتبدد شملهم ؛ ثم بدأت الثقافات الأجنبية تزحم الثقـــافة العربية ، كالثقافة الاغريقية والثقافة اللاتينية وانتشر اللحن انتشارا كبيرا وبدأ الشعراء يبتعدون عن القواعد المنهجية ، وأخذ بعضهم ينظم مشاعره باللغة العامية كابن قزمان وأضرابه ، وتسربت اللهجات الدارجة الى الموشحات الأندلسية ؛ أما الشعراء والكتاب المتمسكون بالفصحى فقد انتقلت اليهم عدوى التكلف والعنـــاية بالمحسنات البديعية والتزام الســـجع حتى فى كتبهم التاريخية والأدبية ، فما بقى لنا من تاريخ ابن حيان المطول يحفل بنماذج عديدة يكاد يغص بها من ألوان السجع المتكلف .

ومن الطبيعى أن هـــذا كله لم يتم بغتة وانما بدأت عوامل الضعف تتطرق الى الفنون الأدبية عند تمام ازدهارها وظلت تنفث سمومها فى كيان الأدب العربى بضعة قرون ؛ وظهرت الجراثيم فى المشرق أيضا فأخذت اللغتان الفارسية والتركية ومن بعدهما الأردية تزحم اللغة العربية وتقف انتشارها بعد أن اتسع مدها الى معظم

انظار العالم المعروف ؛ وفى العصر الحديث بدأت اللغة الأندونيسية تزحم لغة الضاد ــ وكانت بالأندلس عوامل عديدة تعمل على هدم الخلافة الأموية بها مثل الخلافات العنصرية العديدة بين القبائل العربية وبخاصة بين العدنانيين والقحطانيين بل بين فروع كل منهما (١) وقد اجتاحت الأندلس ثورات عديدة نتيجة لهذه العصبية العنيفة وبلغ عدد هذه الثورات أكثر من عشرين ثورة قبل عهد الطوائف ؛ ولا يكاد تاريخ أمير أو خليفة يخلو من احدى هذه الثورات .

وكانت هناك عصبية أعنف أثرا هى العصبية بين العرب والبربر، فقد كان العرب يشعرون بنوازع الاستعلاء على غيرهم من الشعوب وبخاصة فى عصر الأمويين بالمشرق .

ولقد تم فتح الأندلس وكان العبء الأكبر فى هذا الفتح الاسلامى على البربر فان جيش طارق بن زياد كان مكونا من ٧٠٠٠ مقاتل بربرى و ٣٠٠ عربى فقط .

ومع هذا فقد استأثر العرب بأحسن البقاع فى الأندلس وتركوا أسوأها للبربر فأنزلوهم بالأقاليم الشمالية حيث تصعب المعيشة ويتصل القتال بينهم وبين المسيحيين فى معاقلهم الحصينة بقلل الجبال فى ليون وجليقا واستورقة (٢) .

ولقد كانت هذه العصبية هى السبب الأقوى فى فشل الحملة الاسلامية على فرنسا حيث انهزم العرب لأول مرة هزيمة حاسمة على شاطىء نهر اللوار أمام شارل مارتل ، ولولا هذه الهزيمة لسقطت دول اوربا فى قبضة الاسلام .

وأمام هذه العصبية العنيفة قام البربر بثورات عديدة عنيفة

---

(١) تراث الاسلام جـ ١ ص ١٠ ، ١١ .

(٢) راجع توزيع القبائل على الكور الأندلسية ص ٤٦ من الحلة السيراء The Moors in Spain P. 54-55.

لم يخل منها عصر أمير أو خليفة حتى استطاعوا أن يستقلوا استقلالا تاما ببعض الولايات .

وهناك عدة خصومات أعنف أثرا وأبلغ نتيجة هى الخصومة القائمة بين العرب والبربر من جهة ، والصقالبة من جهة أخرى .

ثم الخصومة القائمة بين المسلمين والمسيحيين ؛ ثم الخصومات المذهبية التى تسربت الى الأندلس مثل الدعوة العباسية والدعوة الفاطمية ، ولا يتسع المجال لتتبع آثار هذه الخصومات العنيفة . وحسبنا أن نذكر إنها كانت من أهم العوامل فى تناثر عقد الخلافة الأموية بالأندلس على الرغم من بلوغها قمة عالية من النمو والازدهار الثقافى العظيم .

ملوك الطوائف

توفى الخليفة الحكم بن عبد الرحمن الناصر سنة ٣٦٦ هـ وكان ولى عهده هشام لم يتم الثانية عشرة من عمره فتولى شئونه المصحفى باسم الحاجب ، ثم الحاجب المنصور وكان ذا شخصية قوية هيمن على هشام وحجبه عن الناس وانفرد هو بشئون الحكم ، وكان قوى البأس مرهوب الجانب واسع الثقافة عليما بفنون الحرب ، فقاد الجيوش وبسط نفوذ المسلمين على شبه الجزيرة كلها وخضع له المسيحيون بالشمال وبلغ ما لم يبلغه ملك او حاكم سواه وتوفى سنة ٣٩٣ هـ وبعد وفاته بدأ الانهيار . فقد خلفه ابنه عبد الملك فى الحجابة فاستمر فارضا وصايته على الخليفة هشام على الرغم من أن هشاما قارب الثلاثين ؛ ولكن وصاية عبد الملك لم تدم أكثر من عامين حيث مات بالذبحة الصدرية وقيل مات مسموما فخلفه فى الحجابة أخوه عبد الرحمن بن أبى عامر ، ولم يكن له حزم أبيه ، فأساء السيرة وبسط يده فى أموال الناس فأبغضوه ، وكان الى هذا خليعا مستهترا يقال انه سمع مؤذنا ينادى « حى على الصلاة » فقال : لو قلت « حى الى الكأس لكان خيرا » ولم يكتف بوصايته على الخليفة بل تطلع لأن يلى الخلافة

فأرغم هشاما على أن يوليه عهده ؛ فثارت ثائرة الشعب وتطلع المخلصون الى استعادة قوة الخلافة الأموية ، وبخاصة بعد أن انحاز الحاجب المنصور وأبناه الى البربر . فهاجمت الجماهير قصر الخليفة هشام وأرغموه على أن يتنازل عن الخلافة الى محمد بن هشام الأموى وبايعوه بالخلافة وتلقب بالمهدى ولكنه كان أحمق طائشا فاضطهد البربر وأباح للعامة نهب دورهم وأطلق الغوغاء من السجون وأطلق أيديهم فى النهب والسلب وبعد أيام أمر بكف أيديهم ، ثم نهب هو ما استطاعت يده الوصول اليه من الذخائر النفيسة ، وامتد شره الى زعماء بنى أمية أنفسهم والى زعماء الصقالبة ، فاتجه الجميع الى سليمان بن الحكم الأموى وبايعوه بالخلافة باسم (١) المستعين بالله ، وقامت فتن عديدة وثورات عنيفة كانت نتيجتها الفتك بكثيرين من العلماء والزعماء والنســاء والأطفال واستباح العامة لأنفسهم هتك الأعراض وخطف الحرائر وبيعهن فى الأسواق ، ومد المستعين يده الى أمراء المسيحيين بالشمال وأباح لهم اقتحام قرطبة ، ففتك المسيحيون والبربر بالعرب فتكا ذريعا وكالوا لهم الصاع صاعين ويروى ابن عذارى أن المسيحيين قتلوا تحت راية المستعين نيفا وثلاثين ألفا من المسلمين (٢) وتنازل لهم المستعين عن كثير من القلاع والحصون ، واقتحم معهم الزهراء فوجد سكانها محتمين بالمسجد الجامع فلم يرع للمسجد حرمة وفتك هو وأنصاره من المسيحيين بمن فى المسجد من رجال ونساء وأطفال وهنا انفرط العقد واقتصر نفوذ المستعين على قرطبة وثلاث مدن أخرى لأن البربر والصقالبة تواثبوا على المدن الكبرى وأعلنوا انشاء ولايات جديدة مستقلة وقامت عدة امارات عربية وحاول بعض الأمويين مثل عبد الرحمن بن هشام المستظهر والمستكفى بالله « والد

---

(١) تاريخ ابن خلدون جـ ٤ ص ١٥٠ والبيان المغرب جـ ٣ ص ٥٦ ، ٦١ ونفح الطيب جـ ١ ص ٢٧٩ .

(٢) البيان المغرب جـ ٣ ص ٩٤ – ١٠٢ .

ولادة » وهشام الثالث أن يعالجوا الموقف ولكنهم كانوا أقصر باعا وأضعف همة وأعجز تدبيرا فلم ينالوا أى توفيق وانتهت خلافتهم سنة ٤٢٢ هـ وتغلب الزعماء من العرب والبربر والصقالبة والموالى على المدن ، وأسس كل منهم لنفسه امارة ونادى بنفسه خليفة وأمر أن يخاطب بأمير المؤمنين .

أسطورة هشام كانت خاتمة حياة هشام الثانى ابن الحكم غامضة ، فبعض الروايات تقول ان سليمان المستعين قتله سنة ٤٠٣ هـ وأخفى قتله ، وفى رواية أخرى أنه فر متنقلا فى الأندلس من بلد الى بلد حتى استقر بقلعة رباح ، وفى رواية ثالثة أنه فر الى آسيا حيث مات فيها مجهولا ، وفى رواية رابعة أنه فر الى مكة وقاسى الشدائد والأهوال واحترف المهن الحقيرة ، ثم عاد الى الأندلس حيث ظهر بقلعة رباح بعد ٢٢ سنة من اختفائه .

والرأى الراجح أنه كان بقلعة رباح رجل يشتغل بجدل الحصير اسمه خلف وكان يشبه هشاما الى حد كبير . وقد استغل هذا الشبه الكبير بنو عباد بأشبيلية حيث استدعوا خلفا وأعلنوه خليفة وبايعوه على أنه هشام الثانى وفرضوا أنفسهم حجابا له ، وانتزعوا شهادة من بقى من أسرته من رجال ونساء على أنه هو هشام نفسه ؛ وحملوا الشعب على بيعته ودعوا جميع الامارات المستقلة لمبايعته باعتباره الحاكم الشرعى للأندلس جميعها . فاستجاب له بعض حكام الامارات واعترفوا به اعترافا صوريا اما خوفا من بنى عباد ، واما طمعا فى دفع بعض الثائرين من المتمردين الطامحين . ولقد اضطر ابن جهور حاكم قرطبة الى الاعتراف بهشام سنة ٤٢٩ هـ ولكن الى حين . ونرجح أن محنة ابن زيدون ترجع الى انقياده لهذه الدعوة ، وسنتناول هذا الموضوع بالشرح عند حديثنا عن سجن ابن زيدون .

ومهما يكن من أمر فقد انفرط عقد الخلافة الأموية وقامت على أنقاضها امارات الطوائف وهى نحو ست عشرة ولاية كبيرة وغيرها من الولايات الصغيرة التى كانت تظهر حينا ثم تذوب فى غيرها من

الولايات والامارات الشهيرة وكان يتقاسمها البربر والعرب والصقالبة (١) ويهمنا منها هنا ولاية قرطبة وولاية أشبيلية لأن الشاعر قضى فى الأولى شطر حياته ثم قضى فى الثانية شطر حياته الأخير .

بنو جهور فى قرطبة

فى منتصف ذى الحجة سنة ٤٢٢ هـ أعلن علماء الشعب وقادته وذوو الرأى فيه سقوط الخلافة الأموية وطردوا فلول الأمويين من امارة قرطبة ، وأسلموا زمام الحكم الى أبى الحزم بن جهور من كبار علمائهم ونابهى شيوخهم . وكان جديرا بهذه الثقة فهو ينحدر من أسرة كريمة توارثت الوزارة كابرا عن كابر ، ولهذا سماه ابن الخطيب بشيخ الجماعة وبقية الأشراف من بيوت الوزارة (٢) ؛ وكان حكمه أقرب الى النظام الجمهورى منه الى النظام الملكى فى أول أمره ، وكان مع علمه وجلاله متواضعا متمسكا بأهداب الدين مشهورا بعفة اليد واللسان ، وقد رفض قبول الحكم فى أول الأمر ، فلما ألح عليه زعماء قرطبة نزل على رأيهم واشترط أن يكون الحكم مبنيا على الشورى وأن يكون الى جانبه فى الحكم ابنا عمه محمود ابن عباس وعبد العزيز بن حسن فوافقه أهل قرطبة على أن يكون صوتاهما للشورى فقط (٣) وكان يعلن للناس أنه لا يبت فى أمر الا بعد مشاورتهما فيه ؛ ويأبى أن يباشر حكما أو ينظر فى أمر الا اذا كان موجها اليهما معه ، ومتى سئل قال : ليس لى عطاء ولا منع ، هو للجماعة وأنا أمينهم (٤) والواقع أنهما كانا ستارا

---

(١) يراجع ملوك الطوائف فى : دولة الاسلام بالاندلس « عصر الطوائف » The Encyclopaedia of Islam, I, P. 351 وملوك الطوائف ص ٣١٥ — ٣٢٤ ومعجم الانساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الاسلامى لدامباور جـ ١ ص ٨٦ — ٩٢ .

(٢) أعمال الأعلام جـ ٣ ص ١٧٢ .

(٣) الذخيرة ق ١ جـ ٢ ص ١١٥ ، ١١٦ .

(٤) البيان المقرب جـ ٣ ص ١٨٦ .

يتوارى خلفه ، ولعله كان يشفق من قيام ثورة أو حدوث فتنة تلتهمه كما التهمت سواه ، ومن دهائه أنه أمسك بزمام الحكم دون أن يتعلق كفيره بمظاهر السلطان فلم يتحول عن داره الى قصر الخلافة ، وأعلن أنه أمين على الموقف الى أن يجيء من يتفق الناس على امارته (١) وتحقيقا لهذا رتب الحشم والبوابين على قصور الامارة دون أن ينتقل اليها ولم يقبل أن يكون بيت المال تحت امرته مباشرة (٢) وان كان الواقع أن حكمه نافذ فيه .

ولما استتب له السلطان قام باصلاحات عـديدة واصـلح ما أفسدته الثورات المتلاحقة فاستقر الأمن وانتشر الرخاء وعاد الفارون من قرطبة اليها ؛ وكان الى هذا جم التواضع يشهدالجنائز ويعود المرضى ويؤذن بمسجد بالربطن الشرقى ويصلى التراويح فيه (٣) ولم يؤخذ عليه الا حرصه الشديد وعنايته البالغة بتنمية ثروته الخاصة حتى أصبح أغنى رجل فى قرطبة وان كان عائبوه لم يدعوا أنه جمعها عن طريق استغلال سلطته أو تأثير نفوذه ؛ وكان حريصا على ألا يصطدم بأمراء الولايات الأندلسية الأخرى ، وكانت الحروب بينهم متواصلة فكان يدارى الطامعين فى قرطبة ويجاملهم ويتجنب الالتحام معهم فى الفتن القائمة واستطاع بحنكته ودهائه أن يعقد صلات ودية مع كثير منهم وطالما سعى فى الصلح بين المتنازعين منهم (٤) فاذا خشى عدوان أحدهم دفعه بغيره ، وقد وصف ابن زيدون حنكته ودهاءه بقوله :

وزير سـلم كفاه يمن طـائره
شؤم الحـروب ورأى محصد المرر

---

(١) المعجب ص ٥١ .

(٢) الحلة السيراء ص ١٦٩ وملوك الطوائف ص ١٣ .

(٣) ابن خلدون جـ ٤ ص ١٥٩ والمعجب ص ٦٠ .

(٤) البيان المقرب جـ ٣ ص ١٧٣ ، ١٨٧ .

أغنت قريحتـــه مغنى تجـــاربه
ونابت اللمحـــة العجلى عن الفكر (١)

واضطر تحت ضغط الظروف القاسية أن يعترف بدعوة هشام المزعوم « خلف الحصرى » لأنه أشفق من اصطدامه ببنى عبـــاد الذين تبنوا هذه الدعوة كما خشى حنين أهل قرطبة الى خلافة الأمويين ابان ازدهارها ؛ثم ترقب الفرصة المناسبة وخلع دعوته وأقنع الشعب بزيف هـــذه الدعوة (٢) ونحن نعلم أن بعض شيوخ قرطبة لم يرتاحوا لنقض هذه الدعوة لأنهم كانوا يرون فيها أملا فى جمع شتات الامارات المتناحرة المتنافرة وكانوا يطمعون من ورائها فى استعادة مجد الخلافة الأموية المزدهرة ويرون فى نجاح هذه الدعوة سدا منيعا فى وجه المتنمرين من أمراء المسيحيين بالشمال ؛ ومن هؤلاء الشيوخ طائفة خشيت سطوة ابن جهور ففرت الى أشبيلية مصدر الدعوة الهشامية لأنها رفضت أن تقر ابن جهور على نقض هذه الدعوة ؛ ومن هؤلاء الزعماء أبو بكر عبد الله القرشى التميمى أحد رجال الافتاء وكان من الوجهاء الداعين لهشام وممن شهد على عينه (٣) ومنهم أبو عامر بن مسلمة (٤) وكانت بينه وبين شاعرنا مطارحات شعرية ومراسلات نثرية وهو الذى مهد له العيش فى ظلال بنى عباد ، ومنهم أبو مروان عبد الملك بن أحمد (٥) ويروى اشباخ ان هذه الدعوة أثارت فى قرطبة قلاقل وثورات ضد حكم ابن جهور وانه شغل بقمعها (٦) .

ولقد كان ابن زيدون من الزعماء البارزين فى تأسيس حـــكم

---

(١) الديوان ص ٢٥٦ .

(٢) البيان المقرب ج ٣ ص ٢٠١ ، ٢٠٢ وملوك الطوائف ص ٣٥ وابن زيدون عصره وحياته وأدبه ص ٣٤ ، ٣٥ .

(٣) ترتيب المدارك ج ٢ ورقة ١٤٩ .

(٤) مسالك الأبصار ج ١٠ ورقة ٢٣٩ .

(٥) ترتيب المدارك ج ٢ ورقة ١٤٧ .

(٦) تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين .

ابن جهور ؛ ومع هذا فاننا نرجح انه انضم الى المنادين ببيعة هشام المزعوم وان محنته تمت الى هذه الدعوة بأوثق الصلات ، وسنشرح هذا الرأى عند حديثنا عن سبب سجنه ؛ ومع هذا فقد أعلن المعتضد ابن عباد وفاة هشام سنة ٤٥١ هـ ثم أعلن أنه ولاه عهده ومن هذا يتضح الغرض الخفى من هذه الدعوة التى شغلت الأذهان عشرات السنين .

وتوفى أبو الحزم بن جهور سنة ٤٣٥ هـ وخلفه ابنه أبو الوليد ابن جهور وكانت بينه وبين شاعرنا صداقة متينة قبل ولايته الحكم وبعده ، وقد سار أبو الوليد على منهج أبيه فى الحكم غير مخل بشىء مما أمضاه (١) فأقر الحكام وذوى المناصب على ما كانوا عليه فى عهد أبيه ثم اقتفى آثاره فى درء الحد بالشبهة ما وجد الى هذا سبيلا محتجا بعدم وجود الامام المجمع عليه (٢) وكان متسامحا متساهلا يفسح صدره للجميع ويحاول ـ كأبيه ـ تجنب المعارك الحربية واستطاع أن يعقد صلات مودة بينه وبين معظم ملوك الطوائف ، وكان لحسن علاقته بهم يبذل وساطته فى الصلح بينهم (٣) ، ومن مآثره الكريمة توسطه فى عقد الصلح بين المعتضد ابن عباد صاحب اشبيلية والمظفر صاحب بطليوس سنة ٤٤٣ هـ بعد حروب دامية تركت آثارا عميقة فى كلتا الامارتين ، وكانت قرطبة فى عهده مأوى الأمراء المخلوعين حيث يجدون فى ظلاله الأمن والعطف والحنان وعلى الرغم من هذا تحرش به المأمون بن ذى النون صاحب طليطلة وحليفه هذيل صاحب شنتمرية الشرق وحاول مسالمتهما فلم يفلح ، وقامت بين الفريقين معارك عنيفة وكادت قرطبة تسقط فى أيدى المهاجمين لولا مهاجمة فرديناند الأول ملك

---

(١) المعجب ص ٦٠ .

(٢) الذخيرة ق ١ جـ ٢ ص ١١٩ .

(٣) أعمال الأعلام جـ ٣ ص ١٧٦ .

قشتالة وليون لاقليم طليطلة ؛ ونتيجة لهذا نجت قرطبة حتى حين (١) .

ثم شعر ابن جهور بالضعف فأناب عنه ولديه عبد الرحمن وعبد الملك وعهد بالوزارة الى الوزير الحكم ابن السقا ولكن عبد الملك وهو الابن الأصغر طغا على سلطان أخيه وفتك بوزير أبيه ابن السقا فأثار سخط شيوخ قرطبة وزعمائها ؛ وكان المعتضد ابن عباد يوجه سياسة عبد الملك من خلف ستار ، وانتهز الفرصة وتأهب لاحتلال قرطبة ولكن المأمون صاحب طليطلة سبقه الى فرض حصار عنيف عليها فاستغاث عبد الملك بصديقه المعتضد ابن عباد ثم بابنه المعتمد بن عباد وكان قد ولى الحكم بعد موت أبيه فأعانه ودفع المأمون ثم استولى على قرطبة وضمها الى ملكه ونفى بنى جهور جميعا الى جزيرة شاطيش ، وكان الشيخ أبو الوليد مفلوجا فمات بعد أربعين يوما فى منفاه (٢) .

وكان ابن زيدون وراء خطط المعتضد بن عباد وابنه المعتمد وكان هذا بعد أن هجر قرطبة وبنى جهور وعاش فى ظل بنى عباد زهاء عشرين عاما ، مما سنتناوله عند ترجمة شاعرنا بالتفصيل .

بنو عباد باشبيلية

ينتمى بنو عباد الى قبيلة لخم اليمنية ، وفد جدهم عطاف الى الأندلس على رأس كتيبة من الجند فى جيش بلج بن بشر القشيرى ، واستقر به المطاف على ضفاف الوادى الكبير بالقرب من اشبيلية ، ومن أشهر حفدته اسماعيل بن محمد ، وكان قائدا فى حرس الخليفة هشام الثانى ثم صار اماما لمسجد قرطبة ؛ ثم ولاه الحاجب المنصور خطة القضاء باشبيلية ، واعتزل القضاء حينما أصيب بمرض فى عينيه لم يستجز معه الحكم بين الناس « فولى

(١) تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين جـ ١ ص ٤٢ ، ٤٥ .

(٢) الذخيرة ق ١ جـ ٢ ص ١٢٢ ابن خلدون جـ ٤ ص ١٥٩ والبيان المقرب جـ ٣ ص ٢٥٦ — ٢٦١ .

ابنه أبا القاسم القضاء واقتصر هو على شياخة البلد وتدبير الرأى حتى توفى فى العام نفسه سنة ٤١٤ هـ » (١) .

وولى الزعامة بعده ابنه أبو القاسم محمد بن اسماعيل بن عباد ويعتبر مؤسس الأسرة الحاكمة باشبيلية ، ورث أباه فى علمه وأدبه ومنصبه وجاهه ؛ ولكنه كان أنانيا متكبرا فضاق به قومه وكادوا يعزلونه لولا أنه استعان بالقاسم بن جهور فأعانه بجاهه وسلطته ونفوذه ؛ ومع هذا تنكر له وأثار ضده رعيته وأفسد عليه قائده باشبيلية — كانت اشبيلية تدين بالولاء لبنى حمود فى هذه الفترة — ولما انهزم القاسم بن حمود فى قرطبة فر الى اشبيلية فأغلق القاضى ابن عباد المدينة فى وجهه وأسر ولديه وساومه عليهما حتى صرفه عن اشبيليه (٢) ولما استقر الوضع فى اشبيليه وأعلن أمراء الطوائف استقلال كل منهم فى ولايته عرض أهل اشبيليه الحكم على القاضى وكان أوسعهم ثراء حيث بلغت ثروته ثلث أراضى اشبيلية (٣) فأعلن أنه لا يستطيع أن يقبل الحكم الا اذا أشرك معه فيه أناسا يختارهم بنفسه دهاء منه وحنكة فأجابوه الى رغبته (٤) وكان بهذا التدبير قدوة لأبى الحزم بن جهور فى تصرفه ؛ ولكنه بعد أن أمن جانب بنى حمود والبربر تخلص من معاونيه واستبد بالحكم واستغل ثروته الطائلة فى شراء عدد ضخم من المماليك دربهم على فنون القتال ، واجتذب اليه عددا وفيرا من الجند المرتزقة منحهم أجورا عالية ، فانضم تحت لوائه عدد كبير من فرسان العرب والبربر بل انضم اليه بعض المحترفين من المسيحيين والفرنجة ، وتوافد عليه المحاربون من النوبة وبلاد السودان والمجرمون الفارون وكذلك

---

(١) البيان المغرب جـ ٣ ص ١٩٤ .

(٢) بنو عباد باشبيلية ص ٤٠ والمعجب ص ٩٤ والحلة السيراء « نسخة الجامعة العربية » لوحة ٦٥ .

(٣) ملوك الطوائف ص ١٩ .

(٤) بنو عباد باشبيلية ص ٤١ ، ٤٢ .

اللاجئون السياسيون فكون من الجميع جيشا مدربا ســنده فى الأزمات (١) ، وما أشبه هذا الجيش بجنود الفرقة الأجنبية فى الجيش الفرنسى فى العصر الحديث .

واستغل أسطورة هشام التى أشرنا اليها فيما سبق ليضم اليه الامارات الأندلسية العربية والصقلبية وتوفى سنة ٤٣٣ هـ .

فخلفه ابنه المعتضد بن عباد وأعلن نفسه حاجبا لهشام المزعوم ، وكان سخى اليد غزير العطاء وبخاصة على الشعراء وكان يصوغ الشعر ويتذوقه وقد خصص يوما من الأسبوع لمجالسة الشعراء والاستماع اليهم ومطارحتهم القريض وأنشأ لهم دارا سماها دار الشعراء وجعل لهم رئيسا (٢) .

وقضى مدة حكمه فى حروب متوالية كان يدبر خططها ويحكمها ويعهد الى أبنائه والى قواده بتنفيذها ومد حدود امارته باستيلائه على كثير من الولايات المجاورة سواء عن طريق الحرب أو الغدر أو الحيلة ولا يتسع المجال للحديث عن هذه الحروب المتوالية ؛ وكان قد أعلن موت هشام وأنه ولاه عهده فلم يستجب له أحد (٣) ؛ وكان ابن زيدون كبير وزرائه ومستشاريه ؛ ولقد سئل كيف انفرد بالسلامة منه فقال : « كنت كمن يمسك بأذنى الأسد يتقى سطوته تركه أو أمسكه » (٤) .

وأخيرا توفى المعتضد نتيجة ذبحة صدرية سنة ٤٦١ هـ ونعل لافراطه فى الشراب واللذات أثرا فى هذه النهاية .

---

(١) الذخيرة ق ٢ ص ٧ والكامل جـ ٧ ص ٢٨٧ وملوك الطوائف ص ٢٥ و History of the Moorish Empire pp. 118,119.

(٢) المعجب ص ٩٦ ، ٩٧ والبيان المغرب جـ ٣ ص ٢٠٥ ، ٢٠٦ وملوك الطوائف ص ٦٥ .

(٣) Spanish Islam p. 645

(٤) فوات الوفيات جـ ١ ص ٩٦ والوافى بالوفيات مجلد ٢ ص ٦١٩ .

وخلفه ابنه المعتمد بن عباد الشاعر الكبير ، وقد ورث عن أبيه حدة الشهوة وشدة الشغف بالخمر والنساء ولكنه أقل منه ضراوة ، ويعده النقاد أشعر ملوك الأندلس على الاطلاق . وكان واسع الآمال قوى البأس تدرب على يدى أبيه فى الحكم وفى فنون القتال ، وولى الحكم فى مستهل الثلاثين من عمره ، والى هذا أشار ابن زيدون فى تعزيته له بوفاة المعتضد بقوله :

وما أعطت السبعون قبل أولى الحجا
من الارب ما أعطتك عشروك والعشر (١)

وقد وفق المعتمـــد فى جعل بلاطه مركز نهضة شعرية قوية فجذب اليه الشعراء من مختلف البقاع ، ووثق بابن زيدون فأقره فى مناصبه واعتمد عليه فى ادارة شـــئون الدولة الفتية ، وكان ابن زيدون من أساتذته الأجلاء فى فنون الأدب ، وطالما طارحه الشعر وبخاصة فى فن المطيرات (٢) وجذب اليه الشاعر ابن عمار وخلطه بنفسه ورفع الكلفة بينه وبينه الى أن فسدت بينهما الأمور ـ فى أخبار طويلة ـ فقتله .

ولم تطل حياة ابن زيدون بعد ولاية المعتمد بن عباد الا عاما وبعض عام ؛ ولقد حاول الوشاة والحساد آن يفسدوا ما بين الأمير وشاعره ودسوا مقطوعة شعرية على المعتمد يغرونه فيها بالشاعر .

فأبى المعتمد أن يستجيب لدسائسهم وصاغ مقطوعة شعرية يعارض بها مقطوعتهم .

وانفعل ابن زيدون بهذا الموقف النبيل من الأمير فمدحه بقصيدة طويلة مطلعها :

الدهر ـ أن أمـــلى ـ فصيح أعجم
يعطى اعتبـــارى ما جهلت فأعلم (٣)

---

(١) الديوان ص ٥٧٣ .

(٢) هو شعر رمزى يتخذ من أسماء الطيور دلالة على حروف خاصة يفهمها المتطارحان .

(٣) راجع هذه القصائد الثلاث فى الديوان ص ٣٠٦ ـ ٣٢١ .

وبعد وفاة ابن زيدون حزن عليه الأمير حزنا شديدا وولى ابنه مكانه فى الوزارة .

ولقى المعتمد ــ كما لقى غيره من ملوك الطوائف ــ أذى كثيرا وخطرا عظيما من ألفونس السادس حيث فرض سطوته على أمراء الطوائف وضرب عليهم الجزى وأخذ يقتطع من ولايتهم اقليما بعد اقليم « فشق بلاد الأندلس شقا ، يقف على كل مدينة منها فيفسد ويخرب ويقتل ويسبى ، ثم يرتحل عنها الى غيرها ، ونزل على اشبيلية فأقام عليها ثلاثة أيام فأفسد وخرب .. وخرب بشرق الأندلس قرى كثيرة » (١) ثم سقطت طليطلة فى يده فتملكه الغرور ونادى بنفسه امبراطورا وبدأ يستعد للزحف على باقى امارات الأندلس ، وقدم المعتمد اليه الجزية المقررة فرفضها ، وأرسل وزيره ابن شالوب فهدد المعتمد وأساء الأدب فى خطابه فغضب المعتمد وضرب رأسه بمحبرة كانت أمامه فأنزل دماغه فى حلقه وأمر به فصلب منكوسا بقرطبة وأرسل ، هو وباقى الأمراء ، يستغيثون بيوسف بن تاشفين ملك المرابطين بالمغرب (٢) ولما راجعه بعض أبنائه وخوفه بأس المرابطين وأنه فى هذا الموقف يشبه المستجير من الرمضاء بالنار أجاب بقولته المشهورة « أى بنى والله لا يسمع عنى أبدا أنى أعدت الاسلام دار كفر ، ولا تركتها للنصارى فتقوم على اللعنة على منابر الاسلام مثلما قامت على غيرى ، رعى الجمال عند ابن تاشفين والله عندى خير من رعى الخنازير عند الأذفونش»(٣) ولقد أنجده يوسف بن تاشفين وصد الفونس ؛ ثم تطورت الأمور فعزل المعتمد وغيره من الأمراء ونفاه وأسرته الى أغمات بالمغرب حتى مات سنة ٤٨٤ هـ .

---

(١) الاستقصا جـ ٢ ص ٣٢ .

(٢) يراجع الفصل الخاص بهذا الموقف فى ملوك الطوائف .

(٣) اى أن اكون عبدا يرعى الجمال للمسلمين خير من ان اكون عبدا يرعى الخنازير للمسيحيين راجع الروض المعطار ص ٨٥ وما بعدها وتاريخ الفكر الأندلسى ص ١٠٤ .

الفصل الثالث

الحياة الأدبية

تجلت آثار الطبيعة الأندلسية فى أغاريد الشـــعراء وترانيم الكتاب ؛ والأندلس ــ كما نعلم ــ « تغلب فيها المياه الجارية والشجر والثمار والأنهار العذبة والرخص والسعة فى جميع الأحوال الى نيل النعيم والتملك الفاشى فى الخاصة والعامة .. » (١) ــ كما تجلت آثار الحضارة الأندلسية فى ازدهار الأدب العربى فى هــذه البلاد ويشــير نيكلسون الى هذا بقوله : « كانت قرطبة من أهم البيئات العلمية والأدبية فى العالم كان أبو بكر القرشى يدرس الحديث فى جامعتها ، والأديب الكبير أبو على القالى يحاضر فى الأدب وابن القوطية يعلم النحو (٢) وكان الأندلسيون يتطلعون الى المشرق فى القرنين الثالث والرابع يستوردون النابغين من علمائه ويجزلون لهم العطاء ويتنافسون فى الحصول على آثار المشارقة تنافسا كبيرا ويبذلون فى ذلك الأموال حتى لقد بذل الخليفة الحكم ألف دينار للأصفهانى ليظفر بكتابه « الأغانى » قبل أن يعرف بالمشرق ، وكان تنافسهم فى استنساخ الكتب وانشاء المكتبات مضرب الأمثال ، ويحدثنا المؤرخون عن مكتبة الحكم انها كانت تضــــم ٤٠٠ الف كتاب ، كما ذكرنا سابقا ؛ ويحدثنا ابن الأبار ان الحكم قرأ كتب مكتبته وعلق على أكثرها فى أول الكتاب وآخره بكتابة اسم المؤلف وكنيته ولقبه وأسرته وقبيلته وسنة ميلاده وسنة وفاته وما يروى

---

(١) صورة الأرض ص ١٠٨ ، ١١٦ ومعجم البلدان جـ ١ .

A Literary History of the Arabs P. 402

(٢) الحلة السيراء ص ١٠١ ــ ١٠٣ ونفح الطيب جـ ١ ص ٣٥٦ .

عنه من الغرائب والنوادر « وصار كل ما كتبه الحكم حجة عند شيوخ الأندلسيين وأئمتهم ينقلون من خطه ويحاضرون به » (١) وقد وصلت عطاياه الى كبار المؤلفين من أهل الأمصار النائية منهم أبو اسحاق محمد بن شعبان بمصر وأبو عمر محمد بن يوسف الكندى وأبو بكر الأبهرى المالكى عن شرحه لمختصر ابن عبد الحكم (٢) ويروى المؤرخون ان الأندلس كانت تضم ستين مكتبة عامة أنشأها الخلفاء الأمويون وغيرهم بل ان غرناطة وحدها كانت تحوى سبعين مكتبة عامة (٣) وكان علماء الأندلس يشدون الرحال الى المشرق لمقابلة أفذاذ النابهين والرواية عنهم والحصول على النوادر من المصنفات العلمية والأدبية .

وفى القرنين الرابع والخامس زخرت الأندلس بنهضة علمية نافست فيها الشرق منافسة قوية فى العلوم والآداب وبدأت الشخصية الأندلسية تبرز وتتجلى وتتحدى الأعلام وتكاد تزحمهم فى ميادين العلوم والآداب .

واذا كانت الأندلس فى القرن الخامس انقسمت سياسيا الى امارات عديدة متنافسة متناحرة فان هذا الضعف السياسى أنتج قوة علمية وأدبية كان سببها تنافس الأمراء فى فنون الآداب والعلوم . فقد كان بلاط مجاهد العامرى يغص بالعلماء والفقهاء والأدباء ، وكان هو من أعرق العلماء بفن القراءات واجتمع فى بلاطه طائفة من العلماء والفقهاء منهم أبو عمرو الدانى أشهر علماء القراءات فى الشرق والغرب وصاحب المنظومات البارعة فى القراءات ، ومنهم ابن عبد البر وابن معمر اللغوى وابن سيده .. فشاع العلم فى حضرته حتى نشأ فى جواريه وغلمانه (٤) ؛ أما بلاط بنى عباد

(١) الحلة السيراء ص ٤٠ .
(٢) المصدر السابق ص ٤٠ .
(٣) نفح الطيب جـ ١ ص ٣٠٢ والادب العربى وتاريخه جـ ٣ ص ٣١ ، ٣٢ .
(٤) أعمال الاعلام جـ ٣ ص ٢٥٠ .

فلا يكاد يقل عن بلاط الرشيد فى بغداد وسيف الدولة فى حلب والبويهيين فى فارس وكان المعتمد ابن عباد لا يستوزر وزيرا الا أن يكون شاعرا (١) والدارس لتاريخ ملوك الطوائف يعرف كيف كانوا يتنافسون فى جذب العلماء والأدباء ورجال الفنون على الرغم من المحن السياسية التى كانت تحيط بهم ، وفى هذا يقول ميتيندز بيدال : « ان طبيعة حكم ملوك الطوائف شهيرة بالتناقض بين اضمحلاله السياسى وازدهاره الفكرى والاقتصادى فى القرن الحادى عشر » (٢) ويقول هنرى بيريز : « ان ملوك الطوائف ما كانوا يتنافسون فى الميدان السياسى فحسب . بل كانوا يتنافسون أيضا فى ميدان آخر هو جذبهم كتابا مشهورين بقوة فصاحتهم وبراعتهم التى كانت تمكنهم من التبريز فى مجالس الأدب واقحام الآخرين باستعمال الكلمات المأثورة » (٣) ومع شغف الجميع بالعلوم والآداب والفنون فان كلا منهم غلبت عليه سمة خاصة به « فامتاز المتوكل صاحب بطليوس بالعلم الغريز وابن ذى النون صاحب طليطلة بالبذخ البالغ والمقتدر ابن هود صاحب سرقسطة بالعلوم ، وبذ ابن طاهر صاحب مرسية أقرانه بالنثر الجميل المسجوع ، أما الشعر فكان أمرا مشتركا بينهم جميعا يلقى منهم كل رعاية ، ولكن عناية بنى عباد أصحاب اشبيلية الجميلة به كانت أعظم وأشمل .. » (٤) ولازدهار الشعر بالأندلس يكاد الباحث يعتقد أن أهلها جميعهم شعراء والى هذا أشار القزوينى « ان أى فلاح يحرث فى شلب يرتجل ما شئت من الأشعار فيما شئت من الموضوعات .. » ومضى الشعراء يقطعون الأندلس وينتجعون قصور الأمراء ويغشون أصحاب النفوذ وتدرج أسماؤهم فى سجلات الدواوين وتخلع عليهم وظائف التدريس ولقد

---

(١) المعجب ص ٧١ .

(٢) Menendez Pidal : The Cid and His Spain. London 1934 P. 33

(٣) La Poesie P. 23

(٤) تاريخ الفكر الاندلسى ص ٧٨ .

كان احدهم يرتجل المقطوعة الصغيرة فيبلغ بها مرتبة الوزارة (١) ولقد كان الأندلسيون يقلدون المشارقة فى مبدأ أمرهم ويشدون الرحال الى المشرق لينشدوا ما فيه من أدب جم وعلم غزير ، وكانوا يستقدمون كبار المشارقة كزرياب المغنى وأبى على القالى وصاعد البغدادى وغيرهم ثم أخذوا فى مجاراتهم فى القرن الرابع الهجرى ، فقد ظهر بالأندلس أطباء أفذاذ فاقوا المشارقة مثل الغافقى وابن البيطار وابن جلجل وبنو زهر .. كما ظهر فيه فحول فى الالهيات والرياضة والطبيعة والمنطق (٢) ، وزاحموا المشارقة فى مصنفاتهم اللغوية والأدبية فقد ألف الأعلم الشنترى للمعتضد ابن عباد « شرح الأشعار » الستة و « شرح الحماسة » وألف له غيره مصنفات عديدة لم يسبق اليها (٣) واعتز بعض الباحثين بمصنفاتهم وبالغوا فى هذا فقد رفض أبو غالب اللغوى أن يقبل ألف دينار من مجاهد العامرى فى مقابل أن يضع اسمه فى مقدمة كتابه (٤) ثم بدات المعارضة للمشارقة سافرة ، فقد ألف ابن فرج الجيانى كتاب الحدائق للحكم المستنصر معارضا فيه كتاب الزهرة لأبى بكر محمد بن داود بن على الأصفهانى ولم يورد ابن فرج فى كتابه شيئا لغير الأندلسيين ؛ وأبو الصلت امية بن عبد العزيز يؤلف كتابه الحديقة على أسلوب يتيمة الدهر للثعالبى ويلتزم ألا يروى فيه لغير أندلسى (٥) وعبادة بن ماء السماء المتوفى سنة ٤٢١ هـ يؤلف كتابا فى أخبار شعراء الأندلس لابراز مدى شاعريتهم الفذة (٦) وكتاب الذخيرة لابن بسام الذى صنفه

---

(١) المصدر السابق ص ٧٩ .

(٢) طبقات الأمم ٦٤ ، ٦٩ ، ٨ ابن أبى أصيبعة ج ٢ ص ٣٩ وتاريخ الشعوب الاسلامية ج ٢ ص ١٦٠ .

(٣) البيان المقرب ج ٣ ص ٢٨٤ .

(٤) جذوة المقتبس ص ١٧٢ ونفح الطيب ج ٢ ص ١٢٩ .

(٥) بغية الملتمس ص ٢٤١ .

(٦) نفح الطيب ج ٢ ص ١١٨ .

سنة ٥٠٢ هـ ملىء بتحدى المشارقة وهو كتاب فذ فى تأليفه تناول فيه الشعراء والأدباء الأندلسيين فى القرن الخامس الهجرى وهو فى اربعة أقسام كبيرة طبعت جامعة القاهرة منه ثلاثة اجزاء ولا تزال خمسة منه تحت الطبع (١).

والاعتزاز بالأدب الأندلسى يبدو واضحا فى رسالة الشقندى التى رواها ابن سعيد فى كتابه « المغرب » كما حفظها المقرى فى كتابه نفح الطيب (٢) وهذه الرسالة تعتبر وثيقة تضم أهم فحول العلماء ونوابغ الأدباء الأندلسيين فهو يعدد فيها « من أنجبته الأندلس من الفقهاء واللغويين والنحاة والفلاسفة والرياضيين والأطباء والمؤرخين والمؤلفين والنقاد ومن أطلعهم الأندلس من الشعراء الذين أبدعوا فى كل فن من فنون الشعر .. أولئك الشعراء الذين أنشأوا من القصيد ما سارت بمدبحه الركبان ، وأحسنوا التعبير عن أدق العواطف .. وكان الأندلسيون يتحدون كل شاعر مشرقى بشاعر أندلسى فقد كانوا يسمون شعراء بأسماء أعلام شعراء الشرق (٣) فكانوا يقولون : « الرصافى ابن رومى الأندلس ، ومروان ابن عبد الرحمن ابن معتز الأندلس » وابن خفاجة صنوبرى الأندلس ؛ وابن زيدون بحترى الأندلس وابن دراج (٤) متنبى الأندلس ، ومحمد بن سعيد الزجالى الأديب الحافظ أصمعى الأندلس لحفظه وذكائه ، وأبو بكر الزبيدى الشاعر اللغوى ابن دريد الأندلس . كما يقولون فى الفيلسوف ابن باجة (٥) الشاعر الموسيقى انه فارابى المغرب وحمدة بنت زياد الشاعرة بأنها خنساء المغرب .. » (٦) .

---

(١) طبع منه القسم الأول فى جزءين كما طبع الجزء الأول من القسم الرابع .

(٢) جـ ٢ ص ١٤٢ .

(٣) Pérés P 48

(٤) فى احدى الروايات ابن عبدون وفى اخرى ابن دراج .

(٥) أبو بكر بن الصائغ المعروف بابن باجة .

(٦) تاريخ آداب العرب للرافعى جـ ٣ ص ٢٦٢ .

وبالغ بعضهم فى نقد المشارقة وتفضيل الأندلسيين عليهم كما فعل أبو الوليد الحميدى المتوفى سنة ٤٤٠ هـ فى كتابه « البديع فى وصف الربيع » جمع فيه أشهر المقطعات الشعرية الأندلسية فى وصف الطبيعة ويقول فى مقدمته : (١) « وأما أشعار أهل المشرق فقد كثر الوقوف عليها والنظر اليها حتى ما تميل نحوها النفوس ولا يروقها منها العقد النفيس ، مع أنى أستغنى عنها ، ولا أحوج اليها بما أذكره للأندلسيين من النثر المبتدع والنظم المخترع وأكثر ذلك لأهل عصرى ، اذ لم تغب نوادرهم عن ذكرى .. » .

ويقول فى الصفحة الثانية من مقدمة كتابه « لكن أهل المشرق على تأليفهم لأشعارهم ، وتثقيفهم لأخبارهم ، مذ تكلمت العرب بكلامها ، وشغلت بنثرها ونظامها ، لا يجدون لأنفسهم من التشبيهات ، فى هذه الموضوعات ما وجدته لأهل بلدى » ثم يقول عن الأندلسيين : « وقد سبقوا فى أحسن المعانى مجتلى ، وأطيبها مجتنى ، فلهم فيه من الاختراع الفائق ، والابتداع الرائق ، وحسن التمثيل والتشبيه ، ما لا يقوم أولئك مقامهم فيه » .

وكانت هناك مواقف فكهة فى تحدى الأندلسيين المشارقة فقد هاجر يحيى بن الحكم البكرى المعروف بالغزال الى العراق بعد وفاة أبى نواس « فجلس يوما مع جماعة من الأدباء فأزروا بأهل الأندلس ، واستهجنوا أشعارهم ، فتركهم حتى وقعوا فى ذكر أبى نواس فقال لهم : من يحفظ منكم قوله :

ولما رأيت الشرب أكدت سماؤهم
تأبطت زقى واحتبست عنائى
فلما رأيت الحان ناديت ربه
فثاب خفيف الروح نحو ندائى
قليل هجوع العين الا تعلة
على وجل منى ومن نظرائى

---

(١) مطبوع بالمطبعة الاقتصادية بالرباط تحقيق هنرى بيريز .

فقلت اذقنيها ، فلما أذاقهـــــا
طرحت اليـــــه ريطتى وردائى
وقلت أعرنى بذلة أســـتتر بهـــا
بذلت له فيها طلاق نســــــائى
فوالله ما بـــــرت يمينى ولا وفت
له غـــير أنى ضـــامن بوفائى

فأعجبوا بالشعر وذهبوا فى مدحهم له ، فلما أفرطوا قال لهم : خفضوا عليكم فانه لى ، فأنكروا ذلك فأنشدهم قصـــيدته التى أولها :

تداركت فى شرب النبيـــذ خطائى
وفارقت فيه شيمتى وحيـــائى

فلما أتم السورة بالانشاد خجلوا وافترقوا عنه » (١) .

واذا كانت العصبية الأدبية تلون الحقائق بغير ألوانها وتدعو الى المبالغة فى بعض الأحيان فالانصاف يقتضينا أن نقرر أن المشارقة هم الأساتذة الأولون وهم الذين وضعوا الأسس ، ورسموا المناهج وتركوا آثارا علمية وأدبية خالدة على الزمان ؛ ولكن الأندلسيين نافسوهم بقوة فى هذه الميادين وظهر فيهم عباقرة طاولوا المشارقة وزحموهم فى بعض الميادين ، وحسبنا أن نشير الى عالم الأمـــة الاسلامية الكبير الفقيه الفيلسوف الناقد الشاعر أبو محمد على ابن حزم الأندلسى ، المتوفى سنة ٤٥٦ هـ ألف فى علوم الحديث والفقه والأصول ومراتب العلوم ، وكتب أول بحث فلسفى فى مقارنة الأديان ونقدها لم يسبقه اليه سابق سماه «الفصل فى الأهواء والنحل » (٢) نشر بالقاهرة سنة ١٣٢١ هـ وهو فى كتابه هذا يستعرض الأديان

---

(١) نفح الطيب ج ١ ص ٦٢٩ - ٦٣٤ .

(٢) وصـــفه بروكلمان فى كتابه تاريخ الشعوب الاسلامية بأنه كتاب لم يسبق الى مثله فى الادب العربى ووصـــفه آسين بلاسيوس بأنه سبق علماء أوربا بقرون .

السابقة للاسلام فى احاطة ودقة وشمول ويذكر مختلف العقائد ويناقش الفلاسفة والسوفسطائيين مناقشة المتمكن القدير ، وقد تأثر بآرائه كثير من الفلاسفة الغربيين ومن أشهرهم توماس الاكوينى ، وقد أشار الى عدد منهم المستشرق الشهير آنخل جنثالث بالنثيا كما أشار اليهم أسين بلاثيوس الذى كتب بحثا قيما عن هذا الكتاب وأثره العميق فى الباحثين من بعده وذكر فى بحثه « اننا لا نجد بين أيدينا وثيقة هى أغنى ولا أجدر بالثقة من كتاب « الفصل » لابن حزم يمكننا من تتبع سير تيار الثقافة الذى لم يتوقف أبدا خلال العصور الوسطى فيما يتصل بتاريخ الآراء والمذاهب » (١) وله أيضا كتاب « الاحكام فى أصول الأحكام » وقد سلك فيه مسلكا يدل على الابتكار كعادته دائما ويعد من أهم المراجع التى لا يستغنى عنه باحث أو فقيه ، ومن أهم كتبه « المحلى فى الفقه الظاهرى » ويعتبر ابن حزم هو المؤسس الفعلى لهذا المذهب وان كان قد سبقه اليه داود الظاهرى ، وهو مرجع فقهى لا يزال كبار الفقهاء والباحثين يرجعون اليه وينهلون من ينابيعه الفياضة .

ومن أعجب الأمور أن يكتب هذا الفقيه العلامة الكبير فى فلسفة الحب كتابه الخالد « طوق الحمامة » وهو أشبه بالتراجم الذاتية Autobiography ترجم فيه ابن حزم لنفسه ، وصور خلجاته وعواطفه ، وقد سبقه الى الحديث عن الحب محمد بن داود الظاهرى فى كتابه « الزهرة » ولكن شتان بين الكتابين فكتاب ابن حزم أبرع وأثمن وأوفى وأدق تحليلا وأبدع تصويرا ويعده الباحثون أول ترجمة ذاتية فى الأدب العربى ، وتتجلى فيه العناية بالتحليل النفسى أكثر مما تتجلى فى سرد الحوادث وفيه لمحات قوية من أدب الاعتراف ، وكله من آثار قلمه الشعرية والنثرية (٢) ، كتب هذه الرسالة بعد أن تجاوز الثلاثين وهو يتحرى فيها الصدق

---

(١) تاريخ الفكر الاندلسى ص ٢١٩ – ٢٢٩ .

(٢) ضحى الاسلام جـ ٣ ص ٢١٤ .

وتبدو شخصيته فى هذه الرسالة واضحة قوية (١) ويقول فى مقدمتها « وما مذهبى أن أمتطى مطية سواى ولا أتحلى بحلى مستعار » ويعتبر آنجل جنثالث بالنثيا هذه الرسالة أهم ما ألف ابن حزم فى فن الأدب (٢) .

ولا يتسع المجال للحديث عن تراجم فحول العلماء فى هـذا العصر .

وحسبنا أن هذا العهد قدم للغة العربية أعلاما خالدين مثل ابى عمرو الدانى شيخ القراء وابن عطية شيخ المفسرين وابن حيان عميد المؤرخين ـ وقد وضع خمسين مصنفا فى التاريخ ـ كما قدم لنا هذا العصر ابن سيده المتوفى سنة ٤٥٨ هـ صاحب أكبر معجم موضوعى عرفته العربية سماه « المخصص » وهو من الكتب النادرة فى اللغة العربية لأنه مرتب على حسب الموضوعات يذكر الشىء ، وأوصافه كلها وأجزاءه ويستوعب الألفاظ والمفردات الدالة على ذلك ، وقد أشرف على طبعه الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده والأستاذ العلامة اللغوى الشنقيطى فى سبعة عشر مجلدا ، وله معجم آخر قيم مرتب على حروف المعجم سماه « المحكم » وتطبعه الآن الادارة الثقافية بالجامعة العربية وهو يبلغ بضعة عشر مجلدا ، ومن الغريب ان هذا المؤلف كان أعمى وأبوه أعمى أيضا .

أما الأدباء والشعراء فقد أنجب هذا العصر طائفة من ألمع شعراء العربية فى جميع العصور مثل ابن دراج والرمادى وابن حـزم وابن زيدون والمعتضـد بن عباد والمعتمد بن عباد وان حمديس الصقلى وابن برد الجد وابن برد الحفيد وابن وهبون وابن عبدون كما أنجب طائفة من ألمع الكتاب وأشهر المصنفين مثل ابن بسام وابن حيان وابن عبد البر وابن القصيرة وابن خاقان .. ممن لا يتسع

---

(١) ابن حزم للأستاذ محمد ابى زهرة مطبعة مخيمر سنة ١٩٥٤ ص ١٨٨ طوق الحمامة ص ٣ .

(٢) تاريخ الفكر الأندلسى ص ٢٢٩ ـ ٢٣٧ .

لذكرهم المجال . وهذه الكثرة الكاثرة هى التى أوحت اليهم أن ينافسوا شعراء المشرق ؛ واذا كان المشارقة يعتزون بكتاب الزهرة لأبى محمد بن داود ويذكرون أنه أورد فيه مائة باب فى كل باب مائة بيت مختارة ، فان ابن فرج صاحب كتاب الحدائق الذى أشرنا اليه سابقا أورد كتابه فى مائتى باب فى كل باب مائتا بيت مختارة من شعر الأندلسيين وحدهم (١) ومن أرق شعراء هذا العصر ابن شهيد المتوفى سنة ٤٢٦ هـ وهو الشاعر المبدع والكاتب الناقد الشهير ، وكان ظريفا خفيف الروح فكه المجلس وهو صاحب الرسالة الخالدة فى الأدب العربى « رسالة التوابع والزوابع » (٢) وهى رحلة خيالية فى مساكن الجن بوادى عبقر ثم بالجنة والنار تخيل فيها أن له شيطانا ككل الشعراء المبدعين ، وقد اتصل به شيطانه وسار به الى العالم الآخر ، وأركبه فرسه ، وطاف به على الشعراء الأقدمين ، وهم فى حياتهم الآخرة فأخذ ينشدهم وينشدونه الشعر ثم تخيل لكل شاعر شيطانا وجهة ينزل بها ومنزلا يقيم فيه ، ثم أخذ يستعرض أشعارهم وينقدها نقدا بارعا يدل على اطلاع واسع وبصر نافذ ؛ وقد حفظت لنا الذخيرة قسما من هذه الرسالة ، ثم أفردها بالنشر حديثا الأديب بطرس البستانى سنة ١٩٥١ معتمدا على ما جاء منها فى الذخيرة ويذهب بعض الباحثين الى انه عارض بها رسالة الغفران لأبى العلاء المعرى ، ولكن بروكلمان فى حديثه عن ابن شهيد فى كتابه « الأدب العربى » أثبت أن ابن شهيد ألف رسالته قبل أبى العلاء بعشرين عاما ، الا أن بطرس البستانى يرى أنها لم تتقدم عليها الا بتسع سنوات(٣) ، وليس لدينا دليل يثبت أن أبا العلاء تأثر بها أو اطلع عليها ويبدو لنا

---

(١) تاريخ الفكر الاندلسى ص ٢٨٧ .

(٢) الزوبعة : الشيطان أو رئيس الجن ، والتابع من ينقاد للشيطان ويتأثر به أو الجن المصاحبة للانسان كالقرين .

(٣) راجع مقدمة الرسالة للبستانى .

ان ابن شهيد استوحى رسالته من المقامة الابليسية لبديع الزمان الهمذانى (١) ، ويدور بين النقاد والباحثين جدل طويل حول تأثر دانتى برسالة الغفران للمعرى ؛ ومن يدرى فقد يكون تأثره بالتوابع والزوابع لأنها أقرب اليه منالا من رسالة الغفران ؛ وان كانت قصة الاسراء والمعراج تبدو واضحة الأثر فى الكوميديا الالهية لدانتى ، والمجال لا يتسع لمناقشة هذا الموضوع . واذا كانت الطبيعة قد تركت اثرا عميقا فى الأدب الأندلسى فان هذه الطبيعة قد تركت فى حياتهم الخاصة أعمق الآثار حيث صرفت معظم الشعراء والكتاب الى مجالس اللهو والشراب والموسيقى والغناء ، والى هذا يشير ابن شفيع بقوله : « لو طبعت على الزهد لحملنى حسن بلادى على المجون والتعشق والراح » (٢) ، ويعبر عن هذه النزعة ابن عمار حيث يقول :

أدر الزجاجة فالنسيم قد انبرى
والنجم قد صرف العنان عن السرى
والصبح قد أهدى لنا كافوره
لما استرد الليل منا العنبرا
روض كأن النهر فيه معصم
صاف أطل على رداء أخضرا .

كما يعبر عنها المعتمد بن عباد بقوله :

ولقد شربت الراح يسطع نورها
والليل قد مد الظلام رداء
حتى تبدى البدر فى جوزائه
ملكا تناهى بهجة وبهاء

---

(١) ذكر ابن شهيد فى رسالته أنه ألفها فى عهد سليمان المستعين ابن الحكم (٤٠٠ - ٤٠٧ هـ) ، وجاء فى رسالة الغفران ما يدل على ان المعرى الفها فى سن السبعين (سنة ٤٢٢ هـ) .

(٢) صفة جزيرة الأندلس ص ٤٥ .

وحكيته فى الأرض بين مـــــــواكب
وكواعب جمعت سنا وســـــناء

كما يرددها ابن زيدون فى قوله :

أين أيامنا وأين ليـــــــال
كرياض لبسن أفواف زهـــر
وزمـــــــان كأنما دب فيـــه
وسن أو هفا به فرط سـكر
حين نغدو الى جداول زرق
يتغلغلن فى حــــــدائق خضر
نتعاطى الشمول مذهبة السر
بال ، والجو فى مطارف غبـــر

وكانت مجالس الأمراء والشعراء حافلة بالموسيقى والغنـــــاء بل كان من الأمراء من يجيد الشعر والموسيقى والغنـــاء كالمعتمد ابن عباد حيث كان يجيد الغناء والضرب على الطنبور ، وكان ابنه الرشيد بارعا فى التوقيع على العود وغيره من آلات الموسيقى (١) ، ومن المشهورين بالموسيقى والغناء الحكيم المطرب أبو بكر الاشبيلى والمغنى السوسى (٢) روى أبو الوليد بن جهور انه تلقى فى يوم واحد كتاب ابن صمادح صاحب المرية يطلب جـــارية عوادة ، وكتاب ابن عباد بطلب جارية زامرة وسمع المعتضد عن جارية ابن الرميمى بقرطبة فأرسل فى شرائها (٣) .

ومن المناسب ان نسرد هنا نادرة تدل على مدى شغفهم بالشراب حتى بين المتزمتين منهم ، روى المقرى أن الحاجب المنصور استدعى لمجلس شرابه بعض الوزراء والندماء وأحضر ابن شهيد فى محفة لنقرس كان يعتاده فمر عليهم يوم حافل بالبهجة والسرور واستبد

(١) تاريخ العرب لفيليب حتى ترجمة مبروك نافع ص ٢٠٦. Cendé V 2 p. 165
(٢) نفح الطيب جـ ٢ ص ٣٩٢ ، ٤٨٣ ووفيات الأعيان جـ ٧ ص ٢٩ .
(٣) البيان المقرب جـ ٣ ص ١١١ ، ١١٢ ، ٢٥٠ .

بهم الشراب حتى تناوبوا الرقص ، فلما انتهى الدور الى ابن شهيد قام يرقص متكئا على الوزير أبى عبد الله بن عباس ويومىء الى المنصور منشدا وقد غلبه السكر :

هاك شيخ قاده السـكر لكا
قـام فى رقصته مستهلكا
لم يطق يرقصـها مستثبتا
فانثنى يرقصـها مستمسكا
عاقه عن هزها منفـردا
نقـرس أحنى عليه فاتكا
من وزير فيهمو رقاصـة
قام للسـكر يناغى ملكا
قهقه الابريق متضـاحكا
ورأى رعشة رجـلى فبكا

فقال أحد الحاضرين : لله درك يا وزير ترقص بالقائمة وتصلى بالقاعدة فضحك المنصور وأثاب الجميع (١) .

ويرى دوزى « ان للاختلاط بين العرب وغيرهم بالأندلس أثرا كبيرا فى الغناء والأدب معا ، وقد كانت طبيعة الاقليم الجميلة من دواعى الغناء والطرب واللهو وكانت مجالس الغناء معقودة مستمرة حيث كانت الجوارى يفدن عليها من مختلف الأقطار منـذ عهد زرياب موصلى الأندلس وصاحب اليد الطولى فى الحركة الغنائية بها » (٢) .

ومما يدل على مدى شغفهم بالغناء أن المظفر بن الأفطس بعد هزيمته المنكرة أمام المعتضد أرسل فى طلب القيان من قرطبة مع أن خزينتـه كانت شـبه خاوية وجيشـه مهزوما وملكه مهددا

---

(١) نفح الطيب جـ ٢ ص ١٧٧ .

(٢) Spanish Islam P. 261 265

بالزوال (١) وأتاحت الحضارة الاجتماعية للمرأة مكانة ممتازة . فكان لها دور فعال فى ازدهار العلوم والفنون والآداب وحسبنا فى الدلالة على مكانتها أن الناصر بنى مدينته الزهراء وأنفق عليها الأموال الطائلة ارضاء لاحدى زوجاته ، وان «اعتماد» حظية المعتمد ابن عباد رأت قطع الثلج تتساقط فى قرطبة فتمنت على زوجها مثل ذلك ، فأمر بأن تزرع أشجار اللوز فى هضبات قرطبة فتزهر فى آخر الشتاء فتظهر بيضاء كالثلج ، ورأت الناس يمشون يوما فى الطين فاشتهت المشى فيه فأمر المعتمد فسحقت الطيوب وعجنت بالأيدى حتى عادت كالطين وخاضته مع جواريها (٢) .

وقد نالت المرأة فى الأندلس قسطا وافرا من التعليم فى الوقت الذى كانت المرأة الأوربية فيه تعد مخلوقا فى الدرجة الثانية طبقا للمذهب الكاثوليكى ولهذا قلما كانت تنال حظا من الثقافة الا فى طبقات النبيلات حيث كن ينلن قشورا من الثقافة لا تكاد تعدو القراءة والكتابة (٣) هذا فى الوقت الذى فازت فيه المرأة الأندلسية بمنصب الأستاذية ونالت بعضهن مناصب غريبة حتى ان « لبانة » كانت تشغل وظيفة سكرتيرة خاصة للخليفة الحكم (٤) واشتهر من النساء عدد كبير كن يساجلن الرجال فى ميادين الشعر والعلم والفن ، وكن زينة مجالس السحر والطرب والغناء ، وكان لبعضهن صالونات أدبية تضم عظماء الرجال فى الفنون والآداب ، وكان التعليم شائعا بينهن ، وكثيرات منهن كن يحفظن بضعة دواوين لشعراء العرب وينظمن الشعر ويترسلن كالأوربيات اليوم (٥) روى ابن فياض فى تاريخه أنه « كان بالربض الشرقى من قرطبة مائة وسبعون امرأة

---

(١) الذخيرة ق ٢ ص ١٩ « مخطوطة » والبيان المقرب ج ٣ ص ٢١١ .

(٢) نفح الطيب جـ ٢ ص ٦١٨ .

(٣) تاريخ التربية الاسلامية للدكتور شلبى ص ٣١٨ — ٣٢٠ .

(٤) المصدر السابق ص ٣٤٤ .

(٥) غابر الأندلس وحاضرها ص ٨٧ .

كلهن يكتبن المصاحف بالخط الكوفى هذا فى ناحية من نواحيها فكيف بجميع أحيائها (١) بل كان فى دكان نسخ واحد بها مائة وسبعون جارية يشتغلن فى نسخ المؤلفات لطلاب الكتب النادرة (٢) .

* * *

وأخيرا لا نحب أن نتعصب مع الأندلسيين فنجحد فضل المشارقة وسبقهم كما اننا لا نستطيع أن نغمط الأندلس حقها فيما أنتجته من علوم وفنون ، وانما نقول ما قاله أستاذنا أحمد أمين فى ختام كتابه ضحى الاسلام « كما انتفع الأندلسيون بعلوم الشرق ومنتجاته انتفع الشرق بآثارهم ، فكم انتفع المشارقة بالعقد وظرفه ، والمخصص والمحكم ومنهجهما فى اللغة . وابن رشد وفلسفته (٣) ، والموشحات وطرافها فلولم تقم الحضارة الأندلسية بعلومها وفنونها وآدابها ثمانية قرون تعمل جاهدة فى خدمة العلم والأدب لتغير تاريخ العالم الاسلامى » .

وقبل أن نختم هذا نرى من الأمانة العلمية أن نصحح خطأ وقع فيه بعض الباحثين عن رسائل اخوان الصفاء ، حيث ظن ان الفيلسوف الأندلسى مسلمة المجريطى المتوفى سنة ٣٩٥ هو مؤلف هذه الرسائل ، والواقع أن هذه الرسائل ألفتها جماعة فلسفية سياسية نشأت بالبصرة فى القرن الرابع الهجرى وجمعت بين حرية فكر المعتزلة واتجاه الشيعة وجمعت بين شتى الآراء والمذاهب ، وتضم هذه الرسائل واحدا وخمسين بحثا جمعت أنواع المعارف العميقة المعروفة فى هذا العصر مما يجعلها تشبه دوائر المعارف الحديثة (٤) وتكتم مؤلفوها أسماءهم ليتحدثوا فيها بملء حريتهم ،

---

(١) المعجب ص ٣٧٢ .

(٢) نضيف اليه تفسير ابن عطية والقرطبى وابن العربى ومؤلفات ابن مالك النحوية وابن عربى الصوفية .

(٣) ضحى الاسلام جـ ٣ ص ٣١٠ .

(٤) نشرتها المكتبة التجارية بتحقيق خير الدين الزركلى سنة ١٩٢٨ .

ولقد لقيت هذه الرسائل رواجا كبيرا فى الشرق والغرب ؛ وحملها معه المجريطى الى الأندلس ورواها عنه وأذاعها تلميذه أبو الحكم الكرمانى (١) ؛ ولعل الذى أوقع فى هذا اللبس ما ذكره المجريطى فى كتابه « رتبة الحكم فى علم الكيمياء » ــ : « وقد قدمنا من التآليف فى العلوم الرياضية والأسرار الفلسفية رسائل استوعبنا فيها استيعابا لم يتقدمنا فيها أحد من أهل عصرنا ، وقد شاعت هذه الرسائل فيهم وظهرت اليهم فتنافسوا فى النظر اليها وحضوا أهل زمانهم عليها ، ولا يعلم أحد من ألف ولا من أين ألف غير الحذاق منهم » .

وقال صاحب كشف الظنون فى حديثه عن رسائل اخوان الصفاء « وقد وجد بالأندلس كتاب آخر اسمه رسائل اخوان الصفاء ألفه الحكيم أبو محمد مسلمة المجريطى ؛ ويظهر أن الوقت الذى ألف فيه المجريطى رسائله هو الوقت الذى ألف فيه اخوان الصفاء رسائلهم ، والى هذا يشير شيخ العروبة أحمد زكى باشا بقوله معقبا على من ظن أن المجريطى هو مؤلف الرسائل المعروفة ــ : « الظاهر أنهم لما أطلعوا عليه (قول المجريطى) قالوا ان الرسائل التى يقصدها هى رسائل اخوان الصفاء ، وهو وهم لأنه يقول : (وقد استوعبنا فيها العلوم الرياضية والأسرار الفلسفية استيعابا لم يتقدمنا فيه أحد من أهل زماننا) وليست رسائل اخوان الصفاء كذلك » (٢) .

ومهما يكن من شيء فان الأندلس بدأت تزاحم المشرق فتزحمه حينا وتقصر عنه أحيانا ، وتطاوله فتطوله تارة وتقف دونه تارات ؛ ولو طال بها الزمان واستشعرت الأمان لأضافت الى الحضارة العربية والثقافة الاسلامية والفنون الأدبية فصولا خالدات . وقد كشف الزمن وسيكشف من آثارهم ما يؤيد هذا الاتجاه .

(١) تاريخ الفكر الأندلسى ص ٤٥٥ ونرجح أن الذى حملها هو الكرمانى التلميذ لا المجريطى الأستاذ .

(٢) الأدب الأندلسى للأستاذين بلافريج وخليفه ص ٦٠ .

القسم الثاني

الأديبُ الموهوبُ

الفصل الأول

بداية صالحة

للبيئة أثرها العميق فى تكوين شخصيات العباقرة الموهوبين ، كما أن للوراثة أثرها العميق فى تكوين الميول الفطرية والاعـــداد الذهنى لهؤلاء العباقرة — فلا نستطيع أن نتعرف الى شخصية عظيم دون أن ندرس بيئته التى شب فيها وتأثر بها قبل أن يؤثر فيها ، ودون أن ندرس أسرته التى ورث منها خصائصه العقلية والجسمية وتأثر بتوجيهاتها قبل أن يبلغ تمام الرشد والاستواء . ولقد تناولنا فى القسم الأول الحديث عن البيئة الأندلسية وما تزخر به من تيارات ثقافية ، وأحداث سياسية وحضارة عمرانية وبقى علينا أن نتحدث فى مستهل هذا القسم عن بيئة شاعرنا الخاصة أو بعبارة أدق عن الأسرة التى انحدر منها وانتمى اليها ودرج فى أحضانها وتلقى معارفه وثقافته الخاصة والعامة تحت ظلالها وتأثير توجيهاتها ، قبل أن نصحبه فى رحلة حياته الطويلة العريضة وقبل أن ندرس ما حفلت به هذه الحياة من أحداث وما تركته فى الأدب العربى من آثار .

أسرة الشاعر

امتازت قريش عن القبائل العربية بالقداسة الدينية فى الجاهلية والاسلام ، أما فى الجاهلية فلأنها كانت تقوم على سدانة الكعبة وخدمة ما بها من أصنامها وأصنام بقية القبائل ؛ وأما فى الاسلام فلأن الدين الاسلامى الحنيف انبثق منها فعم الأرجاء وغمر العالم من أقصاه الى أقصاه ، هذا فضلا عن نسبتها المشهورة الى اسماعيل وأبيه ابراهيم عليهما السلام ، وهما اللذان بنيا البيت الحرام ..

وظلت الخلافة الاسلامية مقصورة على قريش أكثر من تسعة قرون حتى انتزعها منها الأتراك العثمانيون . وبطون قريش عديدة ولكن عشرة بطون منها انتهى اليها الشرف فى الجاهلية ووصلته فى الاسلام ؛ ومن هذه البطون بنو مخزوم ومن زعماء بنى مخزوم خالد ابن الوليد وكانت اليه القبة والأعنة (١) وقد رحلت عشائر عديدة من بنى مخزوم الى الأندلس مع من رحل اليها من القبائل والعشائر والشاعر يمتد نسبه الى بنى مخزوم ، ولا نعرف عن آبائه وأجداده شيئا . وان كان الذين عاصروا الشاعر وسجلوا تاريخ حياته أشاروا اشارات مبهمة الى أنه نشأ فى أسرة كبيرة نابهة فيقول ابن حيان معاصر الشاعر وجامع ديوانه : « أنه من أبناء وجوه الفقهاء بقرطبة فى أيام الجماعة والفتنة » (٢) وأنه « ذو الأبوة النابهة بقرطبة » (٣) وقد راجعنا كتب التراجم والتواريخ الأندلسية مراجعة دقيقة بحثا عن آباء الشاعر وبخاصة كتاب ابن الفرضى .. الذى استوعب تاريخ علماء الأندلس وسماه « تاريخ علماء الأندلس » وقد طبع مرتين ، كما راجعنا ذيله لابن بشكوال الذى سماه « الصلة » وقد طبع مرتين ؛ ثم راجعنا تاريخ قضاة الأندلس للنباهى ، ولم نجد فيها جميعا ذكرا لأجداد الشاعر ، وكل ما وجدناه فيما وصلنا من المراجع يقتصر على بضعة أسطر عن والد الشاعر سنتحدث عنها بعد قليل — ومما لا شك فيه أن لوالد الشاعر مكانة بين قومه أما أجداده ، فلا نعرف عنهم شيئا على الاطلاق . ولكن أوغست كور الذى كتب كتابا قيما عن الشاعر باللغة الفرنسية يذكر فى كتابه أن أجداد الشاعر وصلوا الى اسبانيا فى أوائل الفتح الاسلامى ، وانهم كانوا من أشياع بنى أمية ، وأن الحكام الأمويين

---

(١) القبة كانوا يقيمونها ثم يجمعون اليها ما يجهزون به الجيش . والأعنة قيادة الفرسان فى الحروب .

(٢) المقصود بأيام الجماعة أيام الخلافة الأموية حتى موت الحكم بن الناصر سنة ٣٦٦ والحاجب المنصور سنة ٣٩٣ هـ — وبأيام الفتنة ما تلا هذا من أحداث

(٣) الذخيرة ق ١ جـ ١ ص ٢٩٠ ، ٢٩١ واعتاب الكتاب ص ٧٦ .

أسندوا اليهم كثيرا من المناصب العالية (١) ؛ ولا ندرى المصدر الذى استند اليه كور .

أما والد الشاعر : فهو الفقيه عبد الله بن أحمد بن غالب ابن زيدون المخزومى ؛ ولقب الفقيه من أكرم ألقاب التكريم بالأندلس حتى كانوا يطلقون هذا اللقب على الأمير العظيم (٢) ويترجم القاضى عياض فى كتابه ترتيب المدارك لوالد ابن زيدون (٣) مع من ترجم لهم من كبار اعلام المذهب المالكى فيقول عنه : « كان متفننا فى ضروب العلم جم الرواية والمعرفة فصيحا جميل الأخلاق » (٤) ومن هذا الوصف يتضح أنه كان واسع الثقافة غزير العلم مشهورا بالبلاغة معروفا بمكارم الأخلاق ، وكان على حظ وافر من الثراء أتاح له — مع علمه وخلقه وفصاحته — أن يكون ذا شأن فى بلده وكان معدودا فى علية القوم ، وكان ذوو الشأن يستشيرونه فى الخطير من أمورهم ويستفتونه فى المشكلات العارضة (٥) ونحن نعلم أن المشورة والفتوى كانتا محصورتين فى عدد قليل من كبار الفقهاء ؛ كما نعلم أن الأندلسيين كانوا لا يقدمون أحدا للفتوى ولا لقبول الشهادة حتى يطول اختباره وتعقد له مجالس المذاكرة ويكون ذا مال ؛

ولقد عاش الفقيه عبد الله بن زيدون والد الشاعر فى عصر الفتن الثائرة والثورات العارمة بين العرب والبربر والصقالبة ثم بين هؤلاء والمسيحيين مما عرض كثيرين من ذوى المناصب والرتب الى القتل أو الأذى والعدوان ومصادرة الأموال ؛ فكيف سلم من هذه الأحداث ؟ نستطيع أن ندرك السر فى نجاته ؛ ونرجح أن هذا يعود الى عدة أسباب ، مجتمعة ، أهمها — :

---

(١) Ibn Zaidoun لمؤلفه أوغست كور p. 25

(٢) نفح الطيب جـ ١ ص ١٣١ وأعمال الأعلام جـ ٣ ص ١٦٦ .

(٣) مخطوط بدار الكتب المصرية .

(٤) جـ ٢ ص ١٤٣ .

(٥) الصلة ص ٢٥٤ ، والتكملة جـ ٢ ص ٤٤٥ ، ٤٤٦ .

١ ـ منزلته العلمية التى أحاطته بسياج من الهيبة والاحترام .

٢ ـ عصبيته فى بنى مخزوم ومصاهرته لقيس عيلان وهى قبيلة كانت صاحبة شأن خطير فى الجزيرة العربية ثم فى الجزيرة الأندلسية .

٣ ـ مصدر ثرائه كان فى البيرة بعيدا عن مواطن الثورات بقرطبة ، وكان البربر فيها هم أصحاب الكثرة والسلطان .

٤ ـ مع مكانته العربية كان أثيرا لدى البربر ، فقد ذكر ابن الأبار أنه كان من أنصار الخليفة سليمان بن الحكم المستعين بالله (١) ونحن نعلم أنه كان يستعين فى تثبيت عرشه ومناوأة خصمه محمد بن هشام المهدى بطوائف البربر .

٥ ـ كان وثيق الصلات بجميع الزعماء المعروفين على اختلاف ميولهم وبخاصة بنى ذكوان ، وكان له تلاميذ عديدون يشغلون مراكز علمية ومناصب هامة فى الحياة السياسية والاجتماعية .

هذه الأسباب كلها مجتمعة مضافة الى حنكته ولباقته ومكانته جعلته بمنجاة من الأحداث العنيفة التى عصفت بكثيرين من الزعماء فى عصره .

وأهم ما يمتاز به ما ذكره ابن بشكوال من أنه « كان من أهل النباهة والجلالة والمعرفة باللغة والآداب » (٢) وما وصفه به القاضى عياض من أنه يخضب بالسواد (٣) وهذا يدل على أناقته وحسن مظهره ، ويصفه ابن الأبار بأنه « كان فى ضروب العلم جم الرواية من أهل النباهة والجلالة والمعرفة باللغة والآداب » (٤) ؛ وقد استطاع بلباقته ومرونته وحسن تأتيه أن ينجو من المحنة التى تعرض لها صديقه الحميم أبو العباس بن ذكوان وكانت نتيجتها نفيه

---

(١) التكملة جـ ٢ ص ٤٤٥ .

(٢) الصلة ص ٢٥٤ .

(٣) ترتيب المدارك (مخطوط) جـ ٢ ص ١٤٣ .

(٤) التكملة جـ ٢ ص ٤٤٥ .

عن الأندلس بسبب ميله الى البربر على الرغم من عصبيته القوية ومكانته الاجتماعية (١).

ويظهر أنه كان موضع الاعزاز والتكريم من تلاميذه ، والى هذا يشير شاعرنا فى الرسالة التى كتبها فى محنته الى أستاذه وصديقه ابى بكر مسلم بن أحمد بن أفلح النحوى حيث يقول (٢) : « ولعمرك يا سيدى ان ساحة العذر لتضيق عنك ، وما تكاد تتسع لك ، فى اسلامك تلميذك ، وابن جارك وشيخك ؛ الذى لم تزل متوفرا عليه آخذا عنه مقتبسا منه مع اكثارك من ذكر هذا والاعتداد به وادعاء الحفظ له » وتوفى والد الشاعر أثناء تفقده ضيعة له فى البيرة ، ولمكانته العظيمة وثرائه الواسع نقلت جثته الى قرطبة فدفن بها سنة ٤٠٥ هـ (٣) ولما توفى رثاه أبو بكر بن عبادة بن ماء السماء من شعراء الدولة العامرية ، وكان كما يقول فيه ابن بسام « شيخ الصناعة وامام الجماعة ومن أكبر مؤسسى فن الموشحات » (٤) رثاه بهذه الأبيات ..

أى ركن من الرياسة هيضا	وجموم من المكارم غيضا (٥)
حملوه من بلدة نحو أخرى	كى يوافوا به ثراه الأريضا (٦)
مثل حمل السحاب ماء طبيبا	لتداوى به مكانا مريضا

---

(١) ترتيب المدارك جـ ٢ ص ١٤٣ وتاريخ قضاة الأندلس ص ٨٤ ـ ٨٦ .

(٢) ديوان ابن زيدون ورسائله ص ٧٤٠ .

(٣) نفح الطيب جـ ٢ ص ٤٣٠ ، ٤٣١ والتكملة ص ٤٤٥ .

(٤) ترجم له ابن بسام فى مستهل الجزء الثانى من القسم الأول من الذخيرة .

(٥) هيض : تحطم ؛ جموم : ماء كثير ، غيض جف .

(٦) روض أريض : كثير النبت حسن المنظر .

هذه صورة واضحة المعالم لوالد الشاعر اقتبسناها من اللمحات الخاطفة التي أشارت اليه فى بعض ما وصل الينـــــا من المراجع الأندلسية .

أما أم الشاعر فلا نعلم عنها شيئا ، وكل ما نعلم أنه أشار اليها فى رسالته الى أستاذه أبى بكر مسلم بن أفلح حين كان مسجونا ، حيث قال فى هذه الرسالة : « وغبت عن أم أنا واحدها تمتد أنفاسها شوقا الى ، وتفض أجفانها حزنا على . والله يرى بكاءها ويسمع لى على من ظلمنى نداءها .. » (١) ثم هو يناجى أمه فى غيابة السجن هاتفا بها — :

أمقتولة الأجفـــان مالك والهــــا ؟
ألم ترك الأيام نجما هوى قبلى ؟ (٢)

أقلى بكاء لست أول حـــــــرة
طوت بالأسى كشحا على مضض الثكل (٣)

وفى أم موسى عبـــــــرة اذ رمت به
الى اليم فى التابوت ، فاعتبرى واسلى (٤)

ومن هذه الاشارات يتضح مدى تعلق الشاعر بأمه واستمرار هذا التعلق من الطفولة إلى سن الشباب ، كما يتضح أنه كان ابنها الوحيد ، وان كفلته بعد وفاة أبيه وهو فى الحادية عشرة من عمره ، فكانت له بمثابة الأب والأم معا ، وكان من المتوقع له فى ســـنه الصغيرة وثروته الواســعة وفقده والده المرشد الموجه (٥) كان من المتوقع له أن ينحرف أو ينصرف عن التعليم أو التوجه لمعالى الأمور لولا أمه من جهة ، ولولا جده لأمه من جهة أخرى ، وقد عرفنا هذا

(١) ديوان ابن زيدون ورسائله ص ٧٥١ .
(٢) مقتولة الأجفان ضعيفة أجفان العين لكثرة البكاء واله : واهبة العقل .
(٣) طوى كشحه : ضم جنبيه ، مضض الثكل : وجع فقد الولد .
(٤) الديوان ص ٢٦٤ .
(٥) وكان الى هذا وسيم الوجه كما سنذكر فيما بعد .

الجد عن طريق قصيدة بالديوان وجهها الشاعر الى جده أبى بكر محمد بن محمد بن ابراهيم بن سعيد القيسى وأرفقها بهدية عنب (١) وبالرجوع الى كتب الأنساب نعرف ان اسم قيس يطلق على عدة بطون أشهرها قيس عيلان ؛ واذا أطلق اللقب انصرف اليها ولقد ذكر المقرى أن منها بالأندلس كثيرين وأنها تولت زعامة المضريين جميعا بما فيهم قريش فى بعض الأحـداث الهامة (٢)، مما يدل على ما بلغته من قوة ونفوذ فى هذه البلاد ومن هذا يتضح أن الشاعر كان حسيب الأبوين .

أما الجد فان له أثرا كبيرا فى سبطه سواء عن طريق الوراثة او عن طريق التوجيه ، فانه كفل الشاعر بعد وفاة ابنه سنة ٤٠٥ (سنة وفاة الأب) وظل يرعاه حتى سنة ٤٣٢ (سنة وفاة الجد) وكان الشاعر يقارب الأربعين .

وقد راجعنا كتب التراجم فعثرنا على ترجمة موجزة لجد الشاعر لأمه ولوالد هذا الجد (٣)

أما والد الجد فهو محمد بن ابراهيم بن سعيد القيسى من أهل قرطبة يكنى أبا عبد الله ويعرف بابن أبى القراميد ، وكان ذا بصر بالحـديث ورجاله يحسـن التقييد والضـبط فيما يكتب . وكان من أضبط الناس لكتبه ، وأجمعهم لذخائر الرواية ، وله تأليف جمع فيه كلام يحيى بن معين فى ثلاثين جزءا ، وكان يتولى النظر فى الأوقاف بقرطبة حتى نزعه فالج فى مجلس القاضى فحمل الى داره حيث توفى سنة ٣٩١ هـ ، وأما ابنه ـ جد الشاعر لأمه ـ فهو أبو بكر محمد بن محمد بن ابراهيم ويعرف بابن الهداهيد حدث عن أبيه عن القاضى أبى عبد الله بن مفرج وغيرهما ، وتولى

---

(١) الديوان ص ٢١٩ .

(٢) نفح الطيب جـ ١ ص ١٤٧ .

(٣) تاريخ علمـاء الأندلس جـ ١ ص ٣٩٦ ، جـ ٢ ص ١٠١ وجـذوة المقتبس لوحة ١٨ وبغية الملتمس ص ٤٦ .

القضاء بمدينة سالم ثم أحكام الشرطة والسوق بقرطبة ، وكان من أهل الصرامة فى أحكامه ويروى أنه لقى اســــاءة بالغة من حكم ابن سعيد وزير المعتد بالله الأموى آخر خلفاء بنى أمية بقرطبة ، وكان كثيرا ما يسيء الى الوزراء والى الرعية حتى لقى حتفه على أيديهم . ولعل لهذا دخلا فى تحمس الشاعر للقضاء على الأمويين واقامة الحـكم الجهورى بقرطبة فى مستهل حياته . وكان ابو بكر هــذا صاحب عناية بالعــلم حدث عنه أبو مروان الطبتى : وتوفى سنة ٤٣٢ هـ وكان مولده سنة ٣٥٥ هـ وقد نعته الشاعر فى ديوانه بالوزير الفقيه صاحب الأحكام ، ونستطيع ان نقرر أنه كان ثريا فاننا نعلم أن الثروة من شروط ولاية القضاء .

فالشاعر نجله والدان كريمان ، ونشأ فى أسرة مرموقة المكانة مشهود لها بالعلم والجلالة ؛ فالبيئة العامة التى درج فى ظلالهـــا والبيئة الخاصة التى شب بين جدرانها مهدتا له وسائل الثقــافة العميقة والتربية الصحيحة وولدتا فيه عوامل الطموح والنبوغ .

نشأة الشاعر

فى ظلال بيئة كريمة وفى كنف أسرة مجيدة برز الشاعر الى الوجود سنة ٣٩٤ هـ ؛ وتجمع المصادر الافرنجية على أنه ولد سنة ١٠٠٣ م وبمقارنة التاريخين الهجرى والميلادى نجدهما يتفقان فى فترة تمتد من يوم السبت غرة المحرم سنة ٣٩٤ هـ الموافق ٣٠ من اكتوبر سنة ١٠٠٣ م الى يوم الجمعة ٤ من ربيع الأول سنة ٣٩٤ والموافق آخر ديسمبر سنة ١٠٠٣ م (١) وبهذا نستطيع أن نقرر أن شاعرنا ولد فى أوائل سنة ٣٩٤ هـ أو خريف سنة ١٠٠٣م ونرجح أن الشاعر درج فى حى الرصافة بقرطبة حيث كان أبوه مقيما الى جوار أستاذه الأصيلى ، ويحدثنا ياقوت أن الرصافة مدينة أنشأها عبد الرحمن الداخل وسماها بهذا الاسم تشبيها لها

(١) التوفيقات الالهامية ص ١٩٧ .

برصافة جده هشام بدمشق (١) ويقول ابن حوقل انها مساكن أعالى البلد متصلة بأسافلها من ربضها (٢) مشتبكة أبنيتها محيطة بها مستديرة عليها من شرقها وشمالها وغربها (٣) ويذكر المقرى أنها تقع الى شمال قرطبة منحرفة الى الغرب وأن الداخل اتخذها مقرا له ومتنزها فى معظم أوقاته ، وانه نقل اليها غرائب الغروس واكارم الشجر من كل ناحية فطار ذكرها واتصلت عمارتها من بعده وقد اشتهرت بجناتها الفيحاء وثمارها اليانعة التى انتشرت منها الى أنحاء الأندلس ، قال ابن سعيد أن الرمان السفرى الذى فاض على أرجاء الأندلس وصاروا لا يفضلون عليه سواه أصله من هذه الرصافة (٤) وقد لهج بذكرها شاعرنا فى قصائده ، فهو يقول فى مخمسته :

ويوم بجوفى الرصافة (٥) مبهج   مررنا بروض الأقحوان المدبج
وقابلنا فيه نسيم البنفسج   ولاح لنا ورد كخد مضرج
تراه أمام النور وهو امام (٦)

كما لهج بذكرها الشعراء ، ونكتفى بايراد مقطوعة واحدة على سبيل المثال صاغها أبو حفص بن برد صديق الشاعر يقول فيها :

سقى جوف الرصافة مستهل
تؤلف شمله أيدى الرياح

---

(١) معجم البلدان جـ ٤ ص ٢٥٧ .
(٢) الربض ما حول المدينة .
(٣) المسالك والممالك ص ٧٧ .
(٤) نفح الطيب جـ ١ ص ٣٠٥ .
(٥) الجوف عند الأندلسيين المغاربة هو الشمال « الحلل السندسية » جـ ١ ص ٥٨ ، ٥٩ هـ .
(٦) الديوان ص ١٣٠ والأقحوان أبيض الورق مشرشر فى وسطه دائرة صفراء .

محل ما مشـــــيت اليــــــه الا
مشى فى ابتهاجى وارتيـــــــاحى
كأن ترنم الأطيـــــار فيـــــه
أغان فوق أوتار فصـــــــــاح
كأن تثنى الأشـــــــــجار فيه
عذاري قد شربن ســـــلاف زاح
كان الجدول المنساب نصـــــــل
صقيل المتن هـــــــز الى كفـــاح
كأن رياضـــــــــه أبراد وشى
تعطف فوق أغصـــــــان ملاح (١)

ومن الطبيعى أن للجمال أثره الفعال فى ارهاف الحس وانماء الموهبة وتكوين الذوق الجميل..

ومن الطبيعى أيضا ان والد الشاعر أعد الوسائل الفعالة لتثقيف ابنه وتهذيبه ، وأنه بدأ اتخاذ هذه الوسائل حتى توفى وابنه فى الحادية عشرة من عمره فخلفه فى الارشاد والتوجيه جد الطفل لأمه أبو بكر محمد بن محمد بن ابراهيم القيسى ونعلم أنه كان من أهل الجد والصرامة وأنه ولى مناصب قضائية وادارية اشتهر فيها بالحزم وحسن التدبير ، كما نعلم انه واسع الثقافة غزير العلم فهيأ لسبطه جميع وسائل الثقافة والتهذيب ؛ وكان لوالد الشـــاعر أصدقاء عديدون من ذوى المكانة المرموقة والثقافة العميقة ومن المتوقع ان يحيطوا الابن بالرعاية والعطف وفاء لحق صداقة أبيه ، وقد أشار الشاعر الى هذا فى رسالته لأستاذه وتلميذ أبيه أبى بكر مسلم بن أفلح النحوى المشهور وقد أشرنا اليها فيما سبق .

والمناهج المألوفة فى هذه البيئة « كانت فى التعليم الابتدائى تتناول كتابة الخط وقراءة القرآن وتعلم النحو والصرف ورواية الشعر ..

---

(١) الذخيرة ق ١ ج ١ ص ٤٩ .

أما التعليم العالى فيقوم على تفسير القرآن الكريم ودراسة علوم الدين والفلسفة وأصول اللغة العربية والشعر وعلم المفـــردات والتاريخ والجغرافية » (١) ويحدثنا ابن خلدون عن التعليم فى الأندلس فيذكر أن أبا بكر بن العربى يفضل طريقة الأندلسيين على طريقة المشارقة حيث يقول : « وقدم تعليم العربية والشعر على سائر العلوم كما هو مذهب أهل الأندلس لأن الشعر ديوان العرب » ثم يقول : « ويا غفلة أهل بلادنا فى أن يؤخذ الصبى بكتاب الله فى أول أمره يقرأ ما لا يفهم وينصب فى أمر غيره أهم » .. ويعقب ابن خلدون على هذا بقوله : « وأما أهل الأندلس فقد أفادهم التفنن فى التعليم وكثرة رواية الشعر والترسل ومدارسة العربية من أول العمر حصول ملكة صاروا بها أعرق فى اللسان العربى (٢) .

ومن الطبيعى أن شاعرنا سار على هذا المنهج فى تعليمه والدارس لآثاره يرى ثقافته متنوعة ويرى أثر هذه الثقافة متجليا فى فنون شعره ونثره ويرى الاصطلاحات العلمية تتردد فى ثنايا قوله ، فآثاره غاصة بمصطلحات القرآن الكريم والحديث الشريف وأصول الفقه والعلوم الفلسفية والطبية ، أما العلوم التاريخية والفنون الأدبية والحكم والأمثال فهى كثرة كاثرة تكاد تجاوز الحد فيما خلفه من آثار (٣) .

وقد شهد له معاصروه بالثقـــافة الواسعة العميقة ، فيقول المعتمد بن عباد ــ وهو من هو ــ فى مقطوعة شعرية وجهها اليه :

وكم قد توكفتها روضـــــــة   تقرب لى الأمل الأبعـــــــدا
ينور علمك أرجـــــــاءها   ويقطر طبعك فيها نــــــدى

(١) تاريخ العرب ٣/٦٦٨ ، ٦٦٩ .
(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٤٩٥ ، ٤٩٦ .
(٣) ابن زيدون عصره وحياته وأدبه ١١١ ــ ١١٧ .

لك العلم مهما أرد بحـــــره لأروى به أحمــــد الموردا (١)

ويصفه ابن حيان « بسعة الذرع وتدفق الطبع وغزارة البيان ورقة حاشية البيان »[1] ويقرر أن هذه الصفات « هى الصبح الذى لا ينكر ولا يرد ، والرمل الذى لا يحصر ولا يعـد » (٢) وينعته ابن دجنة بأنه « ذو المعارف والفنون » ويذكر ابن نباتة أنه « اشتغل بالأدب وفحص عن نكته ونقب عن دقائقه الى أن برع وبلغ من صناعتى النظم والنثر المبلغ الطائل » .

ولهذا نقرر انه لم يكن مبالغا فى فخره حين قال :

وأنجد فى علم توالت فنـــونه كما يتوالى فى النظـام سخاب

أســـاتذته

ألف العلماء والفقهاء أن يذكروا أساتذتهم فى كل فن تعلموه او كتاب درسوه وقد ورثوا هذا التقليد عن علماء الحديث ، فكتب التراجم الخاصة بطبقات المفسرين او الفقهاء أو المحدثين أو القضاة تلتزم هـذا المنهج التزاما دقيقا وبخاصة فى الأندلس كما نرى فى تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي والصلة لابن بشكوال والتكملة لابن الأبار .. بل أن بعضهم كان يؤلف معجما خاصا بأسماء شيوخه مثل ابن حير والصـدفى ، وكنا نتمنى أن يسلك مؤلفو التراجم الأدبية هذا المسلك لأنه يلقى أضواء كاشفة على نشأة من يترجمون لهم .

ونحن لا نعرف من أساتذة ابن زيدون أحدا اللهم الا أستاذه أبا بكر بن مسلم بن أفلح النحوى وعرفناه لأن الشاعر وجه اليه

---

(١) ديوان المعتمد بن عباد ٥٥ .

(٢) الذخيرة ق ١ ج ١ ص ٢٩٢ .

رسالته « البكرية » مستغيثا به فى محنته وخاطبه بأستاذه وبتلميذ أبيه .

ونحن نرجح أن أستاذ شاعرنا الأول هو أبوه ، فالقرائن توحى بأنه كان وحيد أبويه ، والذين تحدثوا عن الوالد يذكرون انه عالم جليل من علماء الدين وأنه من أهل المعرفة باللغة والأدب ، ومع أنه لم يحترف مهنة التعليم الا انه أفاد بعلمه الكثيرين ، ومن كان حريصا على افادة الناس بعلمه فهو بالطبع أشد حرصا على افادة ابنه الوحيد .

كما نرجح أن جد الشاعر لأمه كان من أساتذته غير المتفرغين لأنه كفل الشاعر بعد وفاة أبيه ، وكان من رجال الدين والادارة وكان يتذوق الأدب ، ولا شك انه ترك فى نفس سبطه بعض الآثار سواء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة .

أما أستاذه أبو بكر مسلم بن أحمد فقد خلط أوغست كور فى ترجمته لابن زيدون بينه وبين أبى بكر الدانى المعروف بابن اللبانة (١)، وقد تابعه فى هذا الخلط نيكل (٢) وأحمد أمين (٣) واكتفت المصادر العربية القديمة باسم ابى بكر بن مسلم (٤) ومعنى هذا أن مسلما أبوه فما اسمه هو ؟ وقد رجعنا الى جميع دواوين الشاعر المخطوطة فوجدناها تتفق على ان اسمه « أبو بكر مسلم بن أحمد ، وقد رجعنا الى كتب التراجم العديدة فوجدنا الوحيد الذى ينطبق عليه هذا الاسم هو « أبو بكر مسلم بن أحمد بن أفلح النحوى » وترجمته توحى بأنه هو الأستاذ المقصود ولكن نسخ دواوين الشاعر التى وصلت الينا مكتوبة حديثا والذخيرة أقدم منها بكثير ، وتكاد الذخيرة تكون أهم مصدر فى تاريخ الشاعر ومعاصريه بالأندلس ؛ وقد حملنا

---

(١) Ibn Zaidoun P. 16

(٢) Hispano Arabic Poetry P. 106

(٣) ضحى الاسلام جـ ٣ ص ١٥٨ .

(٤) الذخيرة ق ١ جـ ١ ص ٣٠٥ .

الشك على الرجوع الى جميع المصادر المخطوطة للذخيرة فاذا بها كلها تؤيد رأينا وتخالف النسخة المطبوعة وتذكر أن اسمه ابو بكر مسلم لا ابن مسلم كما فى النسخة المطبوعة مما حملنا على الاطمئنان الى ما ذهبنا اليه ، وقد راجعنا فى هذا صديقنا الدكتور شوقى ضيف فاقتنع به وأثبته فى بحثه عن ابن زيدون .

أما هذا الأستاذ فيحدثنا عنه ابن بشكوال فيقول : « مسلم ابن أحمد بن أفلح النحوى الأديب من أهل قرطبة يكنى أبا بكر .. وكان رجلا جيد الدين حسن العقل متصادنا لين العريكة واسع الخلق مع نبله وبراعته وتقدمه فى علم العربية واللغة راوية للشعر وكتب الآداب ، كان لتلاميذه كالأب الشفيق والأخ الشقيق مجتهدا فى تبصيرهم متلطفا فى ذلك سنيا ورعا وافر الحظ من علم الاعتقادات سالكا فيها طريق أهل السنة يقصر اللسان عن وصف أعماله الصالحة ولد سنة ٣٧٦ وتوفى لثمان خلون من شعبان سنة ٤٣٣ هـ وكان أمام مسجد السقاء وكان متمسكا فاضلا » (١) .

وقد انتفع الشاعر بتقدم أستاذه فى « علم العربية واللغة ورواية الشعر وكتب الآداب » كما انتفع بثقافته الدينية وان كان لم ينهج منهجه فى الحياة لاختلاف المواهب الفطرية ولأن الشاعر كان على العكس من أستاذه يتصف بالطموح وينقاد لنزعات العواطف الوجدانية ويتعلق بأسباب الجمال ..

وهناك وهم آخر وقع فيه أوغست كور وهو قوله (٢) : « ان الشاعر تلقى دروسه على القاضى أبى بكر بن ذكوان وان أستاذه توفى سنة ٤١٣ هـ فرثاه الشاعر بقصيدته المشهورة التى مطلعها :

أعجب لحال السر وكيف تحال ولدولة العلياء كيف تدال »

وكور يخلط كثيرا فى الأسماء ولا يذكر مصادره ، وقد تابعه

---

(١) الصلة ص ٥٦٧ .
(٢) Ibn Zaidoun P. 15

فى هذا الخلط آنخل جنثالث بالنثيا (١) على الرغم من دقته وسعة معارفه ثم تابعهما نيكل (٢) فذكر أن الشـــاعر تتلمذ لأبى بكر ابن اللبانة (٣) ولأبى بكر بن ذكوان ثم سار على نهجهم أســـتاذنا الدكتور أحمد أمين (٤) وفاتهم أن أبا بكر بن ذكوان أصغر من شاعرنا بعام ، وان الذى يشيرون الى أنه توفى سنة ٤١٣ هـ ليس أبا بكر بن ذكوان وانما هو أبو العباس أحمد بن عبد الله بن ذكوان والد أبى بكر بن ذكوان الذى توفى سنة ٤٣٥ هـ وقد رثى الشاعر الابن لا الأب (٥) وليس من المعقول ان أبا بكر بن ذكوان ولى القضاء ودرس لشاعرنا ــ وهو أصغر منه بعام ــ ثم توفى فى الثامنة عشرة من عمره ، ومن هذا يتضح أن الجميع خلطوا بين أبى العبـــاس ابن ذكوان وابنه أبى بكر ، والأول من كبار الوزراء وكانت له الصدارة فى الدولة العامرية وبعدها وكان صديقا حميما لوالد الشاعر ويظهر ان الابنين ورثا عن أبويهما هذه الصداقة ، ولأبى العباس بن ذكوان أخ جليل هو أبو حاتم محمد بن عبد الله بن ذكوان ، صاحب المظالم ، وكان يخلف أخاه فى القضـــاء وفى الوزارة أثنـــاء سفره وتوفى سنة ٤١٥ هـ وكلا الأخوين كان مرموق المكانة واسع الشهرة طائر الصيت (٦) وكلاهما جدير أن يكونأستاذا للشاعرلصلاتهما الوثيقة بأبيه ، وان كانا لم يحترفا مهنة التعليم . ولهذا نرجح أن الشاعر تأثر بهما وان لم يتتلمذ عليهما .

أما أبو بكر بن ذكوان فهو صديق الشاعر الحميم وسنتحدث عنه فى بحثنا عن صلات الشاعر بالأصدقاء ومما لا شك فيه أن الشاعر تتلمذ لكثيرين من أعلام عصره المرموقين والى انه كون

(١) تاريخ الفكر الاندلسى ص ٨٠ .

(٢) صححنا هذا الوهم فيما سبق .

(٣) Hispano Arabic Poetry p. 107

(٤) ضحى الاسلام جـ ٣ ص ١٥٨ .

(٥) راجع الديوان ص ٥٣٠ .

(٦) ترتيب المدارك جـ ٢ ورقة ١٣١ وتاريخ قضاة الأندلس ص ٨٦ ، ٨٧ .

ثقافاته الواسعة بقراءاته العديدة فى مكتبة أبيه وجده لأمه وغيرهما من المكتبات التى كانت منبثة فى هذا العصر . ولا شك أن ثروته مكنته من اقتناء ما يشبع نهمه للمعرفة من أمهات الكتب فى شتى العلوم والفنون .

الأصـــدقاء الثلاثة

يقول الشاعر العربى :

عن المرء لا تسل وسل عن قرينه
فكل قرين بالمقارن يقتـــدى

ولا شك فى أن كل صديق يتأثر ويؤثر فى أصدقائه ، ومن الطبيعى أن تتكون لشاعرنا صداقات عديدة أتاحتها له مكانته وثروته وحسبه ونسبه ؛ ومن الصداقات المبكرة التى كان لها فى حياته أثر كبير صداقته لاثنين من لداته من سلالة الأسرات النابهة بقرطبة فى ذلك الحين . ولكل منهما طابعه الخاص وأثره الكبير فى حياة شاعرنا العظيم .

هـــؤلاء الأصـــدقاء الثـــلاثة ابن زيدون الذى نترجم له ، وابن ذكوان وابن جهور كانوا مضرب الأمثال فى الوفاء وسنتعرف على الصديقين الكريمين فيما يلى ـ :

أبو بكر بن ذكوان : ولد سنة ٣٩٥ هـ بعد شاعرنا بعام واحد ، وكان أبوه كما ذكرنا علما من أعلام الأندلس فى المكانة والجاه والعلم والمناصب الكبرى وكان صديقا لوالد الشاعر فتوارث الاثنان صداقة الأبوين ، وسار أبو بكر بن ذكوان على نهج أبيه كما ذكر ابن حيان « فقرأ العلم وسمع الحديث وعكف على النظر وتوسع فى الكتب حتى كان الحذاق يتباهون بمجالسته ، وقد سلك مسلك أبيه الى أن جاء عما قريب أحوذيا (١) نسيج وحده ، وكان قد جمع أشتات

(١) الأحوذى : العالم بالأمر ، أو السريع فى كل ما تناوله ، أو المشمر فى الأمور القاهر لها لا يشذ عليه شىء منها .

الفضائل مع رفعة المنصب وعزة القدر والعلم والرصانة والأدب وعزة النفس ؛ ولم يكن من نمطه بالأندلس أكثر كتبا منه » (١) ويقول ابن بسام : « .. وغرب (٢) شأو أبى بكر فجاء أحوذيا نسيج وحده فى فضله وعلمه وعفته » (٣) مع أنه كان قد جاوز العشرين بقليل ؛ حين ولاه الخليفة المعتد خطة المظالم الخاصة . ولما سقطت الخلافة الأموية وقام حكم بنى جهور قلده أبو الحزم بن جهور — باجماع أهل قرطبة على ذلك — أحكام القضاء فأظهر الحق ونصر المظلوم وفجع الظالم وحمد الناس أحكامه » (٤) أما أخلاقه فيحدثنا عنها القاضى عياض بقوله : « وكان حميد السيرة شديد المذهب صلب القناة حمى الأنف ، رامه الرئيس ابن جهور على أخذ مال الأوقاف لينفقه على المصالح فلم يوافقه عليه وألح ابن جهور فلم يساعده ولزم بيته ، فاحتشم منه » (٥) ومن هذا تتضح مكانته وصلابته فى تنفيذ ما يعتقد ولم يستطع الحاكم أن يرغمه على ما يريد .. وان كان أبو بكر اعتزل القضاء بعد حين ، وتوفى سنة ٤٣٥ هـ دون الأربعين فحزن الناس لفقده وتجمعوا لتشييع جنازته مع رئيسهم ابن جهور ورثاه جماعة من الشعراء (٦) ورثاه صديقه ابن زيدون بقصيدة باكية هى أروع ما نظمه من فنون الرثاء (٧) يقول منها — :

يا من شأى الأمثال منه واحد   ضربت به فى السؤدد الأمثال (٨)

---

(١) ترتيب المدارك ١٥٤/٢ ، ١٥٥ .

(٢) غرب : أمعن فى السفر والمراد طار صيته .

(٣) الذخيرة ق ١ جـ ١ ص ١٥ .

(٤) تاريخ علماء الأندلس ١٠٤/٢ .

(٥) ترتيب المدارك ١٥٤/٢ ، ١٥٥ .

(٦) تاريخ علماء الأندلس ١٠٤/٢ .

(٧) الديوان ص ٥٣٠ — ٥٣٨ .

(٨) شأى : سبق — السؤدد : الشرف .

نقصت حياتك حين فضلك كامل
هلا استضيف الى الكمال كمال

ودعت عن عمر عمرت قصـــيره
بمكارم أعمارهن طـــــــوال

من للنـــدى اذا تنـــازع أهله
فاستجهلت حلماءه الجهـــال

من للعلوم فقد هوى العلم الذى
وسمت به أنواعها الأغفال (١)

من للقضاء يعز فى أثنــــــائه
ايضـــاح مشــكلة لها أشكال

من لليتيم تتـــــابعت أرزاؤه
هلك الأب الحانى وضاع المال

أبو الوليد بن جهور : هو الصديق الثانى للشاعر ، وقد تحدثنا عنه وعن أبيه فى حكم قرطبة فى القسم الأول ، ونزيد هنا أنه أكبر من شـاعرنا بثلاث سنوات فسـنهما متقاربة وشغفهما بالدرس والتحصيل متشابهة وأسرتاهما كريمة ولكن أبا الوليد يمتاز بأنه عاش وليا للعهد فترة ثم حاكما فترة أخرى وظل على مودته للشاعر طيلة الفترتين ، أما ثقافته العلمية فيحدثنا عنها ابن بشكوال فيقول انه « كان حافظا للقرآن العظيم مجودا لحروفه كثير التلاوة له . وكان معتنيا بسماع العلم من الشيوخ وروايته عنهم ، سمع فى شبيبته علما كثيرا ورواه ، وقد دون بخط يده أســـماء شيوخه وما سمعه منهم ، وقد قرأته فوجدت فيه كتبا كثيرة تدل عـلى العناية بالعلم والاهتمام به » (٢) وكان رقيق القلب لين الجانب سمح الخليقة طوال مدة حكمه فكان يدرأ الحدود بالشبهات ويبالغ

---

(١) وسمت تميزت بعلامة الاغفال : من لا يتميزون بشىء .
(٢) الصلة ص ٤٨٨ ، ٤٨٩ .

فى ذلك حتى لا يكاد يقيمها ارتكانا على أنه ليس هناك امام قائم مجمع عليه (١) وقد ظلت صداقته لشاعرنا قائمة قبل الحكم وبعده ؛ حتى اكتهلا وجدت ظروف استدعت فراقهما فتفرقا على غير غداء ؛ وفى هذه الصداقة يقول الفتح بن خاقان « وكان له مع أبى الوليد بن جهور تآلف أحرما بكعبته وطافا وسقياه من تساقيهما نطافا » (٢) وقد استطاع أبو الوليد بن جهور أن يساعد الشاعر فى فراره من سجنه ثم بذل جهده حتى استجلب العفو عنه من أبيه أبى الحزم ثم نجح فى تقريبه وتكريمه والى هذا يشير ابن حيان بقوله : « وألقى نفسه يومئذ على أبى الوليد بن جهور فى حياة والده أبى الحزم فتشفع له وانتشله من نكبته وصيره فى صنائعه .. ولما ولى الأمر بعد والده نوه به وأسنى خطته وقدمه فى الذين اصطنعهم لدولته وأوسع راتبه وجلله كرامة .. » (٣) ونرى أثر هذه الصداقة واضحا فيما نظمه الشاعر فى صديقه الحاكم من قصائد ناطقة بالمودة والصفاء ، أما الأحداث التى استدعت فراق الصديقين فسنعرض لها فيما بعد .

وكانت الكلفة مرفوعة بين الشاعر وبين صديقه ابن ذكوان وابن جهور ، فقد كان الثلاثة على حداثة سنهم يشغلون مناصب هامة ولكنها مختلفة ، فابن جهور كان وليا للعهد ثم حاكما ، وابن ذكوان كان قاضيا خطيرا وعالما كبيرا ، وابن زيدون كان وزيرا وسفيرا وشاعرا مرموق المكان ؛ وكان لهؤلاء الأصدقاء الثلاثة خلوات محببة يطرحون فيها عنهم أعباء الجلال والوقار ويطلقون أنفسهم على سجيتها ويعبثون ما طاب لهم العبث البرىء اذا امنوا العيون وفضول الرقباء ؛ سمعوا أن أبا القاسم القاضى التنوخى كان ينادم الوزير المهلبى مع القاضيين ابن قريعة وابن معروف وما منهم

---

(١) البيان المقرب جـ ٣ ص ٢٣٤ .

(٢) قلائد العقيان ص ٧١ والنطاف الماء العذب الصافى .

(٣) الذخيرة ق ١ جـ ١ ص ٢٩١ واعتاب الكتاب ص ٧٧ ـ ٧٩ .

الا ابيض اللحية طويلها ، فاذا طاب لهم المجلس ولذ السماع « وهبوا ثوب الوقار للعقار وتناول كل منهم كأسا من الذهب مملوءة خمرا فيغمس فيها لحيته بل ينقعها حتى تتشرب أكثر الشراب ثم يرش بها بعضهم على بعض ، ويرقصون بأجمعهم وعليهم المصبغات ؛ ويصيحون كلما كثر شربهم : هر هر ، فاذا أصبحوا عادوا الى عادتهم فى التزمت والتوقر والتحفظ بأبهة القضاء وحشمة المشايخ الكبراء (١) » .

سمع الأصدقاء الثلاثة هذه النادرة فاستجابت لها نفوسهم الشابة الفتية فنسجوا على منوالها ، يقول ابن بسام : « .. وكان القاضي أبو بكر بن ذكوان أجل من اشتمل عليه أوانه مجدا وشرفا وتفننا فى العلم وتصرفا ، مع دعابة حين خلواته تحل حبا المحتبى (٢) ورقاعته عند نشواته كالتنوخي والمهلبى ، فاذا أصبحوا بكر أبو بكر الى مصادرة ما يتجه عليه الحكم ومواجهته ، وانكر ما كان عليه من فكاهته ، فكانما فى بردبه الامام ، وكأنه وقار يذخل أو شمام (٣) . مع عدله فى قضائه وانفاذ الحكم بمقتضى الحق وامضائه .. حتى اذا راح الرواح عادوا الى القصف وتجاوزوا فى ميدانهم كل وصف ، الى ان اختلس أبو بكر منهما وتقلص ذيل مؤانسته عنهما فاعتاضا عنه بسواه وأفاضا فيما كانا فيه وما تعدياه » (٤) واذا درسنا هذه الصداقة وجدناها قائمة على تقارب السن وغزارة العلم ووفرة الأدب وسمو الرتب وعراقة الحسب والنسب ؛ ولهذا ظل ابن ذكوان وثيق الصلة بشاعرنا حتى مات . وظل ابن جهور وثيق الصلة به الى أن فرقت بينهما الأحداث على غير جفوة أو بغضاء ، والانصاف يقتضينا أن نذكر ان الشاعر هو الذى هاجر من بلاط صديقه الحميم الى بلاط بنى عباد لأسباب سنذكرها فيما بعد .

---

(١) معجم الأدباء ج ١٤ ص ١٦٦ ، ١٦٨ ووفيات الأعيان ج ١ ص ٤٤٦ .

(٢) تحرك الثابت المتمكن فى جلسته .

(٣) شمام جبل فى باهلة .

(٤) الذخيرة ق ١ ج ١ ص ٣٥٨ .

ولكن هناك صديقا رابعا ترك فى حياة شاعرنا أعمق الآثار ، وهو الوزير ابو عامر بن عبدوس ، وما كنا لنعده رابع الأصدقاء لولا أن الشاعر ذكر ذلك حيث يقول فى عتابه من قصيدة طويلة (١) :

أبا عامر : أين ذاك الوفاء ؟
اذ العيش وسنان والدهر غض (٢)
واين الذى كنت تعتد من
مصادقتى الواجب المفترض
أين لى ألم أضطلع ناهضا
بأعباء برك فيمن نهض ؟ (٣)

وان كان هذا العتاب قد تطور الى هجاء مقذع بسبب التنافس بين الصديقين على حب ولادة بنت المستكفى ، وسنعرض لهذا الحديث فى حينه .

وهنا نشاهد صداقة تطورت الى عداء سافر لعله من الأسباب القوية التى ألقت بالشاعر فى غيابة السجن ، ثم حملته أخيرا على اللجوء من قرطبة الى أشبيلية فى بلاط بنى عباد .

والدارس للديوان يجده حافلا بالاشارات الى صداقات عديدة من الأدباء والزعماء المرموقين أمثال أبى بكر بن الطبنى وهو أديب شاعر من أسرة علم وأدب وجلال ، والوزير أبى بكر ابن القصيرة الكاتب الشهير والشاعر الكاتب الوزير أبى حفص احمد بن برد والأديب المعروف أبى طالب محمد بن مكى صاحب الشرطة والسوق والأحباس والوزير الكبير أبى عامر بن مسلمة صاحب كتاب الارتياح فى حقيقة الراح والكاتب الشاعر الوزير محمد بن مروان بن عبد العزيز وغيرهم (٤) ممن لا يتسع لذكرهم المجال .

---

(١) الديوان ٥٨٢ - ٥٨٩ .

(٢) وسنان : نائم المراد غافل عن الاساءة ، غض طرى .

(٣) اضطلع بالعبء نهض به .

(٤) أشرنا اليهم وعرفنا بهم فى « ديوان ابن زيدون ورسائله » الذى حققناه ص ٧٨٧ - ٧٩٤ .

الفصل الثانى

أحداث عاصفة

ما كاد الشاعر يبلغ العشرين حتى دفعته العواصف السياسية دفعا الى الاسهام فيها لأن مكانته ومكانة أسرته ومطامحه كانت تستدعى هذه المشاركة . ولقد تعرض سكان قرطبة لأزمات عنيفة ولمعارك حربية مدمرة ، وأصبح سكانها لا يأمنون على حياتهم ولا على أموالهم ولا أعراضهم فقد احتلها البربر فترة من الزمان فتكوا فيها بأهلها فتكا ذريعا ، كما احتلها المسيحيون ومثلوا بأهلها تمثيلا شنيعا ، فضلا عن بنى حمود وفلول بنى أمية الذين كانوا يتنازعونها كالكرة بينهم ؛ هذا الى جانب الثورات العنيفة التى قام بها السكان ضد الطغاة من الحكام .

ومما لا شك فيه ان الشاعر شهد الثورات الآتية ومن المرجح انه أسهم فيها بنصيب :

أولا – ثورة أهل قرطبة على القاسم بن حمود وطردهم له سنة ٤١٣ هـ .

ثانيا – ثورتهم على الخليفة المستظهر بالله الأموى وفتكهم به سنة ٤١٤ هـ .

ثالثا – ثورتهم ضد الخليفة المستكفى بالله وعزله ونفيه سنة ٤١٦ هـ .

رابعا – ثورتهم ضد البربر واسقاطهم حكم العلويين من بنى حمود وارجاعهم الأمر للأمويين سنة ٤١٨ هـ .

خامسا – ثورتهم ضد الخليفة المعتد بالله واسقاطهم الخلافة

الأموية لآخر مرة ونفيهم آخر خلفائها المعتد بالله ونفيهم أمية الذى شاء أن يخلعه ويتمسك لأسرته بالخلافة سنة ٤٢٢ هـ .

ويقرر كور ان الشاعر أسهم بنصيب كبير فى النضال على الحكم الأموى واعانه على هذا نسبه ومكانة أسرته (١) ونرجح أن شاعرنا كان من ابرز الزعماء فى قيام وتشييد الحكم الجهورى بزعامة أبى الحزم بن جهور ، والى هذا يشير لفتح بن خاقان بقوله عنه انه : « زعيم الفئة القرطبية ونشأة الدولة الجهورية » ويقرر ابن دجنة انه « زعيم الوزارة القرطبية ونشأة دولتها السنية » ونحن نعلم ان ابن جهور كان يتظاهر بالزهد فى ولاية الحكم وأنه كان يخشى مغبة التسرع فى قبوله واثقا بأن الحكم هو الذى يسعى اليه فى الوقت المناسب ، فلما سعى اليه الحكم رفضه أولا ، فلما ألح عليه أهل قرطبة فى ذلك قبل مباشرة السلطان الى أن تستقر الأوضاع ويختار الجمهور من يحل محله ، وطلب أن يعين الى جواره مجلس شورى خاص ، واذا سئل فى أمر قال : ليس لى منع ولا عطاء ، هو للجماعة وأنا أمينهم (٢) ونعلم أيضا انه أبى الانتقال من بيته الى دار الامارة تظاهرا بالزهد فيها ، وفى هذه الحالة لابد له من لسان يذيع فضائله وينشر محاسنه ويدعو الجمهور الى الاستمساك به ، وخير لسان يجيد هذا التوجيه هو ابن زيدون ؛ ولعله يشير الى هذا فى رسالته الجدية وهو بالسجن مذكرا ابن جهور بمواقفه فى نصرته والاشادة به حيث يقول : « وهل لبس الصبح الا بردا طرزته بفضائلك وتقلدت الجوزاء الا عقدا فصلته بمآثرك واستملى الربيع الا ثناء ملأته من محاسنك وبث المسك الا حديثا أذعته فى محامدك » (٣) ويتساءل فى دهشة « ففيم عبث الجفاء بأذمتى ؟ (٤) وعاث العقوق فى مودتى ؟ وتمكن الضياع

---

(١) The Encyolopaedia of Islam 2. P 429

(٢) البيان المغرب جـ ٣ ص ١٨٦ .

(٣) الديوان ص ٧٠١ .

(٤) الأذمة : الحرمات مفردها ذمام .

من وسائلى ؟ » (١) ويشير بمثل هذا فى قصيدة وجهها اليه من سجنه :

لى فى اعتمادك بالتأميل سابقة
وهجرة فى الهوى أولى من الهجر

ففيم غضت همومى من علا هممى
وحاص بى مطلبى عن وجهة الظفر ؟(٢)

والواقع أن صلات الشاعر كانت وثيقة متينة بزعماء بلده ولا شك أن الأمير استفاد من لسان الشاعر ومواهبه ومكانته ومكانة أسرته ، وقد كافأه ابن جهور على هذا بأن ولاه وزارته ووثق به واعتمد عليه فى السفارة بينه وبين ملوك الطوائف فاستقل بهذا العبء وأداه خير أداء ، والى هذا يشير ابن دجنة بقوله : « وكان ابن زيدون زعيم الوزارة القرطبية ، ونشأة دولتها السنية حتى صار ملهج لسانها ، وحل من عينها مكان انسانها » (٣) ويقرر نيكلسون ان الشاعر اصبح وكيلا موثوقا به لابن جهور الرئيس الحاكم بقرطبة (٤) ويقول ابن بسام : « ان ابن جهور قدمه للنظر على بعض أهل الذمة لبعض الأمور المعترضة ، وقصره بعد على مكانه من الخاصة ، والسفارة بينه وبين الرؤساء فأحسن التصرف فى ذلك وغلب على قلوب الملوك » (٥) ومن هذا النص وغيره يتضح أن الشاعر ولى المناصب الآتية .

١ ــ الوزير الأول لابن جهور ، وكان ابن جهور نفسه يتلقب بهذا اللقب فى بدء حكمه ومدحه شاعرنا بهذا اللقب .

٢ ــ المشرف على شئون اهل الذمة من يهود ونصارى وهو منصب مؤقت استدعته حالة طارئة .

---

(١) الديوان ص ٦٩٨ .

(٢) الديوان ص ٢٥٩ حاص : مال وحاد .

(٣) المطرب لوحة ١٢٧ .

(٤) A Literary History of the Arabs .P 424

(٥) الذخيرة ق ١ جـ ١ ص ٢٩٠ .

٣ ـ السفارة لابن جهور عند ملوك الطوائف وقد نجح الشاعر فيما عهد به اليه الأمير وبخاصة فى السفارة ، يدل على هذا قول ابن بسام « فأحسن السفارة وغلب على قلوب الملوك » فازدادت الصلات توثقا بين الأمير والشاعر وفى هذا يقول ابن دحية « وكان بينه وبين رئيسها الحسيب أبى الحزم بن جهور ائتلاف الفرقدين واتصال الأذن بالعين » (١) ولحسن براعته ولباقته فى السفارة ولاه شئونها أبو الوليد بن جهور حينما ولى الأمر بعد أبيه ويشير الصفدى الى اعجاب الملوك بهذا السفير الفصيح الوسيم اللبق حيث يقول « فأعجب به القوم وتمنوا ميله اليهم لبراعته وحسن سيرته » (٢) .

ولقد حدثنا الشاعر عن احدى هذه السفارات حيث أوفده أبو الحزم بن جهور مصحوبا بابنه أبى الوليد بن جهور الى الأمير باديس حاكم البربر بغرناطة ليعقدا معه معاهدة دفاعية ضد أطماع بنى عباد ، وقد نجح الشاعر فى وفادته نجاحا كبيرا ومدح باديس ومدح ابن جهور بقصيدة بارعة ، وتتجلى لباقته وكياسته فى أنه لم ينسب النجاح لنفسه وانما نسبه الى ولى العهد الذى رافقه يقول منها ـ :

فداء لباديس النفوس ، وجـــاده
من الشكر فى أفق الوفاء غمـــام

ومثلك والى مثـــله فتصـــافيا
كما صافت المـــاء القراح مـــدام

ثم يتحدث عن ولى العهد وتوفيقه فى السفارة قائلا :

لعمرى لقـــد أحظيته بوفـــادة
لأسنى كريم أنجبتــــه كرام

---

(١) المطرب لوحة ١٢٧ ، والفرقد هـو النجم القطبى وبقـربه نجم آخر مماثل له وأصغر منه ، وهما الفرقدان .

(٢) الوافى بالوفيات جـ ١ ص ٢٧١ .

فما ابنـك الا عدل نفسك : ان يسر
فللجسم لا للنفس منـك مقام (١)

حسامك مهمـا تخترطه لشـلها
فقل غناء السيف حين يشـام (٢)

واذا كانت هذه هى منزلة الشاعر من الأمير فما الذى أفسد الصلات بينهما حتى وصل الأمر الى القطيعة والى أن غضب الأمير على الشاعر فتلمس الأسباب التى أعانته على القائه بالسجن لأمد غير محدود؟ والى العنف عليه فى السجن عنفا بالغا صوره لنا الشاعر فى رسالته البكرية أروع تصوير ؟ ان المصادر التى بين أيدينا لم تذكر الأسباب التى أفسدت الوضع بين الشاعر والأمير ، وانما أشارت اشارات مبهمة نستطيع أن نستوحيها وان نقرنها بالأحداث الجارية وأن نضم اليها ما جهر به الشاعر من شكاة ؛ وفى ضوء هذا كله نستطيع أن نرسم صورة صادقة لأسباب هذا الجفاء ، وان كانت تعوزها التفاصيل ــ هذه الصورة ترتكز على الأحداث التالية ــ :

أولا ــ كان الشاعر ــ فى فورة شبابه وحدة اعتزازه بنفسه وبحسبه ونسبه وبمكانته الأدبية ــ يشعر انه صاحب الفضل الأول فى قيام هذه الدولة ولعله كان يطمع أن يجمع زمام الأمر كله فى يديه وأن يقوم مقام الحاجب للأمير . ولكن أبا الحزم بن جهور كان حازما بعيد النظر يمسك بأزمة الأمور جميعها فى يديه وان كان يتظاهر بالزهد فى السلطان ، فلم يرض الشاعر عن نصيبه فى الحكم وعبر عن هذا بقوله :

ابائى فى جواركم الذليـــل
وحدى فى رجائكم الكليـــل

---

(١) العدل : المماثل والنظير .

(٢) والمعنى أن ابنك مثل نفسك ، وحيثما سارفقليك معه ــ تخترطه : نسله ، شام الشىء : تطلع اليـه ، والمعنى أن ابنك يغنى فى هـذه المواقف مالا تغنيه السيوف ؛ الديوان ص ٣٣٦ ، ٣٣٧ .

نصيب من ولايتكم كثـــــير وحظ من رعايتكم قليـــل (١)
وأعجب حـــادث نظرى لديكم الى غلل النجاح وبى غليل (٢)

ثم يختمها بقوله :

أيأس من مساعفة الليـــالى وأنت الى نهايتها سبيل ؟ (٣)

ويردد هذا فى قوله « الديوان ص ٢٥٧ » — :

حرمت منه وحظ الناس كلهمو لهـذه العبرة الكبرى من العبر
أحين رف على الآفاق من أدبى غرس له من جناه أطيب الثمر

ثانيا — من الطبيعى وقد برز الشاعر فى بهائه وجلاله ومنصبه ومكانته أن يكثر منافسوه والحاقدون عليه ، ومن الطبيعى أن يحملهم الحقد على تدبير المكايد وحوك الوسائس والقاء التهم ، وقد أشار الشاعر الى هذا بقوله فى الرسالة الجدية : «ولا ذنب الا تميمة أهداها كاشح ، ونبأ جاء به فاسق ، وهم الهمازون المشــاءون بنميم والواشون الذين لا يلبثون أن يصدعوا العصا والغواة الذين لا يتركون اديما صــميما والســعاة الذين ذكرهم الأحنف بن قيس فقال : (ما ظنك بقوم الصدق محمود الا منهم (٤) .. » ويقول فى مدح ابن جهور من قصيدة طويلة مهنئا اياه بالعيد :

---

(١) المعنى أمنحكم من موالاتى ومودتى الكثير ولكن حظى من رعايتكم قليل .

(٢) الغلل : الماء الكثير ، الغليل : العطش .

(٣) الديوان ص ٣٣٢ — ٣٣٤ .

(٤) الكاشح : الذى يضمر العداء ، الهمازون : الطعانون فى الأعراض ، صدع العصا : شق الألفة وتفريق الجماعة ، الغواه : الضالون ، اديما : جلدا والمقصود عرضاه الديوان ٦٩٥ ، ٦٩٦ .

كان الوشـــــاة وقد منيت بافكهم
أسباط يعقوب وكنت الذيبـــــا

انا سيفك الصدىء الذى مهما تشأ
تعـــد الصقال اليـــه والذريبا (١)

ومن هنا يتضح ان الشاعر أحس بالمكايد تنصب حوله والشباك تعد لاقتناصه فحاول تفاديها ، ولكن القدر غالب والقضاء نافذ ولقد كان للشاعر منافسون أقوياء فى المناصب السياسية كما كان له منافسون أقوياء فى حب ولادة بنت الخليفة المستكفى الأميرة الجميلة الشاعرة زهرة قرطبة فى ذلك الحين .

ثالثا ـ مما كان يثير الشاعر ويحز فى نفسه أن يجـــد الملوك الآخرون يتمنون جذبه اليهم ويسعدون بقربه منهم ، ويحرصون على أن يزينوا بلاطهم بأدبه وأن يدعموا ملكهم بمهارته السياسية ولباقته اللسانية وأن يفخروا على الملأ بمدائحه الشعرية ، وهـذه المزايا كلها تقابل فى قرطبة بالفتور وهو يخلع على بنى جهور مدائحه الخالدة ويتفانى فى ارضائهم ، وهم يقدمون عليه من هم دونه فى المواهب والوفاء فيهتف بهم فى عجب :

اتحيا أنفس الآمــــــال فيكم — ولى أثنـــــاءها امل قتيـــــل
وقدحى فى ودادكم معـــــلى — وباعى فى اعتمادكم طويل (٢)
وكائن لى ثنـــــــاء راح يثنى — اليه العطف مجدكم الأثيل (٣)

---

(١) الديوان ص ٣٢٤ ـ ٣٢١ الصـقال : الجـلاء ، التدريب التحـديد والارهاف .

(٢) القدح : السهم ، المعلى : أوفر الأسهم نصيبا فى الميسر .

(٣) كائن : كم الخبرية ، العطف : الجانب ، الأثيل : الأصيل .

تنافسه الرياض منـــــورات

تنفس عن نوافجها الأصيل (١)

ولم ينس الشاعر وهو فى سجنه أن يكتب الى الأمير ملتمسا عفوه والا هجره الى غـيره ممن يحفظون قدره ويعرفون مكانته ويغلون ما أرخص الأمير منه :

فان تمن لى منـــــك الأمانى فشــيمة

لذاك الفعال القصد ، والخلق الرسل (٢)

والا جنيت الأنس من وحشة النـــوى

وهـــول السرى بين المطية والرحـــل

سيعنى بما ضـــــــيعت منى حافظ

ويغلى لمـا أرخصت من خطرى مغلى (٣)

رابعا ـ بالغ الشاعر فى الاعتزاز بنفسه مبالغة خرجت به الى العجب والتيه ؛ والحكام لا يطيقون هذا من أقرب النـــاس اليهم بل أن كثيرين من الملوك يغضبون على الشعراء اذا بالغوا فى مدح غيرهم وكتب الأدب العربى حافلة بهذا الاتجاه فما بالك بمن يظهر أمامهم بمظهر العزة والافتخار ، والشاعر لا يدع هذا حتى فى سجنه فهو يقول فيه :

لعمر الليـــالى ان يكن طال نزعها

لقد قرطست بالنبل فى موضع النبل (٤)

تحلت بآدابى ، وان مـــــآربى

لسانحة فى عرض أمنيـــة عطل (٥)

---

(١) الديوان ص ٣٣٢ ، ٣٣٣ والنافجة وعاء المسك .

(٢) تمن : تقدر ، الفعال : الكرم ، القصد : العدل ؛ الرسل : الرقيق .

(٣) الديوان ص ٢٧٢ ، ٢٧٣ .

(٤) لعمر الليالى : وحق الليالى ، النزع : جذب وتر القوس ، قرطست اصابت ، النبل : السهام ، النبل : الفضل والمروءة .

(٥) تزينت الدنيا بآدابى ولكنها حرمتنى آمالى .

ولو اننى أستطيع كى أرضى العـــدا
شريت ببعض العلم حظا من الجهل

جواد اذا استن الجيـــاد الى مدى
تمطر فاستولى على أمد الخصل (١)

ثوى صافنا فى مربط الهون يشتكى
بتصهاله ما ناله من أذى الشكل (٢)

ثم يردد هذا المعنى فى قصائد أخرى مثل قوله فى قصيدة أرسلها الى أستاذه أبى بكر مسلم بن أحمد بعد فراره من سجنه يسأله الوساطة فى العفو عنه :

ألا هل أتى الفتيـــــــان ان فتاهم
فريسة من يعدو ، ونهزة من يسطو (٣)

وأن الحسام العضب ثاو بجفنـــــه
وما ذم من غربيه قد ولا قط (٤)

فهو فتى الفتيان وهو الحسام المرهف الحد ولكنه يلقى مع هذا سوء الجزاء ، وهو يعلل هذا فى رسالته لأستاذه أبى بكر فيقول : « ولم أستغرب أن أسام مثل هذا الخسف فى مسقط رأسى (٥) ومعق تمائمى (٦) وأول أرض مس جلدى ترابها فقديما ضاع المرء

---

(١) استنت الجياد : تسابقت ، مدى ، غاية ، تمطر : أسرع ، الخصل : الهـــدف .

(٢) صافنا قائما على ثلاث ، والرابعة على طرف الحافر ، الهون : الذل ، الشكل : القيد ــ الديوان ص ٢٦٣ ، ٢٦٧ .

(٣) يعدو : يعتدى ، نهزة : فرصة ، يسطو : يهجم .

(٤) العضب : القاطع ، غربيه : حديه قد : قطع طولى ، قط : قطع عرضى الديوان ص ٢٨٧ ، ٢٨٨ .

(٥) أسامة الخسف : اذله وأهانه ، مسقط رأسى : موضع ولادتى .

(٦) معق التمائم : موضع شق التعاويذ التى تعلق على الأطفال ، وقطعها ايذان بانتهاء الطفولة .

الفاضل فى وطنه ، وكسد العلق الغبيط (١) فى معدنه قال بعضهم :

أضيع فى معشرى ، وكم بلد
يعود عود الكباء من حطبه (٢)

واذا كان للشاعر عذره فى الشكوى من الاهمال وفى الاشادة بمواهبه فللأمير عذره فى ضيقه بهذه النغمة التى لا تستريح اليها مسامع الحكام والأمراء .

خامسا — كان الشاعر والأمير فى طباعهما على طرفى نقيض فكان من الطبيعى أن تتصادم الطبيعتان المتنافرتان ، ويتجلى هذا التنافر فى المظاهر الآتية :

١ — كان الأمير متواضعا ، وكان الشاعر مغرورا « ذهب به العجب كل مذهب وهون عنده كل مطلب » كما يقول ابن الأبار (٣) .

٢ — كان الأمير يتظاهر بالزهد فى السلطان ، والشاعر كان دائم الالحاح فى طلب السلطان « حتى طلب طلبا أصاره الى الاعتقال ، وقصره عن الوخد والارقال » (٤) كما يقول ابن دحية (٥) .

٣ — كان الأمير وقورا متزمتا ، والشاعر كان مندفعا مستهترا يلهو ويعاقر الراح ويذهب مع الحب كل مذهب .

٤ — وكان الأمير متمسكا بالدين حريصا على الدراسة العلمية والشاعر كان متساهلا يهيم مع الشعراء فى كل واد .

٥ — هذا الى ما بينهما من فارق السن فالأمير يكبره بثلاثين عاما (٦) .

---

(١) العلق الغبيط : النفيس المطمئن .

(٢) الكباء : عود البخور الديوان ص ٧٣٨ ، ٧٣٩ .

(٣) اعتاب الكتاب ص ٧٦ ، ٧٧ .

(٤) وخد البعير : رمى بقوائمه مثل مشى النعام وأرقل : أسرع ، والمراد أحله السجن وكفه عن الحركة .

(٥) المطرب لوحة ١٢٨ .

(٦) الصلة ص ١٣٣ .

هذا التنـافر فى الطباع أوهى ما بين الاثنين من علاقات وزاد الأمر سوءا اندفاع الشاعر فى اعتزازه وادلاله بنفسه ، وتورطه فى حب ولادة تورطا أفسد عليه أمره وجلب عليه خصومة الكثيرين ، هذا الى جانب أقاويل الوشاة ومكايد الحساد . ولكن هذه العوامل كلها ان استدعت الجفوة فانها لم تكن تستدعى الانتقام والقاء الشاعر فى غيابة السجون على يدى رجل مشهور بالتدين والتزام العدل فى الأحكام مثل ابن جهور ، فلابد من سبب قوى يستدعى هذا العقاب فما هو السبب ؟

هناك من الشواهد ما يوحى بأن الشاعر ضاق بتصرفات الأمير معه فهجاه وأفحش فى الهجاء كما يفعل فى مثل هذا الموقف كثير من الشعراء ، أو لعل أعداء الشاعر دسوا عليه هذه التهمة ونحلوه هذا الهجاء ، وفى كلام الشاعر ما يؤيد هذا الاتجاه ، فهو يقول فى قصيدة الاستعطاف التى وجهها الى الأمير من سجنه :

وانى لتنهـانى نهـاى عن التى
أشاد بها الواشى ويعقلنى عقلى (١)

أأنكث فيك المدح من بعـد قـوة
ولا اقتدى الا بناقضة الغـزل (٢)

وما كنت بالمهدى الى السؤدد الخنـا
ولا بالمسىء القول فى الحسن الفعل(٣)

واذا صدق ما قاله ابن زيدون فى بنى جهور فانه أقرب الى العتاب منه الى الهجاء حيث يقول ـ :

---

(١) النهى : العقل ، يعقل : يمنع .

(٢) انكث : احل ما فتلته ؛ ناقضة الغزل : ربطة بنت عمر وكانت خرقاء تحل ما غزلته فضرب بها المثل .

(٣) السؤدد : المجد والسيادة الديوان ص ٢٦٩ ، ٢٧٠ .

بنى جهـــــــور أحرقتمو بجفائكم
ضميرى ، فما بال المدائح تعبق (١)

تعدوننى كالمنـــــــدل الرطب انما
تطيب لكم أنفاســه حين يحرق (٢)

أما قوله فى ابن جهور — :

قل للوزير وقد قطعت بمدحه
زمنى فكان السجن منه ثوابى

لا تخش لائمنى بما قد جئته
من ذاك فى ، ولا توق عتــابى

لم تخط فى أمرى الصواب موفقا
هذا جزاء الشاعر الكذاب (٣)

فالأبيات تدل على انه قالها بعد سجنه ، فلم تكن هى ســببا فى هذا السجن وانما كانت نتيجة له ، والشاعر أقرب الى أن يهجو نفسه فى هذه الأبيات ، وان كان لا يليق به أن يقرر ان ما وصف به الأمير من محامد ومكارم غير صحيح . ولكنها نفثة مصدور لقى سوء الجزاء .

وقد نفى الشاعر عن نفسه هذه التهمة مرارا ، ولم يقم عليها دليل قاطع ، وأصحاب الجاه والمناصب لا تهدر كراماتهم بمجرد الاتهام .

ونخرج من هذا بأن ذلك الاتهام ليس هـــو السبب الرئيسى فيما تعرض له الشاعر من اذلال .

وهناك من الشواهد أيضا ما يوحى بأن هذا السبب كان ناشئا من تعلق الشاعر بحب ولادة واستهتاره فى هذا الغرام اســتهتارا

(١) تعبق : تفوح .
(٢) المندل : عود يستعمل فى البخور طيب الرائحة الديوان ص ٥٩٠ .
(٣) الديوان ص ٥٩١ .

لا يليق بما يشغله الشاعر من مناصب ولكننا نعود فنقول ان جميع الشعراء او معظمهم يلهجون بالحب ويتدلهون بالهيـــام حتى فى مستهل مدائحهم الجادة ، وهذا العصر كان يألف مثل هذا الاتجاه أو أكثر منه حتى من الفقهاء الأجلاء .

ثم ان الوزير ابن عبدوس اشتهر بحب هذه الأميرة الحسناء كما حام حولها كثير من العظماء فلماذا تعرض ابن زيدون وحده للمحنة بسبب هذا الهيام .

ولما تقدم نستبعد أن تكون هذه العاطفة المشبوبة هى السبب الرئيسى فيما حاق بالشاعر من الهوان . لابد من سبب رئيسى محا جميع حسنات ابن زيدون وحولها الى سيئات .

ولا نجد فيما استعرضناه من أحداث التاريخ ما يغضب الملوك ويثير ثائرتهم مثل التآمر عليهم وبخاصة من المقربين اليهم والمتصلين بهم من الزعماء .

وهذا هو السبب الأصيل فى هذه النكبة كما نرجحه ، ونستطيع ان نبنى أسس الترجيح على ما يلى : —

ان ابن زيدون المعتز بمواهبه المزهو بمكانه المفتون بشبابه وماله وجاهه الفخور بأنه أسقط دولة وأقام دولة يأبى أن ينام على الضيم أو يقبل الذلة والهوان أو يرضى بأن يرى من هم أقل منه شأنا يحظون باقبال الأمير عليهم دونه والاســـتماع الى آرائهم والاعتزاز بهم ؛ ألا يجول بخاطر هذا الشاعر أن يفكر فى اســقاط الدولة الجديدة واقامة دولة أخرى يكون هو فيها صاحب الأمر والنهى ان لم يكن صاحب التاج ؟ ان هذا أمر متوقع منه وان كانت دونه عقبات وعقبات ؛ ولكننا لا نبنى حكمنا على الظنون أو الفروض وانما نبنيه على وقائع مادية ملموسة .

لم يكن ابن زيدون وحده هو الذى بدأ يضيق بقيام بنى جهور بل كان هناك كثيرون فى الداخل والخارج يضيقون بهم ويرون أنهم تسرعوا فى اقامة هذه الدولة دون أن ترتكز على أساس متين ، أنهم

عادوا يتذكرون أمجاد الخلافة الأموية ، ومكانتها المرموقة وسلطانها العظيم الذى ضم شمل جميع الولايات الأندلسية وأرهب أعداءها الألداء من مسيحيى الشمال ومن خلفهم . وأخاف دعاة الفاطمية وأزعج القبائل البربرية ، ويرون كيف انفرط العقد وتبدد الشمل وانهار البناء ، وشرعوا يفكرون ويطيلون التفكير فلا يجدون صلاحا للحال الا برجوع الخلافة الأموية قوية الجانب مرهوبة السلطان على أن يلى الخـــلافة خليفة شرعى يجمع على تقديمه الجميع ؛ والخليفة الشرعى الذى لا يمارى أحد فى أحقيته الشرعية للخلافة هو هشام بن الحكم الذى حجبه الحاجب المنصور وابناه واغتصب حقه آخرون كالمهدى والمستعين والمستكفى والمستظهر والمعتـــد بالله فى أيام الفتن والاضطرابات العنيفة التى مزقت الأندلس فى مستهل القرن الخامس ، فاذا كان هذا الخليفة هشام بن الحكم موجودا فهو أحق الناس وأولاهم بالتقديم ــ آمن بهذا الرأى كثيرون فى قرطبة وفى غيرها من الأقاليم ، الى أن ظهرت أسطورة هشام فاســتغلها القاضى أبو القاسم بن عبـــاد ، واستدعى اليه شبيهه هشام من قلعة رباح وأنزله بقصره وادعى لنفسه حجابته ثم ورثه فى هذه الحجابة وفى هذا الادعاء ابنه المعتضد بن عباد ، واستدعى اليه نساء هشام وحاشيته المقربة وانتزع من الجميع شــــهادة تثبت شخصية هشام وأنه الخليفة المفقود (١) ، ولقد لقيت هـــذه الدعوة آذانا مصغية وقلوبا صاغية فى عـــــدد كبير من الامارات وبخاصة فى قرطبة مما اضطر ابن جهور الى أن يستجيب لهـــذه الدعوة على مضض الى حين وقد أشرنا الى هـــذا فيما سبق ، كما استجابت لهذه الدعوة بعض الامارات . فماذا كان موقف شاعرنا من هذا الاتجاه ؟ لا نحتاج الى عناء كبير فى تقرير ان شاعرنا كان فى مقدمة الداعين لخلافة هشام ، وانه وجدها فرصة سانحة للتخلص من بنى جهور ولاقامة حكم مستقر فى جميع الامــــارات ويؤيد هذا الاتجاه المبررات الآتية ــ :

---

(١) أشرنا الى قصة هشام ص ٥٩ ، ٦٠ ، ٦٢ فى هذا البحث .

١ ــ كان والد الشاعر وصديق هذا الوالد أبو العباس بن ذكوان من أشياع بنى أمية ، ويظهر أن الشاعر وصديقه أبا بكر بن ذكوان ورثا عن والديهما هذا الاتجاه ، ولعل عزل أبى بكر من ولاية القضاء يمت الى هذا السبب بنصيب .

٢ ــ ظفرت دعوة هشام باهتمام كبير من البربر (١) ، ونحن نعلم ان الشاعر وصديقه ورثا عن والديهما هذه الميول .

٣ ــ وقع الشاعر فى حب فتاة كريمة من زهرات البيت الأموى وترك هذا الحب فى نفسه أعمق الآثار وبخاصة بعد أن خاب أمله فى الحكم الجديد ولقى منه العقوق والجفاء .

٤ ــ ان بذور الدعوة الأموية ظلت كامنة فى النفوس تحاول الظهور حينا بعد حين ، ولقد حاول الخليفة المعتد بالله أن يعود الى قرطبة بعد نفيه منها كما حاول أمية الذى يدعى انه صاحب الحق فى الخلافة أن يعود اليها سنة ٤٢٥ هـ ليطالب بحقه المزعوم .

٥ ــ تهيأت جيوش بنى عباد لاقتحام قرطبة والعـــودة اليها بهشام ، لولا أن أفسد عليهم بنو جهور هذا التدبير (٢) .

٦ ــ ظلت أمجاد الأمويين تشغل ذهن الشاعر فترة طويلة حتى ألف كتابا فى تاريخهم بالأندلس سماه « التبيين » وقد ضاع هذا الكتاب ، ولعله قصد أن يبين فيه أمجاد الأمويين ويدعو الى استعادة حكمهم العظيم .

٧ ــ ان الشاعر حينما فر من قرطبة اتجه الى اشبيلية فتلقاه حاكمها المعتضد بالتكريم والترحيب ونحن نعلم ان المعتضد هو القائم بدعوة هشام وهو الذى أدعى حجابته كما ادعى أنه ولاه العهد من بعده ؛ ومن هذا يتضح سر اتجاه ابن زيدون الى اشبيلية ذاتها ويتضح سر الحفاوة التى غمره بها ابن عباد .

---

(١) ملوك الطوائف ص ٣٥ .

(٢) ابن خلدون جـ ٤ ص ١٥٩ .

[illegible] من ذوي المكانة المرموقة فروا الى

اشبيلية لتأييد الدعوة الهشامية منهم أبو مروان عبيد الله بن أحمد (١)

والشاعر الأديب أبو عامر بن مسلمة (٢) وأبو بكر عبد الله القرشي

التميمي (٣) احد كبار المغنين بقرطبة وكان أبو عامر بن مسلمة هو

الوسيط بين شاعرنا وبين المعتضد بن عباد ، وبين أيدينا رسالة

كتبها الشاعر الى صديقه أبي عامر في شأن هذه الوساطة .

ويزكي هذا الرأي أن دعوة هشام لقيت اعتراضا [illegible]

أولا ثم لقيت رفضا باتا بعد ذلك سنة ٤٣١ وأن بني عباد حاولوا

اقتحام قرطبة وسقطت في أيديهم بعض أرباضها ولولا كراهية

البربر لهم وصدهم اياهم عن قرطبة لسقطت في أيديهم (٤) ومن هذا

الوقت اشتد ابن جهور في رفض دعوة هشام ومطاردة أنصاره ،

« ونقض بيعته وسبه وسب من سببه » (٥) ويروي أشياخ أن هذه

الدعوة أثارت في قرطبة قلاقل وثورات ضد حكم ابن جهور وأنه

[illegible] وقعت محنة

ابن زيدون [illegible]

[illegible] الى

[illegible]

[illegible]

يبرىء نفسه من تهمة الدعوة الى هشام لأن هذه التهمة لم توجه

اليه [illegible] الأمير [illegible] فترة [illegible] هذا الادعاء هو وغيره من

الزعماء ، وفى هذا يقول الشاعر :

(١) ترتيب المدارك ج٢ [illegible]

(٢) الذخيرة ق ٢ ص٥٧ [illegible]

(٣) ترتيب المدارك ١٤٩/٢ .

(٤) البيان المغرب ٢٠١/٣ ، ٢٠٢ .

(٥) المصدر السابق تاريخ الاندلس في عهد المرابطين والموحدين [illegible] .

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] «الأمير» وهو [illegible]

ذنوبا جنى كبائرها سواى وهو يلمح أن الأمير ممن شارك فى هذه الكبائر ، واذا كان الشاعر قد شارك ذوى الرأى فى هذه الذنوب المزعومة فله عذره لأنه – وهو شاب – تابع فيها أشياخه من قادة الرأى العام :

هبنى جنيت فكان الجهـــــل سيئة
لا عذر منها سوى أنى من البشر (٢)

ثم يقول :

ومثلى قد تهفـــــو به نشوة الصبا
ومثلك قد يعفو وما لك من مثل (٣)

والواقع أن الشاعر بوغت بهذا الاتهام :

حوادث استعرضتنى ما نذرت بهــا
غرارة ثم نالتنى على غـــــــرر (٥)

واذا كان الشاعر لقد استجاب لدعوة هشام فانه لم يتآمر على حياة أو سلطان بنى جهور لأنه لا يرى فى الاستجابة لهذه الدعوة اساءة الى ابن جهور الذى قبل الحكم مؤقتا حتى يجمع الناس على

(١) الأوزار : الأعباء الثقيلة ، الوزر : الظهر والمعن .

(٢) الديوان ص ٢٥٥

(٣) الديوان ص ٢٦١

(٤) الديوان ص ٢٦٩ .

(٥) استعرض القائد القوم : قتلهم دون محاكمة أو مساءلة ، نذر به توقعه فاحترس منه على غرر : على غفلة ، الديوان ص ٢٥٤ .

أمام ويظهر أنه أشار على ابن جهور بقبول هذه الدعوة فقبلها على مضض ، وفى هذا يقول الشاعر له فى رسالته اليه : « والله ما غششتك بعد النصيحة ، ولا انحرفت عنك بعد الصاغية ولا نصبت لك بعد التشيع ولا أزمعت يأسا منك مع ضمان تكفلت به الثقة عنك وعهد أخذه حسن الظن عليك .. » (١) فالشاعر وفى لأميره ولا يمكن أن يتآمر على حياته ولا على سلطانه :

أأن زعم الواشــــون ما ليس مزعما
تعـــــذر فى نصرى وتعذر فى خذلى

ولو أننى واقعت عمـــــدا خطيئة
لما كان بدعا من ســـجاياك أن تملى

وانى لتنهـــــــانى نهاى عن التى
أشـــاد بها الواشى ويعقلنى عقلى (٢)

ثم يقول فى قصيدة أخرى :

عدا سمعه عنى واصغى الى عـــــدا
لهم فى أديمى كلما استمكنوا عط (٣)

وقد وســـمونى بالتى لست أهلها
ولم يمن أمثالى بأمثـــالها قط (٤)

وهب الشاعر قد أخطأ فان خطأه لا يخرج به عن دائرة الغفران :

هى النعل زلت به ، فهل أنت مكذب
يقيل الأعادى انها زلة الحسـل (٥)

---

(١) الديوان ص ٦٩٧ ، الصاغية : الميل الناحية أعداء العلويين والشيعة انصارهم .

(٢) تملى ترجىء العقوبة ، الديوان ص ٦٨ ، ٦٩ .

(٣) الأديم : الجلد والمقصود به العرض : عطر : تمزيق .

(٤) يمنى : يمتحن الديوان ص ٢٩٢ .

(٥) الحسل اللئيم المعنى ليس ذنبى منبعثا عن الخسة والغدر : الديوان ص ٢٧٠ .

فالخطأ ــ ان كان هناك خطأ ــ ناشيء عن قصد حسن لا عن غدر وخسة ولؤم « فكيف ولا ذنب الا نميمة أهداها كاشح ، ونبأ جاء به فاسق . . » (١) وحساد الشاعر كثيرون وصفهم فى قصيدته لصديقه أبى حفص بن برد بقوله : ــ

ما ترى فى معشـــــــــر حا
لوا عن العهـــــد وخاسوا
أذؤب هـــــــــامت بلحمى
فانتهـــــاش وانتهـــــاس
كلهم يســـــــل عن حـــــا
لى ، وللذئب اعتســـــــاس (٢)

ولكن الحاكم ان تســـاهل فى بعض الشئون فانه لايتساهل فيما يتعلق بتمكين سلطانه ، وكثيرا ما قتل بعض الملوك ابناءهم فى سبيل المحافظة على السلطان كما فعل فى الأندلس عبد الرحمن الناصر والمعتضد بن عباد ولذلك ورد فى الأمثال « الملك عقيم » أى لا ينفع فيه نسب ، وبسببه يقتل الحاكم أباه وابنه وعمه وأخاه .

هذا هو الرئيسى ــ فيما نعتقد ــ لفساد الحال بين الشـــاعر والأمير ، ولكن الأمير لا يستطيع أن يقدم الشاعر للقضاء بهذه التهمة لأنه بهذا يناقض نفسه ويكذب ما نادى به من أنه أمين للجماعة حتى تتفق على امام ، ولأنه هو نفسه أمام ضغط الرأى العـــام استجاب لدعوة هشام فترة من الزمان .

والأمير بدهائه وحنكته آثر أن يدبر سببا لنكبة الشاعر غير دعوة هشام ، وآثر أن يكون الاتهام قائما على جريمة يتولاها القضاء بعيدا عنه ، وأن تكون هذه الجريمة ماسة بأخلاق الشاعر تشوهه فى

---

(١) من الرسالة الجدية بالديوان ص ٦٩٥ .

(٢) الديوان ص ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، خاسوا : غدروا انتهاش : قضم بالأضراس : انتهاس : قضم بأطرف الأسنان ، اعتساس : تسلل فى الظلام .

نظر الجماهير ، ويكون الأمير بعيداً عن هذا الموقف كل البعد لأن القضاء يتمتع باستقلاله فى ذلك الزمان وتمهيداً لتدبير الجريمة وتلفيقها عزل قاضى قرطبة الأستاذ أبا بكر بن ذكوان لأنه قوى الشخصية متين الخلق عادل أمين لا يستجيب لايحاء الحكام ولأنه أيضا صديق حميم لابن زيدون ، واتخذ لعزله بعض الأسباب التى ضايقته وحملته على أن يعتزل هو بنفسه القضاء . ثم ولى مكانه قاضيا يستجيب لايحائه ويمقت فى الوقت نفسه ابن زيدون ؛ وبعد أن رتب أمره باحكام حمل بعض من يستجيبون له على اتهام ابن زيدون باغتصاب بعض العقار وتولى القاضى الجديد (ابن المكوى) النظر فى القضية وكانت النتيجة ما توقعه الأمير .

فاذا روجع الأمير فى هذا الشأن قال : أن القضاء حر وأنه حريص كل الحرص على ألا يتدخل فى شئون القضاء لأن دينه وخلقه لا يسمحان له بأن يعطل أحكام القضاء ولم تغب عن فطنة الشاعر بواطن الشعور ، فبكر وقدر ، فلم يجد وسيلة للتأثير فى القاضى لأنه ظالم غاشم جاهل ينفذ ما أوحى به الأمير ، فلجأ الى الأمير مستعطفا ولكن الأمير أعلن أنه لا يتدخل فى شئون القضاء لأن هذا مخالف لأحكام القانون القضائى المرتكز على تعاليم الاسلام ، ولكن الشاعر رجاه أن يتدخل شافعا لا حاكما ، والشفاعة أباها الاسلام وتوسط بعض الأصدقاء ولكن الحاكم رفض الوساطة فى عنف واصرار . ونقد صور الشاعر هذا الموقف فى الرسالة البكرية قائلا : " ودخل الى فى هذه الحال (١) [illegible] عن ابن أخى الحكم رسالة حافلة من السب الفاحش [illegible] مشتملة على الوعيد المرهب على ضروب [illegible] " (٢) [illegible] الخطر المحقق [illegible] ويتقول فى ذلك [illegible] كان اشارة اليه [illegible] من الفقهاء الموسومين بالأثرة عند الحكم المذكور والمكانة منه — وقد

(١) [illegible]

(٢) الديوان ص ٧٢٢ [illegible]

عاتبته على تأخره عن مظافرته والتطير له [illegible]
[illegible] فيه اذ المحرض على لا تتأتى
[illegible] بقوله واصفني بالخداع وعابني
بالتبسط على الأعقاب » (١) ثم نفى عن نفسه هذه التهمة قائلا :
« والله ما استجزت هذا بعد أن هتك من ستري ما هتك ، وانتهك
من حرماتي ما انتهك اذ كنت أقول به معذورا ، وانفث مصدورا ، فكيف
قبل ذلك اذ لم [illegible] الخفي
ثم ماليا ؟ » (٢) وأوصد الأمير باب التدخل فى أحكام القضاء ففتح
الشاعر باب الشفاعة لرفع الغبن الفاحش عن المغبون فقال مخاطبا
اياه فى أعقاب قصيدة طويلة :

فاشفع أكن مشـــــل محظور ببلدته
جذلان بالوطن المألوف والوطـر (٣)

وقال فى قصيدة أخرى بعد رسالة طويلة : ـ

للشفيع الثنـــــاء والحمد فى صـو
ب الحيا للرياح لا للغيـــــــــوم
وزعيم بأن يذلل لى الصـــــعـ
ب مثـابى الى الهمـام الزعيم (٤)

وقال من قصيدة طويلة مؤلمة :

وهل لك فى أن تشفع الطول شـافعا
فتنجح ميمون النقيبة أو تتـــلى

---

(١) الديوان ص ٧٤٢ .
(٢) الديوان ص ٧٤٢ ، ٧٤٣ .
(٣) الديوان ص [illegible]
(٤) الديوان ص [illegible]

منى لو تسنى عقـــــدها بيد الرضا

تيسر منها كل مستصعب الحل (١)

ولكن لا سبيل الى الرضا فى هذا المقام مما اضطر الشاعر الى الفرار من السجن بعد أن استبد به اليأس وأيقن من سوء المآل ، وسنعود الى محاكمة الشاعر وسجنه ثم فراره من السجن فى فصل تال من فصول الكتاب ، ولكننا قبل هذا سنتحدث عن حب الشاعر العنيف لأن هذا الحب كان من الأسباب الثانوية لغضب الأمير .

---

(١) الديوان ص ٢٧١ ، ٢٧٢ الطول : الاحســـان والانعـــام ، ميمون النقيبة : مبارك الشمائل ، تبلى : تبرز عذرك ، تسنى : تيسر .

الفصل الثالث

عاطفة عميقة

لعل عاطفة الحب العميقة التى ألهبت مشاعر ابن زيدون والتى ألهمته أعذب ما ردده من أغاريد الهيام لعل هذه العاطفة كانت من أسباب الجفاء بين الشاعر والأمير ، وان لم تكن السبب الرئيسى لهذا الجفاء .

لهذا كان علينا أن ندرس هذه العاطفة العاصفة التى ألهبت أحاسيس الشاعر العميقة قبل دخوله السجن وأثناء اقامته فيه وبعد فراره منه لأن هذه العاطفة القوية العميقة تركت فى نفسه أعمق الآثار كما تركت فى الأدب الأندلسى ثورة عاطفية قلما يجود بمثلها الزمان .

والشاعر كان فتى مدللا مترفا ثريا جميل الصورة حلوا ظريفا حسيبا نسيبا وصفه المطرف بن فتوح بأنه « الحلو الظريف البارع اللطيف » (١) ووصفه الساوى بأنه « فريد عصره ووحيد دهره أدبا وظرفا ورقة ولطفا »(٢) ونعته ابن بسام بأنه « فتى الآداب وعمدة الظرف »(٣) وقد علمنا أنه نال أرقى المناصب فكان وزيرا خطيرا وسفيرا عظيما وشاعرا ذائع الصيت وكاتبا مرموق المكانة وهو دون الثلاثين كما علمنا أنه كان مرهف العاطفة مشبوب الوجدان تواقا الى التمتع بالمسرات . فمن الطبيعى أن تتطلع نفسه الى التنعم بالجمال ،

---

(١) الذخيرة ق ١ ج ٢ ص ٢٨٧ ، ٢٨٨ .

(٢) الكوكب الثاقب : « مخطوط » ص ٢٧٨ .

(٣) الذخيرة « ق ١ ج ١ ص ٢٩٠ ، ٢٩١ » .

وأكثر ما يملك قلوب الشعراء ويستولى على ألبابهم الجمال البارع الفتان وبخاصة جمال ودلال وسحر النساء .

ولقد خفق قلب الشاعر بحب ولادة بنت الخليفة المستكفى الأموى ولهج بحسنها ونافسه فى حبها كثيرون من الشعراء والوزراء وأصحاب المناصب [illegible] هو الوزير أبو عامر ابن عبدوس ؛ وقبل أن نتحدث عن أطوار هذا الحب العنيف يجب أن نتعرف [illegible] فقد [illegible] ولادة [illegible]

ولادة بنت المستكفى

سلالة بيت من أعرق البيوت الملكية فى الشرق والغرب هو بيت الأمويين . وقد أطنب المؤرخون فى الحديث عن عراقة أحسابها وأنسابها وعظمة أجدادها الأولين فهى حفيدة عبد الرحمن الناصر أشهر خلفاء بنى أمية بالأندلس ، وإن كان المؤرخون قد أجمعوا أيضاً على وصف أبيها بالتخلف والضعة والانغماس فى اللذات حتى [illegible] [illegible] الأمويين [illegible] والبطالة أسير الشهوة عاهر الخلوة » (٢) وقد تزوج من أمة [illegible]

---

(١) أعمال الأعلام ج ٢ ص ٦٨ [illegible]

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ١٤٢ [illegible]

حبشية هى بنت سكرى المورورية (١) ولعلها أم ولادة وانها أم ولد اسمها حدراء (٢) ونحن نؤمن أن للوراثة أثرا كبيرا فى التكوين الجسمى والعقلى ، ونؤمن كذلك ان الوراثة لا تكون مقصورة على الابوين وحدهما بل تمتد الى عدد من الاجداد — واجداد ولادة كانوا عظماء ، ثم ان الزواج المشترك بين ابوين مختلفى الجنسية كثيرا ما ينتج نسلا ممتازا وهذا امر مشاهد بين الحيوان والنبات ويستغله العلماء فيما يسمونه بعملية التهجين ، وبهذا نستطيع ان نفسر كيف جاءت ولادة مناقضة لابيها فى كثير من الصفات ونحن نعلم أن جدتها لأبيها أم ولد كما نرجح [illegible] وكان أبوها جاهلا ساقطا ، وخرجت هى على نهاية الأدب والظرف (٣) [illegible] كريمة وما أبدته من شمائل رقيقة ، ويظهر أن اباها ترك لها [illegible] فى قصرها ندوات حافلة مزدانة بالعظماء والشعراء والأدباء ورجال العلوم والفنون فكانت تسامرهم وتساجلهم وتنقد آثارهم العلمية والأدبية والفنية « وكانت رئبة الطبع كريمة النفس [illegible] وكانت لا تترك أحدا يتصرف فى مجلسها ولا [illegible] (٤) [illegible] من [illegible] الخروج على العرف والتقاليد فقد نزعت حجابها واختلطت بالرجال وأطعمتهم بها وهو أمر غير مألوف فى البيئات الاسلامية وبخاصة بين أصحاب البيوتات العريقة [illegible] هى عن هذا الخروج هاتفة :

---

(١) Hispano Arabic Poetry P. 707 والمغرب [illegible]

(٢) البيان المغرب جـ ٣ ص ١٤٠ .

(٣) نفح الطيب [illegible]

(٤) نزهة الأبصار والأسماع ص ١٠ .

انى – وان نظـــــر الأنام لبهجتى –
كظباء مكة صيدهن حـــــــــرام
يحسبن من أنس الحديث زوانيـــا
ويصدهن عن الخنا الاســـــلام (١)

أما جمالها فكان مثار الاعجاب ومنبع وحى الأدباء والشـعراء يقول الصفدى « انها كانت نادرة زمانها ظرفا وحسنا وأدبا » (٢) ويقرر ابن بسام أنها « كانت واحدة أقرانها حسن منظر ومخبر » (٣) وقد صورها ابن زيدون فى قوله :

ربيب ملك ، كأن الله أنشـــــأه
مسكا ، وقدر انشاء الورى طينـــا
أو صاغه ورقا محضا ، وتوجـــه
من ناصع التبر ابداعا وتحسينا (٤)
كانت له الشمس ظئرا فى أكلتـــه
بل ما تجلى لها الا أحايينـــا (٥)
كأنما أنبتت فى صحن وجنتـــه
زهر الكواكب تعويذا وتزيينـــا (٦)

وليس جمالها الفتان وحده هو مصدر فتنتها وروعها بل انها تمتاز بجمال الروح وظرف الحديث ورقة الشمائل – :

له خلق عــــذب وخلق محسن
وظرف كعرف الطيب أو نشوة الخمر

---

(١) المصدر السابق ص ١١ والشطر الأول من البيتين لها والأشطر الثلاثة الباقية من شعر بشار .
(٢) تجريد الوافى لوحة ٢٥٥ .
(٣) الذخيرة ق ١ جـ ١ ص ٣٧٦ .
(٤) الورق : الفضة .
(٥) الظئر : الحاضنة .
(٦) كأنما بزغت النجوم فى صـفحة خـديه لتحفظه من الحسد الديوان ص ١٤٤ ، ١٤٥ .

يعلل نفسي من حـــــــــديث تلذه
كمثل المنى والوصل في عقب الهجر(١)

وكما امتازت بعذوبة الحديث امتازت بحضور البديهة وسعة الاطلاع ، ذكرها عبد الله بن مكي وكان معاصرا لها فأثنى على فضلها وسرعة بادرتها ونباهتها وفصاحتها وجزالة منطقها (٢) وقصتها مع ابن عبدوس تدل على خفة الروح وسرعة البديهة ، فقد « مرت يوما على داره فرأته جالسا أمام الدار وأمامه بركة متولدة من كثرة الأمطار ، فلما رأى ولادة نشر كميه ونظر في عطفيه وحشد أعوانه اليه ، فقالت له أبا عامر :

أنت الخصيب ، وهـــــــذه مصر
فتدفقا فكلاكما بحـــــــــر (٣)

فتركته لا يحير حرفا » (٤) وكانت تمتاز الى هذا بأنها تصوغ الشعر وتنقد الشعراء يقول الضبي عنها « أديبة شاعرة جزلة القول مطبوعة الشعر تغالط الشعراء (٥) وتساجل الأدباء وتفـــوق البرعاء »(٦) ويقول المقري « كانت واحدة زمانها والمشار اليها في أوانها حسنة المحاضرة مشكورة المذاكرة » (٧) ويقرر ابن نباتة « انها كانت ذات خلق جميل وأدب غض ونوادر عجيبة ونظم جيد» (٨) ويقول ابن بسام « وأما ذكاء خاطرها وحرارة نوادرها فآية من آيات فاطرها»(٩) ويذكر بدر الدين الصديقي من علماء القرن الحادي عشر

(١) عقب الهجر : عاقبته الديوان ص ١٢٣ .
(٢) الصلة ص ٦٣٢ .
(٣) البيت لأبي نواس في مدح الخصيب استشهدت به ولادة .
(٤) الذخيرة ق ١ جـ ١ ص ٣٧٨ .
(٥) مالط : قال نصف بيت وطلب من نظيره تكملته .
(٦) بغية الملتمس ص ٥٣١ .
(٧) نفح الطيب جـ ٢ ص ٥٦٣ .
(٨) سرح العيون ص ٧ .
(٩) الذخيرة ق ١ جـ ١ ص ٣٧٨ .

الهجرى انها « أجيزت بالافتاء والتدريس » (١) ولكننا نشك في هذه الرواية لأن [illegible] العصر نحو ستة قرون ولأن مناصب الإفتاء والتدريس [illegible] الاجتماعى [illegible] [illegible] تختلس القلوب والألباب ، وتعيد الشيب الى أخلاق الشباب » (٢) هذا الى علو حسبها ونسبها وثرائها ومما جذب اليها الطبقة العليا من شباب قرطبة [illegible] عليها وتوددوا اليها مأخوذين بجمالها الفتان ، وذكائها الوقاد ، وظرفها الجذاب وأطمعتهم فيها رقتها المغرية وأنوثتها المتفتحة ولينها في الحديث ودلالها في الحركات ودعاباتها المرحة اللطيفة « فتعشقها الكبراء منهم » (٣) وزادهم تعلقا بها أنها كانت مع هذا متصاونة متعففة على الرغم مما يحيط بها من عوامل الاغراء ، وفي هذا يقول ابن بسام « يعشو أهل الأدب الى ضوء غرتها ويتهالك أفراد الشعراء والكتاب على حلاوة عشرتها ، الى سهولة حجابها وكثرة منتابها تخلط ذلك بعلو نصاب وكرم أنساب وطهارة أثواب » (٤) ومما أطمع الكثيرين في التزلف اليها ما كانت تصوغه من شعر عاطفى يشبه ما نسميه الآن بالأدب المكشوف ، كتبت على عاتقي [illegible] (٥)

أنا والله أصلح للمعالي
وأمشي مشيتي وأتيه تيها

---

(١) نزهة الأبصار [illegible]

(٢) نفح الطيب ٢/٥٦٥ .

(٣) قلائد العقيان ص ٧٣ .

(٤) سرح العيون ص ٧ .

(٥) الذخيرة ق ١ ج ١ ص ٢٧٦ .

وأمكن عاشقي من صحن خدي
وأعطي قبلتي من يشتهيها

فأنشدها أحد زوارها يوما قول الشاعر:

لا يؤنسنك من مخدرة
قول تغلظه وإن جرحا
عسر النساء الى مياسرة
والصعب يركب بعد ما جمحا

فقالت الا من ولادة (١) ومن الطبيعي أن المتزمتين من علماء وفقهاء عصرها يضيقون ... خروجها على العرف المألوف ويطلقون ... ، فالمؤرخ ابن بشكوال يجهد أن يثني عليها يقول: « لم تكن لها تصاون يطابق شرفها » (٢) ويقول ابن بسام بعد أن أثنى عليها ثناء جما: « على أنها — سمح الله لها وتغمد زللها — أطرحت التحصيل، وأوجدت الى القول فيها السبيل، لقلة مبالاتها ومجاهرتها بلذاتها » ومما أخذه عليها الآخذون تعلقها بالشاعرة مهجة بنت التياني « وكانت من أجمل نساء زمانها وأخفهن روحا فعلقت بها ولادة ولزمت تأديبها الى أن صارت شاعرة فهجتها » (٣) وكانت مهجة هذه سليطة اللسان مكشوفة الوجه لا يكاد يسلم من ... أحد من الرجال أو النساء ولم تسلم ولادة من شرها فقد هجتها هجاء مقذعا.

ولولادة شعر رقيق لم يبق منه الا مقطوعات معدودة ومعظمها هجاء فاحش لابن زيدون جعل كثيرين من النقاد يشكون في نسبته اليها، ومما بقي من شعرها العاطفي ما كتبته الى ابن زيدون في وقت الصفاء: —

(٢) الصلة ص ٦٣٢ وبغية الملتمس ...

(٣) المغرب جـ ١ ورقة ٢٧٦ .

ترقب اذا جن الظـــــــلام زيارتى
فانى رأيت الليـــــــل أكتم للسر
وبى منك ما لو كان بالشمس لم تلح
وبالبدر لم يطلع وبالنجم لم يسر (١)

ولقد هام بها كثيرون منهم شاعرنا ، وأبو عبد الله بن القلاس الذى أنذره شاعرنا فانسحب مؤثرا السلامة ، وأبو عامر بن عبدوس الذى ظل يحوم حولها حتى مات وهو الذى ينبغى أن نتعرف اليه لموقفه العنيف من ابن زيدون .

أبو عامر بن عبدوس

وهو البطل الثـالث فى هـذه الدوامة العاطفية العنيفة ولولا اشتراكه فى هذه الملحمة ماعرفه التاريخ ولا التفت اليه الباحثون . ولقد رجعنـا الى مئات المصـادر الأندلسية باحثين فيها عن ابن عبدوس فما وجدنا الا بضعة أسطر وبضعة أبيات عرفنا منها أنه الوزير أبو عامر أحمـد بن جهور بن عبـدوس أشار اليه ابن الأبار فى تكملة التكملة بقوله « الأديب الكاتب من أهل قرطبة لقى القاضى يونس بن عبد الله وسمع منه بعض شعره وشعر أبيه عبد الله وأخذ عنه (٢) . سنة ٤٧٢ » (٣) وأشار اليه العمرى بأسلوبه المسجوع المبالغ فيه فقال : « وزير ما تقلد (مثله) الفلك الدوار ، ولا تفتح على مثل زهره الندى النوار ، الا أنه لم يقع لنـا من مختـار نظمه وبديع شـعره ــ على عظمته ــ أليـق بالتخليد مما أورد له ابن سعيد وهو قوله فى فرس أبيض فى غرته لمعة حمراء :

---

(١) محاسن النساء ١٠٩ ونفح الطيب ٥٦٤/٢ والذخيرة ق ١ ج ١ ص ٣٧٧ .
(٢) يبدو من السياق أن فعلا هنا سقط هو « توفى » لأن القاضى يونس ابن عبد الله توفى سنة ٤٢٩ « الصلة ص ٦٢٤ » .
(٣) تكملة التكملة ٢٥٧ .

يا حسن هـــذا الجــواد حين بدا
في شــــــــــبة لم تكن لذى بلق
قام عليـــه النهـــــار مدعيــــا
فانتزعت غرفه يـــد الشفق (١)

وذكره ابن سعيد فقال : « أبو عامر أحمد بن عبدوس أسند له صاحب الذخيرة .

يا حسن هذا الجواد ... البيتان هذا في فرس أبيض في أعلاه لمعة حمراء » ومن الغريب أن الذخيرة ليس فيها البيتان . ولا يمكن أن نعتبر هذه الأسطر ترجمة لابن عبدوس ، واذا جردناها من المبالغات لم نخرج منها الا بأنه وزير كاتب شاعر درس على القاضي يونس بن عبد الله شعره وشعر أبيه هذا كل ما عرفناه عن ثقافته الأدبية . وما عرفنا أن القاضي يونس بن عبد الله وأباه كانا من الشعراء . أما وصف ابن عبدوس للجواد فهو متكلف ثقيل جدير بأن نسميه قبح تعليل لا حسن تعليل ، ولا نعلم نسبه ويقــول الهوريني : لعله من نسل أسد بن جهور .

واذا كان هــذا النسب صحيحا فقــد ورث الحفيد عن جده ادعاءه الشعر والأدب ؛ واذا كان المجال لا يحتمل أكثر من الفروض فلنا أن نفترض أنه من نسل عبدوس بن ذكوان الجد الخامس لأبي بكر بن ذكوان أو لعله من نسل تدمير بن عبدوش أحد حكام اسبانيا المسيحيين حينما فتحها العرب ، وهما فرضان لا نملك عليهما دليــلا أما ادعاء ابن عبــدوس الشعر فقد أتهمه بهذا ابن زيدون حيث يقول :

عمــدت لشــعرى ولم تتئب   تعارض جوهـــره بالعرض

---

(١) مسالك الابصار ج ١٠ ورقة ٢٣١ الشية : العلامة .

أضـــافت أساليب هــــذا القريض؟ أم قد عفت أسنته فانقرض (١)

وإذا كان المقرى لم يظفر إلا بالبيتين السابقين نقلهما عن ابن سعيد وهذا ادعى أنه نقلهما عن ابن بسام فإننا قد ظفرنا له ببيتين آخرين رواهما ابن ظافر والمقرى عن ابن بسام وإن كنا لم نجدهما عند ابن بسام وهذه الرواية تقول: « وقف الوزير أبو عبد الله بن أبى الخصال بباب بعض القضاة واستأذن فحجبه فقال على البديهة »:

جئناك للحاجة الممطول صاحبها ... وأنت تنعم والإخوان في بؤس

وقد وقفنا طويلا عند بابكم ... ثم انصرفنا على ما رأى ابن عبدوس

إشارة إلى قول الوزير ابن عبدوس لما قال لبعض القضاة ... ذلك ... السرق:

إذا جئنــــــاه يحجبنــــا ... فنلعنــــــه ونفتـــــرق (٢)

وهو هجاء لطيف على تفاهة معناه، ويروى ابن الأبار مقطوعة له في عتاب أبى عبد الله محمد بن مروان وزير المعتمد بن ألفة عامل أمير بلنسية مطلعها:

يا الطيب النضائل للفصائل والفضل الفصاحة ...

... الخلق الأخلاق ... (٣)

---

(١) أثاب : استحيا وشعر بالخزى الجوهر الأصل والطبيعة أو الحجر الكريم والعرض ضد هذه الصفات كالفرع أو التكلف أو الخسيس عفا : درس وبلى ، رسمه : أثره ـ الديوان ص ٥٨٦ ، ٥٨٧ .

(٢) بدائع البداهة ص ٢١٦ ونفح الطيب جـ ٢ ص ١٨٢ .

(٣) الحلة السيراء ...

ولكن ابن خاقان والمقرى يصححان نسبة الأبيات لابن عبد العزيز (١) [illegible]

ومهما يكن من أمر فان شعره ضعيف بالنسبة الى شعراء عصره فما بالك بابن زيدون ، ومن الغريب أننا لم نجد له شعرا فى ولادة مع أنها مصدر غزير من مصادر الوحى والالهام ، وهناك مصدر آخر يلقى بعض الأضواء على ابن عبدوس ولكنه مصدر شديد الخطر ينبغى أن ننتفع به ولكن فى حرص شديد وحذر بالغ ، هذا المصدر هو ما صوره به خصمه ابن زيدون ـ وسنأخذ من هذا التصوير ملامح شخصيته بعد أن نجرده من الحقد والمبالغة والتحامل مع الاستئناس بآراء أخرى مما يحملنا على كثير من الاطمئنان لما نذكره من أحكام ، ونخرج من هذه الدراسة بالنتائج الآتية :

كان ابن عبدوس ثريا يتأنق فى ملابسه ويعنى بمظهره عناية فائقة ، ويتهمه ابن زيدون بأنه يقتر على نفسه فى معيشته ليظهر بهذا المظهر « وتجافيت لقميصك عن بعض قوتك وعطرت أردانك (٢) وجررت هميانك (٣) واختلت فى مشيتك وحذفت فضول لحيتك ، وأصلحت شاربك ، ومططت حاجبك (٤) ورققت خط عذارك (٥) واستأنفت عقد ازارك (٦) » وقصة ولادة [illegible] منك عليه تدل على [illegible] وتطلع فى [illegible] وحسدك أعوانه اليه » (٧) ويروى ابن بسام [illegible]

(١) الطمح ص ١٢ ، ١٣ ونفح الطيب ج ٢ ص ٣٦٣ .

(٢) الأردان : أكمام القميص .

(٣) الهميان : السراويل .

(٤) مط حاجبه : تكبر أو مده على جانب وجهه كما تفعل النساء الآن للزينة .

(٥) العذار منبت اللحية من الخدين والمراد سوى [illegible]

(٦) استأنف اصلاح ثيابه فوق جسمه .

(٧) راجع ص ١٥٥ من هذا البحث .

كان يواسى ولادة بأمواله بعد أن تبددت ثروتها مع الأيام (١) ويقرر كور أنه استطاع أن ينال منصب الوزارة بما بذله من مال (٢) .

٢ ــ كان يتسم بالأدب ويتصنع الشعر وقد سخر منه ابن زيدون فقال : « أين ادعاؤك رواية الأشعار وتعاطيك حفظ السير والأخبار » (٣) كما سخر منه بهذا المغمز فى قصيدته الضادية (٤) .

٣ ــ أنه كثير الجدال وافر المراء وصفه بهذا ابن زيدون .

ولا تعتصم ضــلة بالحجــاج
وســلم فرب احتجاج دحض (٥)

وأنه لجوج ملحاح فانه « الساقط سقوط الذباب على الشراب المتهافت تهافت الفراش الى الشهاب » (٦) وحياته مع ولادة تفيد الحاحه عليها واحتماله سخريتها به ، وانصرف منافسو ابن زيدون عنها ولكن الحاحه والحافه حمله على أن يمعن فى التودد والتزلف اليها حتى ظفر بقربها بعد نكبة ابن زيدون .

٤ ــ كان فى وقت المنافسة متزوجا متقدما فى السن يدل على هذا قول ابن زيدون فى وصفه موقف ابن عبدوس من المتنافسين فى حب ولادة على لسانها « وهبك ساميتهم فى ذروة المجد والحسب ، وجاريتهم فى غاية الظرف والأدب ألست تأوى

---

(١) الذخيرة ق ١ جـ ١ ص ٣٧٨ .
(٢) Ibn Zaidoun p.31
(٣) الديوان ص ٦٦٣ ، ٢٦٤ .
(٤) ص ٥٨٦ ، ٥٨٧ .
(٥) ص ٥٨٨ .
(٦) ص ٦٣٥ .

الى بيت قصيدته لكاع (١) ، اذ كلهم عـــزب خالى الذراع (٢) ، وأين من انفرد به ممن لا أغلب الا على الأقل الأخس منه ؛ وكم بين من يعتمـدنى بالقـوة الظـاهرة والشـهرة الواقرة ... وبين آخر قد نضب غديره ونزحت بيره (٣) وذهب نشاطه .. » (٤)
ومن الغريب أن ابن عبـدوس كان من المتقربين الى ابن زيدون وكانت بينهما مودة قبل ظهور ولادة فى الميدان . والى هذا أشار ابن زيدون بقوله :

أبا عامـــر أين ذاك الوفــاء ؟
اذ الدهـر وسـنان والعيش غض
وأين الذى كنت تعتـــد من
مصـــادقتى الواجب المفترض
أين لى ألم أضـــطلع ناهضـــا
بأعبـــاء برك فيمن نهض (٥)

أطـوار المسرحية

من الطبيعى أن تنجذب ولادة الى ابن زيدون وأن ينجذب اليها وكان فى هذه الفترة شابا قويا وسيما ذا مكانة أدبية وسياسية ، وكان الى هذا عزبا كما نفهم من رسالته الهزلية ، وكان الشاعر وولادة كلاهما أديبا مولعا بالموسيقى والغناء ميالا الى معاقرة الشراب (٦) وكلاهما كان وسيما ظريفا حاضر البديهة عذب الحديث

---

(١) القعيـدة : الزوجة ، اللـكاع اللئيمة الخسيسة قال الحطيئة فى هجاء زوجتـــه :

أطـوف ما اطـوف ثم آوى   الى بيت قعيـــدته لـكاع

(٢) متحرر من القيود الزوجية .
(٣) فقد حيويته الديوان .
(٤) ص ٦٧٢ ، ٦٧٣ .
(٥) الديوان ص ٥٨٥ .
(٦) تحفة العروس ص ١٠٢ .

وسلمها احتفاربنا فلا عجب أن تجذب الهوى [illegible] التي تشبيهها

وكان الشاعر حريصا كما كانت هي حريصة على أن يستر هذه العاطفة العميقة الى أن تنتهي الى غايتها المرتقبة . وفي هذا يقول الشاعر :

أصونك من لحظات الظنون ... وأعليك عن خطرات الفكر

وأحذر من لحظات الرقيب ... وقد يستديم الهوى بالحذر (١)

وبادلته ولادة عاطفته المشبوبة حبا بحب وتحنانا بتحنان ، كتبت اليه من أبيات :

ألا هل لنا من بعد هذا التفرق ... سبيل فيشكو كل صب بما لقى ؟

تمر الليالي لا أرى البين ينقضي ... ولا الصبر من رق التشوق معتقي (٢)

وحرصها على سمعتها حملها على أن تتحين غفلة العيون وانشغال الرقباء فتبعث اليه بدعوته الى زيارتها في جوف الظلام هاتفة به :

ترقب اذا جن الظلام زيارتي ... فاني رأيت الليل أكتم للسر

وبي منك ما لو كان بالشمس لم تلح ... وبالبدر لم يطلع وبالنجم لم يسر (٣)

---

(١) الديوان ص ١٦٨ .

(٢) ص ١٧٤ .

(٣) الذخيرة ق ١ ج ١ ص ١٧٧ ، ونفح الطيب ج٢ ص ٥٤٤ ومحاسن النساء ص ١٠٩ .

وصور الشاعر هذه الفترة أبدع تصوير فهتف بنشوات اللقاء ونفحات الصفاء :

[illegible]

راحة تقدر الظلام بشمس (١)

فرشفت الرضاب أعذب رشف
وهصرت القضيب الطف هصر

وتمتعت بلف جسم بجسم
للتصافي ، وقرع ثغر بثغر

يا لها ليلة تجلى دجاها
من سنا وجنتيه عن ضوء فجر

[illegible] أن يطول [illegible] منها بعمري (٢)

[illegible]

ولم يكن من الممكن أن تظل هذه العاطفة المشبوبة مستورة عن العيان مع كثرة المتنافسين في هذا الميدان وكانت [illegible] الشاعر العاطفية من أسباب كشف هذه العاطفة وأخيرا لم يطق

---

(١) راجع الديوان ص ١٢٠ — ١٢٨ .

(٢) تقدر : تقيس .

(٣) الديوان ١٢١ .

صبرا فاضطر الى أن ينزل الى ميدان النضال مع منافسيه فى هذا المورد العذب كثير الزحام ؛ واستطاع بوسائله العديدة أن يصرف المتنافسين حولها الا اثنين أولهما أبو عبد الله بن القلاس ، وقد أنذره الشاعر بقصيدة لاذعة يقول له فيها :

أصـــــخ لمقـــالتى واســمع
وخـــــذ فيمـــــا نرى أو دع
واقصر بعـــــــــدها أو زد
وطـــــر فى أثـرها أو قـــــع

ثم يقول فيهـــــا :

اعـــد نظـــرا ، فان البغـــى ممـــا لم يزل يصـــدع
ولا تك منـــــك تلك الـــدار بالمرأى ولا المســـمع (١)

فازدجر ابن القلاس وترك الميدان لابن زيدون وابن عبدوس ، وطاول ابن عبدوس ما طاول وثبت فى الميدان على الرغم مما تعرض له من أذى وهوان وأخيرا خلا له الميدان فصال فيه وجال بعد نكبة ابن زيدون وبعد أن فسدت الحال بين الشاعر وولادة وانقلبت المودة من جانبها الى جفاء وخصام .

أما كيف تحول الوئام الى خصام ، فالشاعر هو نفسه سبب هذا التحول الخطير ، فانه أعلن هواه سافرا فشوه صفحتها البيضاء ، وأطلق حولهما الأقاويل والأراجيف وفى منازلته لأقرانه لمزها لمزا عنيفا فهو يدعو ابن القلاس للانصراف عنها لأنها منحت نفسها غيره ولا يمكن أن تسمح لابن القلاس الا ببعض الفتات ، فهو يقول له :

ولا تطع التى تغويك فهى لغيهم اطـــــوع
فان تصارك الدهليز حيث سواك فى المضجع (٢)

---

(١) الديوان ص ٥٧٨ – ٥٨١ .
(٢) المصدر السابق .

ثم ألح في هذا المعنى في رسالته الهزلية فصورها بمظهر الفتاة الوقاح المتهالكة على الرجال التى تصرح بحاجتها الى من يعتمدها « بالقوة الظاهرة والشهوة الوافرة ، والنفس المصروفة اليها واللذة الموقوفة عليها (١) » وهو كلام مبتذل لا يجرى على لسان فتاة من سلالة البيت الأموى العريق ومن بنات الخلفاء المصونات ، وأطمعه انصراف ابن قلاس عنها بهذه الوسيلة فأمعن فيها وأسف كل الاسفاف فأنذر ابن عبدوس وأنبأه أن ولادة غادرة خائنة على الرغم مما فيها من رقة ولين وانعطاف .

وغـــرك من عهـــــــد ولاده
سراب تـــراءى وبـــرق ومـــض
تظن الوفاء بهـــــــا ، والظنـــو
ن فيهـــا تقـــول على من فرض
هى المــــــاء يأبى على قابض
ويمنـــــع زبـــــدته من مخض (٢)

ولم يكتف بهذا بل أمعن في ازدرائها وحمل ابن عبدوس اليها رسالة امتهان وازدراء حيث يقول :

وأنـــذر خليـــلك من ماهــــر
بطب الجنـــون اذا ما عرض (٣)
واشـــعره أنى انتخبت البـــديل
واعلمــــه أنى أســـتجدت العوض
وأن يـــد البين مشــــــكورة
لعـــــــار أماط ووصم رحض (٤)

---

(١) ص ١٦٣ من هذا البحث .

(٢) الديوان ص ١٨٧ ويشبهها بالماء الذى لا يستقر في اليد ، وليس له زبد يناله الماخض له .

(٣) المقصود بالخليل « ولادة » أى أن الشاعر كفيل بمداواة جنونها .

(٤) أماط : أزال ، رحض : غسل .

وحسبي أني أطبت الجنى
وأبحث الإباحة التنقيب

« وتهنيك أنك يا سيدي
عدوت مقارن ذاك الربض » (١)

ومن هنا ترى الشاعر لم يبق في جعبته بقية من الإساءة الى حبيبته ، وأنه نال منها أكثر مما نال من منافسه ، فأشعرها بأنها مجنونة وأنه كفيل بعلاج هذا الجنون ، وأنباها أنه تركها الى بديل أجمل منها واعتاض عنها بأحسن منها وأن الفراق أتاح له فرصة ينكشف فيها عن عينيه الغطاء وأنه أزال عنها عارها وغسل وصمتها ؛ وإذا كان فيها خير فقد ظفر به وترك فضلاتها لغيره ثم هنأ منافسه بأنه قارن هذا الربض (٢) المفعم بالقذارات. ورصد غلامه (عليا) للتجسس عليها ، فانكمش ابن عبدوس حتى أوقع مع أصدقائه بابن زيدون وفر الأخير الى أشبيلية فخلا الجو لابن عبدوس.

ومن هنا نرى ابن زيدون وهو يعمل جاهدا على تنفيرها ولادة منه من حيث يظن أنه يقربها اليه ، وهذا يدل على عدم تعمقه حينئذ في فهم نفسية المرأة ، والى هذا يشير نيكل بقوله : « ظن ابن زيدون أن اظهار قدرته الشعرية وتخويفها منافسه سيردها اليه مرة ثانية وهذا خطأ لفهم نفسية المرأة » (٣) ولما بدأ اليأس ساور الشاعر من جهة أتصالها به حاول لو قطع عاطفتها العميقة باشعال نيران الغيرة في نفسها فقال :

عاودت ذكر الهوى من بعد نسيان
واستحدث القلب شوقا بعد سلوان

---

(١) الديوان ص ٥٨٩ .
(٢) الربض : مأوى الماشية أو احشاء الناقة أو فضلات الأمعاء .
(٣) Hispano Arabic Poetry P. 131

من حب جارية يبدو بها صنم [illegible] للجين عليه تاج عقيان (١)

غريرة لم تفارقها تمائمها [illegible] تسبى العقول بساجى الطرف وسنان (٢)

لاستجدن فى عشقى لها [illegible] سوالف أيامى وأزمانى

حتى تكون لمن أحببت خاتمة [illegible] نسخت فى حبها كفرا بإيمان (٣)

فحبيبته الجديدة طفلة غريرة على حين أن ولادة قد جاوزت الثلاثين ، وكان حبه القديم كفرا وحبه الجديد إيمانا أى إيمان ثم يتظاهر بأنه يستهين بجفائها له :

أما الحبيب الذى أبدى الجفاء لنا [illegible] رأينا قلاه حادثا جللا

ولم نزد أن ظفرنا ملء أعيننا [illegible] بالمشترى فتجنبنا له زحلا (٤)

وأخيرا أعلن الشاعر فى قوة غضبه أنه [illegible] كما أعلن أن ولادة فتاة متهالكة على الرجال [illegible] عنها إلى غيرها ممن هو محل للثقة والتقدير (٥)

(١) اللجين : الفضة ، العقيان : الذهب الخالص ، والجارية : الفتية من النساء : يريد فتاة صغيرة مصقولة كالدمية المنحوتة من الفضة المتوجة بتاج من الشعر الأصفر كالذهب الخالص .

(٢) غريرة : ساذجة ، لم تفارقها تمائمها لم تزل فى دور الطفولة تحمل الرقى والتعاويذ ، ساجى : هادىء وديع .

(٣) الديوان ص ١٩٢ .

(٤) الديوان ص ١٩٤ ، القلى : البغض ، والعرب كانت تتشاءم بكوكب زحل ، وتتفاءل بكوكب المشترى .

قد علقنـــا ســواك علقــا نفيسا

وصرفنا اليــه عنك النفوســا (١)

ولبســـنا الجـــديد من خالع الحـ

ـب ، ولم نأل أن خلعنـــا اللبيسا (٢)

ليس منــك الهــوى ولا أنت منــه

اهبطى مصر ، أنت من قوم موسى (٣)

يشير بهذا الى قوله تعالى فى بنى اسرائيل « واذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد » وقد استوحى أبو نواس هذا المعنى فقـــال :

ومظهرة لخلق الله نســــــــكا

وتلقـــــانى بدل وابتســـام

اتيت فؤادها أشـــكو اليـــه

فلم أخلص اليـــــه من الزحام

فيـــا من ليس يرضيها خليـــل

ولا ألفـــــا خليـــل كل عام

أظنـــك من بقيـــة قوم موسى

فهم لا يصبرون على طعـــام (٤)

ثم يزداد غضبا وحدة فيعلن أنه قال من ولادة كل ما يشتهى وأن سبب الجفـاء بينهما هو غيرتهـا من جاريتها المغنية عتبـة فيقول من مقطوعة نثرية طويلة فى ديوانه (٥): « كنت فى أيام الشباب ، وغمرة النصاب (٦) هائما بغادة ، تدعى ولادة » فهو كان

---

(١) علق الشيء : أحبه ، العلق النفيس .

(٢) لم نأل : لم نقصر ، اللبيس : البالى من كثرة اللبس .

(٣) الديوان ص ١٩٥ .

(٤) ديوان أبى نواس ص ٥٤٢ .

(٥) الديوان ص ٧٧٧ — ٧٨١ .

(٦) غمرات التصابى : غفلات الفتوة .

هائما بها أيام الشباب فقط ؛ ثم يذكر أنها كتبت اليه تستدعيه « فلما طوى النهـــار كافوره ، ونشر الليل عبيره (١) أقبلت بقد كالقضيب وردن كالكثيب (٢) ، وقد أطبقت نرجس المقـل على ورد الخجل ... وبتنا نجنى أقحوان الثغور (٣) ، ونقطف رمان الصدور ... وكانت عتبة قد غنتنا :

أحبتنـــــــــا انى بلغت مؤملى
وســـاعدنى دهرى وواصلنى حبى
وجاء يهنينى البشـــــير بقـــربه
فأعطيتـــــه نفسى وزدت له قلبى

فسألتها الاعادة بغـير أمر ولادة ، فخبـا منها برق التبسم وبدا عارض التجهم ... فبتنا على العتاب فى غير اصطحاب »

ثم يذكر أخيرا أنها كتبت اليه بعد أن ضربت جاريتها عتبة

لو كنت تنصف فى المـودة بيننـا
لم تهـــو جاريتى ولم تتخـــير
وتركت غصـــــنا مثمـرا بجمالـه
وجنحت للغصن الذى لم يثمـــر
ولقـــد علمت بأننى بدر السـما
لـكن دهيت لشـقوتى بالمشـترى

ومن هنـا نفهم أن مودتهما لم تكن صافية وانما كان يشوبها الجفاء حتى فى أيام اللقاء ، بل أن يده امتدت اليها بالضرب حينا ، حيث يقول :

ان تكن نالتـــك بالضرب يـــدى
واصـــابتك بمـــا لم أرد

---

(١) انطوى الضياء واقبل الظلام بنسيمه العطر .
(٢) بقوامها المشوق وعجزها الممتلىء .
(٣) الاقحوان : زهر أبيض طيب الرائحة وسطه أصفر تشبه الثغور به .

[illegible]

[illegible] العتيقة حيناً ولم يكن هناك بد من أن تنصرف عنه ، وبذلك الحاقدون والحساد ما بذلوا من جهود ألقت بالشاعر فى غيابة السجن فقاسى فيه ما قاسى من الهوى والهوان ثم استطاع أن يفر من سجنه بعد أن قضى فيه قريبا من العامين وفر الى أشبيلية ، [illegible] قويين عامل العاطفة المشبوبة التى لم [illegible] الا اشتعالا ، وعامل الطمع [illegible] مكانته المفقودة وأن يعود الى [illegible] مكانه فى قلب الأميرة [illegible] بالزهراء [illegible] قرطبة [illegible] الى حبيبته ثم الى أميره والى أصدقائه الذين يطمع فى وساطتهم لدى الأمير ، ويقول أوغست كور « انه كان يود اقناع ولادة بالسفر معه الى أشبيلية » (٢) ثم أرسل اليها القصيدة النونية الخالدة (٣) التى شرق ذكرها وغرب والتى مطلعها :

أضحى التنائى بديلا من تدانينا ... وناب عن طيب لقيانا تجافينا (٤)

ويظهر ان الأحداث طامنت من كبريائه ، وأنه عرف معرفة يقينية أن الوسائل التى استعملها مع منافسيه ومع حبيبته لم تنجح الا فى ابعادها عنه ، فعاد اليها متوسلا مستعطفا يؤكد لها ولاءه ويقسم على وفائه بأغلظ الايمان :

---

(١) الديوان ص ١٧٥ [illegible]

(٢) Ibn Zaidon P. 6

(٣) يروى المراكشى فى المعجب [illegible] النونية من أشبيلية ، واذا صح هذا يكون قد أرسلها قبل عودته مستخفيا الى الزهراء [illegible]

(٤) [illegible]

لا تحسبوا نأيكم عنا يغيرنا
أن طالما غير النأى المحبينا (١)

والله ما طلبت أهواؤنا بدلا
منكم ولا انصرفت عنكم أمانينا (٢)

ولا استفدنا خليلا عنك يشغلنا
ولا اتخذنا بديلا منك يسلينا (٣)

ثم أخذ يبالغ فى اطراء جمالها وحسبها ونسبها :

ربيب ملك كأن الله أنشأه
مسكا ، وقدر انشاء الورى طينا (٤)

أو صاغه ورقا محضا ، وتوجه
من ناصع التبر ابداعا وتحسينا (٥)

ما ضر ان لم نكن اكفاءه شرفا
وفى المودة كاف من تكافينا (٦)

ولقد [illegible] شاعرنا من تجاربه السابقة فهو يشعرها بأنه لن يذكر اسمها فى شعره وأنه سيكتفى بالاشارة اليها اجلالا لها وسموها يغنيانه عن ذكر اسمها فلها أن تطمئن الى حرصه وحذره كل الاطمئنان :

---

(١) [illegible] الفواق [illegible]

(٢) نسى الشاعر قولته :

وأشعره انى انتخبت [illegible] وأعلمه أنى استجدت العوض

وقوله :

اما الحبيب الذى أبدى الجفاء [illegible]

فما [illegible]

(٣) الديوان ص ١٤٣ ، ١٤٤ .

(٥) [illegible]

(٦) الديوان ص ١٤٤ ، ١٤٥ .

يا روضـــة طالمـــا أجنت لواحظنا
وردا جـلاه الصبا غضا ونسرينا (١)
لســـنا نسميك اجـلالا وتكرمة
فقـدرك المعتلى عن ذاك يغنينــــا
اذا انفردت ، وما شوركت فى صـــفة
فحسبنا الوصف ايضاحا وتبيينا (٢)

ثم يستثير فى ذاكرتهما نفحـات النعيم المـاضى وخلسـات اللقاء الحبيب وذكريات الوصـــال العذبة ، لعلها تحن الى هـذا الماضى السـعيد :

اذ جانب العيش طلق من تألفنـــا
ومربع اللهو صـــاف من تصافينا
واذ هصرنا فنـون الوصـل دانية
قطافهـا ، فجنينـ منـــه ما شينا
ليسق عهـدكم عهـد السرور ، فما
كنتم لأروا الا رياحينـــا (٣)

ثم يلح فى هذا المعنى هاتفا بها :

يا جنـــة الخلد ابدلنـــا بسدرتها
والكوثر العـذب زقوما وغسلينا (٤)
كأننـــا لم نبت ، والوصل ثالثنـا
والسعد قد غض من أجفان واشينا
سران فى خاطر الظلمـاء ، يكتمنـا
حتى يكان لسان الصبح يفشينا (٥)

---

(١) النسرين : زهر طيب الرائحة .
(٢) الديوان ص ١٤٥ ، ١٤٦ .
(٣) الديوان ص ١٤٣ .
(٤) السدرة : شجرة النبق ، الزقوم شجرة خبيثة مرة الثمر ، الغسلين : ما يسيل من جلود أهل النار أو شجرة يعذب الله بها الكفار لطعمها الكريه .
(٥) الديوان ص ١٤٦ .

واذا كان فى عهده الأول يتدلل ويتجنى ولا يقنع الا بجنى « أقحوان الثغور ، وقطف رمان الصدور » (١) « ورشف الرضاب أعذاب رشف وهصر القد ألطف هصر ولف جسم بجسم وقرع ثغر بثغر » (٢) اذا كان فى عهده الأول لا يقنع الا بهذا فهو الآن قانع ببذل الوعود وان لم تتحقق ، فالطيف يقنعه والذكر يكفيه ، وفى رد الجواب متاع أى متاع .

أولى وفاء ، وان لم تبذلى صلة
فالطيف يقنعنا ، والذكر يكفينا
وفى الجواب متاع ، ان شفعت به
بيض الأيادى التى ما زلت تولينا (٣)

واخيرا ظفر الشاعر بحريته واسترد جانبا كبيرا من مكانته السامية ؛ ثم عاد الى عهده السابق فى أول ولاية صديقه أبى الوليد ابن جهور للحكم فى قرطبة وكان الحاكم الجديد يعلم الجرح العميق فى نفس صديقه الوفى فأرسله فى سفارات خاصة الى عدد من أمراء الطوائف لعله يلهيه بهذه المشاغل عن حبه اليائس العنيف ، ويقول نيكل انه أراد بهذا معالجة جراح صديقه العاطفية الدامية (٤) ولكن عاطفة الشاعر ازدادت اشتعالا فردد أعذب الأغاريد ورتل أشجى الألحان ، واستفاد الأدب العربى من هذه المحنة ثروة أدبية خالدة على الزمان وظل الشاعر يهتف بهذه الألحان بضعة وعشرين عاما حتى طوته المنون — اما ولادة فقد لزمت خدرها واكتفت بعلاقة صداقة محدودة مع ابن عبدوس ، وبخاصة بعد أن تبددت ثروتها فكان يواسيها بموفور ماله حينا بعد حين .

---

(١) الديوان ص ٧٧٩ .
(٢) الديوان ص ١٢١ .
(٣) الديوان ص ١٤٨ .
(٤) Hispano Arabic Poetry P. 119

ولقد بقى علينـــا أن نتعرف الى نفسية ولادة التى نزعت بها الى الخمول بعد الشهرة ، والى الوحشة بعد الايناس والى العنوســة بعد أن تهافت عليها عظماء الرجال .

دراســــــة تحليلية

أعلن بعض كبار اللغويين قديما ـــ ولعله الأخفش ـــ أنه يموت وفى نفسه شىء من « حتى » لصعوبة وضع قاعدة دقيقة لاعراب ما بعدها ، وردد هــذه القولة بعض الباحثين المحدثين فقال : « أموت وفى نفسى شىء من ولادة » لأن موقفها محفوف بالغموض الشديد فانها على جمالها ورقتها وكثرة الراغبين فيها المتهافتين عليها من الأكفاء ظلت عانسا حتى جاوزت الثمانين ثم أن تصرفاتها عجيبة حتى حار فيهـــا من عاصرها من الأدباء والمؤرخين ، فى تصرفاتها ما يوجـد الى القول فيها السبيل ولكنها تخلط ذلك بكرم أنساب وطهارة أثواب (١) ، فهى تقبل على ابن زيدون ثم تعرض عنه ثم تعود اليه لتنصرف عنه انصرافا تاما ، ولقد أطعمت فيها ابن القلاس حتى انصرف عنها أو انصرفت عنه ، ثم تقبل عـــلى ابن عبدوس وتعود فتسخر منه ثم تعود اليه صديقة لا حبيبة وقد حار فيها القدماء « لقلة مبالاتها ومجاهراتها بلذاتها » ونحار نحن معهم فيما نقرأ من هجائها الفاحش لابن زيدون حيث تناولت عرضه فرمته بالشذوذ الجنسى واتهمته بغلامه وعادت فاتهمت غلامه به فى شعر بذىء ان صحت نسبته اليها والقدماء مجمعون على نسبته اليها ، واذا أحسنا الظن بها ووصفناها مع معاصريها « بالتصون والعفاف » فاننا نظن أن هذا الشعر نظمه ابن عبدوس على لسانها لا ردا على الرسالة الهزلية التى كتبها على لسانها ابن زيدون فى تحقير ابن عبدوس ، ونحن لا نملك على حسن ظننا بها أى دليل .

(١) الذخيرة ق ١ جـ ١ ص ٣٧٦ والصلة ص ٦٣٢ وبغية الملتمس ص ٥٣٢ .

ولقد حار فيها المستشرقون أيضا فرموها بالجنسية المثلية Homosexuality وهى عشق الذكر للذكر والأنثى للأنثى واتهموها أو اتهموا بها مهجة بنت التيانى القرطبية فيتشكك هنرى بيربس فى أنوثتها مشيرا الى علاقتها بمهجة (١) ويقول غومس انها كانت امرأة رجلة (٢) وربما ساعد على هذا الاتهام أنها كانت تتهم الشاعر دائما بالجنسية المثلية ، والمصاب بالعيوب يلقيها دائما على خصمه محاولا تبرئة نفسه أو سترها بالقاء هذه التهم على أعدائه أو المحيطين به ، ولكن هذا الاتهام يدفعه هجاء مهجة بنت التيانى لها ورميها اياها بأنها تتهالك على الرجال فى شعر قبيح مكشوف لا نستطيع روايته (٣) ومن العجيب أن نيكل على دقته سار على نهج من سبقه من المستشرقين فقرر أن صلاتها بمهجة كانت صلات مريبة (٤) ولعله تأثر بما رواه ابن سعيد من أنها علقت بمهجة (٥) واذا صدقنا ما وصفها به ابن زيدون أيام اقبالها عليه استطعنا أن ننفى عنها ناحية الشذوذ ، ولكن كيف نفسر اقبالها على الرجال واعراضها عنهم ؟ ثم كيف ظلت عانسا حتى ماتت وقد تجاوزت الثمانين ؟ حاولنا تفسير هذه الظاهرة الغريبة فى رسالتنا عن ابن زيدون (٦) الى أنها كانت مصابة بما يسميه علماء النفس مرض السادية Saclism وهى حب ايقاع التعذيب على الجنس الآخر . وهذا المرض تبدأ بذوره عند المرأة من الطفولة حين تشعر أنها تنقص عن الطفل بعض الأعضاء فتشعر بحسد وغيرة يسميها علماء النفس بحسد

---

(١) La Poésie Andalouse p. 428

(٢) الشعر الاندلسى ٣٢ .

(٣) راجع هذا الهجاء فى نفح الطيب جـ ٢ ص ٦٣٣ .

(٤) Hispano Arabic Poetry p.III

(٥) المقرب جـ ١ ورقة ٢٧،٦ .

(٦) ابن زيدون : عصره وحياته وادبه ١٧٤ ــ ١٧٩ .

الذكورة Penis Emvy (١) ، ويظل هـــذا الحسد ينمـــو حتى يئول الى مرض خطير بعد البلوغ ، ويرجح بعض الباحثين أن يكون هذا المرض أثرا وراثيا لفساد النطفة الناتج عن التسمم بالخمر (٢) ، ونحن نعلم أن والد ولادة كان من المدمنين (٣) ومن مظاهر السادية أن تنصب المرأة شباكها للرجل حتى يقع فريسة هواها فتكر عليه فتذيقه أنواع الصدود وتجرعه مرارة الحرمان بعد أن أطعمته حـــلاوة النعيم ، وقد روى العـــالم النفسانى اشتكل Stekl كثيرا من الأمثلة عن هذا المرض وساق اعتراف سيدة من هـــذا النوع حيث قالت له : « ان اللذة الجنسية ضعيفة اذا قيست باللذة التى استشعرها من العمل السادى ، فهى لذة لا يحدها الوصف ولا تصورها الألفاظ فاننى أشعر بشخصى يسمو ويعلو ويملأنى الزهو والكبرياء والجلال ، وتبلغ بى النشوة أوجها كلما شعرت اننى بسطت سيطرتى على هؤلاء الرجال دون أن أشـــبع لهم رغبة أو أطفىء لهم شهوة ، فهم عبيدى يظلون يجرون خلفى طمعا فى أن يتذوقوا حلاوة وصالى بعد أن ذاقوا مرارة قسوتى وكبريائى فهم أتباع لى دائما يحدوهم الأمل فى نعيمى فلايدخلون الا جحيمى » (٤) والى هذا يشير شاعرنا بقوله :

عللتنى بالمنى حتى اذا علقت
بالنفس لم أعط من أســـبابها طرفا

غيرت عن خلق قد لان لى زمنـــــا
لين النسيم ، فلما لذ لى عصفا (٥)

---

(١) سيكلوجيا المرأة ص ١٠٤ .
(٢) المسألة الجنسية ج ١ ص ٢٣٩ .
(٣) الذخيرة ق ١ ج ١ ص ٣٨٢ .
(٣) الاضطرابات الجنسية ص ١٥٠ ، ١٦٤ .
(٥) الديوان ص ١٨٣ .

ويقـول :

أحين علمت حظـــــك من ودادى
ولم تجهـــل محلك من فـؤادى
وقادنى الهـــوى فانقـدت طوعا
وما مكنت غـيرك من قيــــادى

رضيت لى السـقام لبـاس جسم
كحلت الطرف منـــه بالسهاد (١)

وديوان الشاعر حافل بتصوير هذه المواقف فلا داعى للأدلة فيها ـ ومن مظاهر السادية حب التلويث (٢) كتلويث الملابس بل قد يمتد الى تلويث الشخص لنفسه ، وهى كما قلنا « أطرحت التحصيل وأوجدت الى القول فيها السبيل ، وانها لم يكن لها تصاون يطابق شرفها » وقد لوثت ابن زيدون بما صاغته فيه من مقطعات هجـاء فاحشة مقذعة لا نستطيع روايتها (٣) ، كما لوثت ابن عبدوس بسخريتها منه « وكانت كثيرة العبث به » (٤) ثم لوثت الأصبحى ومزقت عرضه وعرض ابنه كل تمزيق فى شعر لا نستطيع روايته (٥) والى هذا أشار العمرى بقوله : « وكانت ولادة ذات بوادر يشيب لها رأس الوليد .. » (٦) ويقرر نيكل : « أن سـلوكها كان متسما بالخشونة المتطرفة والاتجـاه المـادى الطبيعى الذى يذكرنا بجورج صاند » ويقرر « أنها ورثت عن أبيها

---

(١) الديوان ص ١٨٥ .

(٢) الاضطرابات الجنسية ص ١٥٥ .

(٣) من الممكن مراجعته فى نفح الطيب ج ٢ ص ١٤٠ ، ٥٦٣ ، ٥٦٤ ونزهة الجلســاء ص ٤٢ ، ٤٣ ونزهـــة الأبصار ص ١٢ وقبســات منه فى كفايته ابن زيدون عصره وحياته وأدبه ص ١٥١ .

(٤) سرح العيون ص ٧ .

(٥) راجعه فى نفح الطيب ج ٢ ص ٥٦٤ ونزهة الجلساء ٤٣ .

(٦) مسالك الأبصار ج ١٠ ص ٢٣٠ .

بعض الخشونة » (١) ــ والمريضة بهذا المرض لا تدوم صلاتها الا برجل ذى انحراف مقابل لانحرافها تسيطر عليه نزعة قبول التعذيب والشغف به ، وهذا المرض يسميه علماء النفس « الماسوشية » ، ويظهر في صورة الرغبة الملحة فى الخضوع والاستسلام للشخص المحبوب ، وقد توغل الى درجة العبودية والأسر التى تتمثل فى الطاعة العمياء لكل نزعات ونزوات الشخص المحبوب ، ولعل ولادة صادفت هذا الشخص فى ابن عبدوس الذى كانت تسخر منه وتكثر العبث به فلا يزداد الا توددا اليها ، وتعرض عنه منصرفة الى ابن زيدون فينتظر حتى تعود اليه ، ويزجره ابن زيدون فيزدجر حتى يرحل ابن زيدون عن قرطبة فيعود الى ولادة متزلفا مترددا ، وقد رأينا من شعره كيف وقف على باب أحد القضاة فحجبه فانصرف شاكيا لاعنا ، ولعل نيكل ادرك بفطرته لمحة من هذا الاتجاه حين قرر أن ولادة كانت محتاجة الى شخص أقل من مستواها العقلى (٢) ولعلها وجدته فى ابن عبدوس ؛ هذا ملخص ما ذهبنا اليه فى رسالتنا عن ابن زيدون ــ وان كنا ذهبنا فى تفسير تصرفاتها وتحليل شخصيتها مذهبا آخر فى مسرحيتنا الشعرية عنها وعن ابن زيدون (٣) حيث تصورنا أن الفن الجميل من شعر وموسيقى وغناء استأثر باهتمامها واستغرق كل جوانب حياتها فأغناها عن الزواج كما يفعل بعض المشتغلين والمشتغلات بالفنون الآن ، وهو افتراض مجرد لا نملك عليه دليلا .

واذا كنا لا نملك الا الفروض فاننا نستطيع أن نفترض أنها بعد أن بددت ثروتها اضطرت الى الانزواء فى

(١) Hispano Arabic Poetry p. 107

(٢) Hispano Arabic Poetry p. 112

(٣) ولادة مسرحية شعرية طبعتها لجنة البيان العربى .

خدرها فى عفة وقناعة واستحياء ، أو أنها بعد أن لاكت الألسن حياتها وارتفعت الى ذروتها الشبهات وحامت حولها الشكوك أدركت أنها فرطت فى حياتها وتساهلت فى كرامتها وأساءت الى حسبها ونسبها فآثرت الانسحاب من الحياة العامة ورفضت الزواج حتى لا يظن القادحون أنه نتيجة حب عنيف . ومن التقاليد العربية المتوارثة أن الأسرة كانت ترفض زواج فتاتها بمن اشتهر بحبها نفيا للظنون وابعادا للشبهات .

وقد تكون انسحبت من الحياة العامة خشية أن تتعرض حياتها لما تعرض اليه آلها بعد أن ذهبت دولتهم وتبدد سلطانهم . .

هذه كلها فروض قائمة على مجرد الظنون ... ونعود فنقول مع القائلين : « نموت وفى أنفسنا شىء من ولادة » ولكل قارىء فى ضوء ما ذكرناه أن يختار لنفسه الرأى الذى يستريح اليه فى شأن هذه الفتاة الشاعرة الساحرة الموهوبة ذات الأصل الكريم والمجد الخالد .

الفصل الرابع

محنة قاسية

ضاق الأمير أبو الحزم بن جهور ذرعا بابن زيدون لما ذكرناه في الفصل الثانى من أسباب ، حتى لم يبق فى قوس صبره منزع وزاده ضيقا بالشاعر الندوات الأدبية التى كان يعقدها فى قصر ولادة وخشية الأمير من أن تلفت هذه الندوات أنظار الشعب الى ولادة والى الأمويين من جديد ، ويظهر أن ولادة أحست بهذا أو تلقت تحذيرا عنيفا فآثرت الانسحاب من الحياة العامة ولعل بنى جهور أشفقوا من أن تكون هذه الندوات ستارا للتآمر على ارجاع الأمويين ، وولادة زهرة يانعة من زهرات هذا البيت الكريم ، وقد عرفنا أن بنى جهور أعلنوا فى قرطبة الا يبقى بها أحد من الأمويين وقد اغتالوا أمية حينما هم بالرجوع اليها (١) وطردوا ابن المرتضى شر طردة قطعا للفتن والثورات (٢) ويرجح نيكلسون هذا الرأى فيقول « قد وقع الشاعر فى مأزق لعله نشأ من حبه للأميرة الحاذقة الجميلة التى ألهمته أعذب الألحان (٣) ويؤيده الدكتور « فيليب حتى » فى هذا الاتجاه ، ومما يزكى هذا الرأى أن أحدا من الشعراء لم يجرؤ على التغزل فيها بعد ابن زيدون ، وقد أشرنا فى الفصل السابق الى هذا الاحتمال ، ولعل هذا ما أشار اليه ابن خاقان بقوله (٤) « ولم يزل يروم دنو ولادة فيتعذر ، ويباح دمه دونها ويهدر لسوء أثره فى ملك قرطبة

---

(١) ابن زيدون عصره وحياته وأدبه ص ٣٠ .

(٢) الذخيرة ق ١ جـ ١ ص ١٢٠ .

(٣) Aliterary History of the Arabs p. 425

(٤) تاريخ العرب مطول جـ ٣ ص ٦٦٤ .

وواليها ... » وربما كان هذا هو ما عناه الشاعر بعد خروجه من السجن بقوله فيها .

ولئن تجنبت الرشـــاد بقـــدرة
لم يهـو بى فى الغى غـير هواك (١)

وان كان السبب الرئيسى هو التآمر لارجاع سلطان الأمويين كما ذكرنا ؛ ـ وأخيرا لفق أعداء الشاعر له تهمة اغتصاب عقار ويظهر أن الأمير كان من الموحين بهـذا الاتهـام أو وجده فرصة مناسبة للانتقام من الشاعر أتاحتهـا له الأقدار فعزل القاضى ابن ذكوان من ولاية القضاء أو اضطره الى الاعتزال لأنه صديق الشـاعر الحميم وولى قاضـيا يتلقى وحى الأمـير فينفذه دون مناقشة أو اعتراض ، هذا القاضى هو أبو محمد عبد الله بن أحمد المعروف بابن المكوى ويحدثنا عنه معاصره ابن بشكوال فيقول : « ولم يكن من القضاء فى ورد ولا فى صدر لقلة علمه ومعرفته ، وانما كانت أثرة أثر بها (٢) » ولسقوط همته ضن عليه ابن جهور بلقب القاضى ولهذا نعته ابن حيان بأنه أحد حكام قرطبة ، ويقول ابن سعيد فى ترجمته « ولم يكن فى نصاب القضاء ، وهو ممن آثر الخمول للدعة ، والقلاحة على الدراسة ... ولم يطلق عليه اسم القضاء على سبيل ابن ذكوان قبله (٣) » لأنه ولى هذا المنصب لغرض مقصود ولفترة محدودة من الزمان « وقد اكتسب فى منصبه صرامة واعجابا حتى استخف بكثير من وجـده الناس فجرت له بذلك خطوب ... من رجل قليل العلم نكد الخلق .. ألح الناس فى صرفه حتى صرفه أبو الوليـد بن جهـور فى ربيع الأول سنة ٤٣٥ » (٤) ولقد بقى ابن المكوى بعد عزله « خاملا معطلا الى أن ركبته علة الذبول .. » (٥) .

(١) الديوان ص ٣٢٦ .
(٢) الصلة ص ٢٧٢ .
(٣) المقرب جـ ١ ورقة ١٢٢ .
(٤) المصدر السابق .
(٥) الصلة ص ٢٧٢ .

هـذا هو القاضى ؛ أما التهمة فهى أن الشاعر اغتصب عقارا لأحد مواليه بعد وفاته وأحضر الذى اتهمه شاهدا شهد بهذا فما كاد القاضى يسمع الشاهد ويعرف الاتهام حتى أصدر أمره بسجن الشاعر دون تثبت أو مراجعة وبهذا وافق هوى الأمير ونال رضاء الأعداء ، وقد ترك الشاعر لنا وثيقة عن هذه التهمة وعن أسلوب القاضى فى الحكم عليه ، هذه الوثيقة هى الرسالة البكرية ، التى وجهها الى أستاذه وصديقه ابى بكر مسلم ابن احمد بن أفلح النحوى (١) ، وفى ضوء هذه الوثيقة نستطيع ان نصور هذه المهزلة القضائية التى تعرض لها ابن زيدون :

ما كاد القاضى يسمع التهمة والشاهد حتى أمر بسجن الشاعر ، ولكن أنصار الشاعر من جهة ورجال الدين من جهة اخرى لم يستريحوا لهذا التصرف الغريب ، واحس القاضى هذا فجمعهم وحاول أن يبرر موقفه أمامهم فلم يقتنعوا برايه ، وأشاروا عليه أن يتيح للشاعر فرصة الدفاع عن نفسه وتقديم ما يثبت براءته قبل الحكم عليه ، والدفاع عن النفس حق مشروع كفله الاسلام كما كفلته جميع الشرائع والقوانين ، فاظهر القاضى الموافقة على رأيهم ، ولكنه لم ينفذ مشورتهم ، وقد صور الشاعر هذا الموقف بقوله : « وكان المتولى سجنى بعد شهر من انفاذه ، له مجلس حضره فقهاء الحضرة ومن أعلم بسيماهم ، وجرى فى غشيان الحكام مجراهم ، فذكر انه اتهمنى بالغيب على عهد المتوفى مولاى — كان — نقع الله صداه وبل ثراه ؛ وثبت عنده مع ذلك أنى من تعلقه التهم ولا ترتفع عنه الظنن ، فكلهم افتى بالاعذار الى فيما شهد به من ذلك على ؛ ثم سجنى ان لم آت بمدفع ، أو أصدع من الحجة بمقنع ، فاحتاط واجتهد ، وتحرى واقتصد ، وصالحنى من هذه الفتيا على النصف بتاخير الاعذار

(١) الديوان ص ٧١٨ — ٧٥٣ .

وتقديم السجن (١) » ومن الغريب أن ينزل العقاب بالشاعر قبل أن يتقدم عن نفسه بالدفاع ، مع أن القاعدة القانونية المعروفة تنادى بأن المتهم برىء حتى تثبت ادانته ، وان كان هناك حبس احتياطى فى بعض الحالات خشية فرار المتهم ، ولا ينطبق هذا على الشاعر بأى حال .

وبالرجوع الى قوانين القضاء المطبقة بالأندلس في ذلك الحين وجميعها مستمدة من مذهب الامام مالك رضى الله عنه نجد القاضى قد ارتكب عدة مخالفات كانت تستدعى مثوله هو أمام القضاء ؛ ونستطيع أن نضرب أمثلة على بعض هذه المخالفات :

اولا : قنع القاضى بشهادة واحد متهم ، والشهادة لا تتم الا بشاهدين عدلين وقد طعن ابن زيدون فى الشاهد وشهادته حيث قال : « وشهد ابن العطار-العشار العارى عن الثقة والأمانة البعيد عن الرعاية والصيانة الناشر لأذنيه طمعا ، الآكل بيديه جشعا فكان القول ما قالت حذام (٢) ، ولم يقتصر على ان الحق بالشهود وهو واو عمرو فيهم (٣) ونون الجمع المضاف معهم » (٤)، مع أن قوانين القضاء تحتم التحرى الكامل عن الشهود قبل قبول شهادتهم (٥) .

ثانيا : كان على القاضى قبل أن يأمر بسجن الشاعر أن يعطيه فرصة للاعذار « الدفاع عن نفسه » لعله يأتى بما يدفع التهمة أو يقدم دليلا مقنعا على براءته ، وهذا حق من حقوق المتهم

---

(١) تراجع الرسالة البكرية ص ٧١٨ - ٧٥٣ بالديوان .

(٢) اشارة الى قول لجيم بن صعب فى صدق زوجته

اذا قالت حذام فصدقوها ... فان القول ما قالت حذام

(٣) هذه الواو زيادة فى الكتابة .

(٤) نون الجمع تحذف عند الاضافة مثل هؤلاء معلمو المدرسة .

(٥) راجع الشروط الواجب توفرها فى الشهود فى رسالتنا « ابن زيدون ص ١٩٠ » .

ولو كانت التهمة ثابتة عليه ، وفى هذا يقول ابن فرحون « كل من قامت عليه بينة بحق من معـــاملة أو نحوها أو دعوى بفساد أو غضب أو تعـــد فلابد من الأعــذار قبل الحكم عليه الا أن يكون من أهل الفساد الظاهر أو من الزنادقة المشـــهورين بما ينسب اليهم » (١) . ولا يمكن أن يدخل الشاعر فى عداد هؤلاء ، وان كان القاضى عده ممن تعلقه التهم ولا ترتفع عنه الظنن .

ثالثا : أدرك الشـــاعر ما هو مبيت له فأراد أن يقطع الطريق على أعــدائه فعرض الصلح على خصـــومه ، والحكم الشرعى أن الصلح جائز بين الخصوم بل ان من واجب القاضى أن يسعى اليـــه بين المتخاصمين ، والى هـــذا يشـــير ابن سلمون بقوله « والصلح جائز باتفاق ، قال صلى الله عليه وسلم : (الصلح جائز بين المسلمين الا صلحا أحل حراما أو حرم حلالا ؛ وهو على نوعين على الاقـــرار وعلى الانكار » والخصـــومة القائمـــة بين ابن زيدون خصومة ماليـــة اذا تراضى الطرفان على الصلح فيها فهو أمر مباح بل مندوب اليه ، ويقول ابن فرحون « واذا خشى القاضى من تفاقم الأمر بين الخصمين أو كانا من أهل الفضل أو بينهما رحم أمرهما بالصلح (٢) » .

رابعا : قرر الفقهاء « أنه لا يجوز الحبس فى الحق اذا تمكن الحاكم من اســـتيفائه مثل أن يمتنع المتهم عن دفع الدين ونحن نعرف ماله فانا نأخذ مقـــدار الدين ولا يجوز لنا حبسـه » (٣) والشاعر من الأثرياء ، ويمكن استيفاء الحق منه اذا ثبتت التهمة عليه ولهذا لا يجوز حبسه مهما كانت الملابسات .

خامسا : من واجب القاضى « أن يكشف عن حال المحبوسين

---

(١) تبصرة الحكام ج ١ ص ١٣٥ .

(٢) العقد المنظم للحكام ج ٢ ص ٢٤٥ .

(٣) تبصرة الحكام ج ٢ ص ٥٢ .

فينظر فى أمرهم وفى مدة اقامتهم فى الحبس فقد يكون منهم من طالت اقامته فتكون اقامته فى الحبس ظلما له » (١) .

ولقد طالت اقامة الشاعر فى حبسه حتى قاربت العامين مع أن الفقهاء لم يتركوا أمر الحبس فوضى ، بل قدروا له أمدا محدودا « فحبس التعزير (٢) راجع الى اجتهاد الحاكم فقد يكون يوما وقد يكون شهرا للاستبراء والكشف وستة اشهر للتأديب والتقويم ومن دونهم بالنفى والابعاد اذا تعددت ذنوبهم ولا يبلغ بنفيهم حولا ، وحبس المتهم بالقتل والضرب الخطير شهرا (٣) وحبس القاتل عمدا اذا عفى عنه (٤) على الدية سنة » (٥) .

سادسا : قدم الشاعر وثيقة كتابية كان المتوفى الذى يدعون أن الشاعر اغتصب ماله أثبت فيها كفاية وأشهد فيها على نفسه أن لا مال له ولكن القاضى تجاهل هذا الدليل القاطع على البراءة لغرض فى نفسه وأخيرا يئس الشاعر من القاضى فلجأ الى ابن جهور مستشفعا متوسلا ولكن شعره ونثره وضراعاته كلها لم تجد سبيلا الى قلب الأمير .

فى غيابة السجن

تخبط القدماء والمحدثون فى تحديد تاريخ سجن الشاعر ومدة سجنه حتى ادعى كثيرون أن الشاعر سجن مرتين مرة فى عهد أبى الحزم بن جهور ، ومرة فى عهد ابنه أبى الوليد ، وزعم بعضهم انه سجن خمسة أعوام فى المرة الأولى وأن سجنه تم قبل الثلاثين .

---

(١) المصدر السابق ج ١ ص ٢٩ .

(٢) التأديب بما دون الحد الشرعى ويترك للقاضى تقديره فى غير اسراف .

(٣) هذا اذا لم يكن متعمدا .

(٤) اذا صالحه أهل القتيل على الدية .

(٥) تبصرة الحكام ج ١ ص ٢٢٥ .

وقد استطعنا فى رسالتنا عن ابن زيدون (١) أن نقدم الأدلة القاطعة على أنه سجن مرة واحدة فقط فى عهد أبى الحزم بن جهور وحددنا مدة السجن فى الفترة الواقعة بين اليوم السابع من المحرم سنة ٤٣٢ هـ واليوم الثامن من شعبان سنة ٤٣٣ هـ وهى تتجاوز الخمسمائة يوم بحوالى شهرين تقريبا ، ولا نحب أن نثقل هـذا البحث الموجز بالنصوص العديدة التى رجعنا اليها فى رسالتنا عن ابن زيدون .

ولقد لقى الشاعر فى سجنه معاملة قاسية صورها لنا فى رسالته البكرية حيث يقول : « وكنت أول حبسى قد وضعت من السجن فى موضع جرت العادة بوضع مستورى الناس وذوى الهيئات فيه ... فمنيت من مطالبة بعض من يأتمر الناظرون فى السجن له ويسمعون منـــه بما اقتضى نقلى الى حيث الجناة المفسدون واللصوص المقيدون ومنع منى عوادى ، وشكوت ذلك الى الحاكم الحابس لى ... فانتفى من الرضى به وأظهر الامتعاض منه ، وتقدم الى الموكل بالسجن فى اختيار مجلس أباين فيه من لا تليق بى ملابسته (٢) .... ثم لم البث إن أحضره مجلس نظره وأمر بتأديبـــه على امتثاله فى ما أمره به وانتهائه الى ما حد له ، واستأنف العهد فى التضييق على ومنع من اعتاد صلتى من الوصول الى ... فنقلت فى نفسى ثلاث نقــل (٣) على أقبح النصب (٤) وأسوأ الرتب ، ودخل الى فى هذه الحال من أبلغنى عن ابن أخى الحكم رسالة جامعة من السب الفاحش لفنون مشتملة من الوعيد المرهب على ضروب .. » (٥) .

---

(١) ابن زيدون عصره وحياته وأدبه ص ١٩٤ ــ ٢٠١ .

(٢) ملابسته : مخالطته .

(٣) أمر الحاكم من يقوم على المسجونين بوضع الشاعر فى المكان المناسب بمكانته ثم عاقبه على أنه أطاع أوامره ثم أعاده الى حيث يقيم الرعاع والسفلة

(٤) النصيب : الشر والبلاء .

(٥) الديوان ص ٧٣٣ ــ ٧٣٥ .

ومن هـذا النص تتضح النية المبيتـة للشاعر وأن الهدف لم يكن تنفيذ حكم قضـائى وانما هو الانتقام من الشـاعر أبشع انتقام .

وتعرض الشاعر لآلام جسمية زادته هموما على هموم وقد يخفف عن المريض آلامه ما يلقاه من عواده من مشاركة وجدانية ولكن الحاكم منع عنه الزوار والعواد .

أفصـبر مئين خمسـا من الأيـ
ـام ؟ ناهيـك من عذاب مقيم
ومعنى من الضنى بهنـات
نكأت بالكلوم قـرح الكلوم (١)
سـقم لا أعاد فيـه وفى العـا
ئد أنس يفى ببـرء السـقيم (٢)

أما آلامه النفسية فلعلها أقسى من آلامه الجسمية ، فقد فشل فى حبه وخسر مكانته وانتهى به الأمر الى حيث ينتهى بالمجرمين والسفلة وحياته مهددة بالخطر ، هذا كله الى جانب شماتة الحساد وتنكر الأصدقاء الذين أذاقهم الوداد الصافى فانقلبوا عليه فى محنته ينهشون لحمه ويمزقون أديمه كالذئاب الضارية .

أذؤب هـامت بلحـمى
فانتهـاش وانتهـاس
كلهـم يسـأل عن حا
لى وللذئب اعتـاس (٣)

---

(١) الضنى : المرض ، هنات دواه ، نكأ الجرح قشره قبل أن يندمل فأدماه ، الكلوم الجروح .

(٢) الديوان ص ٢٨٢ ، ٢٨٣ .

(٣) الديوان ص ٢٧٦ ، الانتهاش : القضم بالأضراس والانتهاس : القضم بأطراف الأسنان ، اعتساس : تسلل فى الظلام .

وكان يحز فى نفسه أكثر من هذا كله ما يتصوره من حال أمه التى هو وحيدها « وغبت عن أم أنا واحدها تمتد أنفاسها شوقا الى ، وتفض أجفانها حزنا على والله يرى بكاءها ويسمع لى على من ظلمنى نداءها » (١) ومما يزيد فى أثر الصدمات أنها وقعت على رجل مترف مرفه نشأ فى مهاد النعمة وتقلب فى احضان النعيم واعتاد أن تكون له الصدارة فى كل مجال ، ثم هو رجل شاعر مرهف الاحساس مشبوب العاطفة تتلقى أعصابه الصدمات العادية مضاعفة فما بالك بهذه النكبات الفادحة ــ ولكنها مع ذلك أكسبته شدة ، وأفادته تجربة ولقنته عظات انتفع بآثارها فى مستقبل الحياة .

وأخيرا لم يجد بدا من الفرار فاستعان بصديقه ولى العهد كما حدثنا ابن حيان (٢) واذا كان ولى العهد لم يستطع أن يشفع لصديقه فى هذه الفترة فلعله استطاع أن يعاونه فى الفرار من سجنه . ولقد كان يخشى أن فراره من السجن يثبت التهمة عليه ويتيح للألسنة أن تتناوله وللأقلام أن تمزقه كل تمزيق ، وصدقت فراسته واضطر الى أن يدافع عن نفسه بسبب هذا الفرار .

فررت فان قالوا الفرار ارابة
فقد فر موسى حين هم به القبط (٣)

وانى لراج أن تعود كبدئها
لى الشيمة الزهراء والخلق البسط (٤)

ويقول فى رسالته البكرية « فلم أستطع صبرا ، وعلمت

---

(١) من الرسالة البكرية للشاعر ، الديوان ص ٧٥١ .

(٢) اعتاب الكتاب ص ٧٧ .

(٣) ارابة اتهام وشك ويشير الى فرار موسى عليه السلام بعد قتله أحد المصريين قال تعالى على لسانه « ففررت منكم لما خفتكم فوهب لى ربى حكما وجعلنى من المرسلين » .

(٤) الديوان ص ٢٩٢ ــ السبط : السهل الكريم .

انى قد أبليت عـــــذرا ... ولم أستجز أن أكون ثالث الأذلين العير والوتد (١) وذكرت أن الفرار من الظلم والهرب مما لا يطاق من سنن المرسلين ...

لا عار لا عار فى الفـــرار فقـــد
فــر نبى الهـــدى الى الغـــار »

... ووجدت الحر ينـام على الثكل ولا ينام على الذل ... فاستخرت الله عز وجل فى انفاذ العزم واضح وجه العذر ، ثابت قدم الحجـــة عنـــد من غض عين الهـــوى وخـــزن لســـان التعسف .. (٢) » .

ونفذ الشاعر عزمه ولا نعرف كيف نفذه على الرغم من الرقابة الدقيقة المفروضة عليه ، ولا شك فى أن هناك أيديا خفية قوية امتدت الى معونته وأعدت له فرسا مطهمة ؛ مكنته من اجتيـــاز المسافة بين قرطبة واشبيلية فى ليلة واحـــدة مع أن الأمد بينهما ثلاثة أيام (٣) ويرجح أوغست كورونيكل ونحن معهما فى أن لأبى الوليد ابن جهور يدا فى هذا الفرار (٤) ، وما كان لغير ولى العهد أن يجرؤ على تقديم هـــذا العون القوى السريع ؛ ونحن نعـــرف ما توبطه بالشاعر من صلات وثيقة .

ومن الطبيعى أن يلقى الشـــاعر حفـــاوة وترحيبا فى بلاط بنى عبـــاد مثل من سبقوه الى هـــذه الهجرة من قرطبة ؛ ومثل ابن زيدون يتنافس الملوك فى جذبه اليهم وبخاصة ملوك الطوائف ،

---

(١) العير : الحمار ، قال المتلمس :

ولا يقيـــم على ذل يـــراد بـــه
الا الأذلان عـــير الحى والوتـــد
هـــذا على الخسف مربوط برمتـــه
وذا يشـــج فـــلا يرثى له أحـــد

(٢) الديوان ص ٧٣٥ ـ ٧٣٩ .

(٣) المطرب لوحة ١٢٨ وقلائد العقيان ص ٧١

(٤) ابن زيدون عصره وحياته وأدبه ٢١١ ، ٢١٢ .

ولقد قربه المعتضد بن عباد منه فمدحه وهنأه بزواجه من بنت الأمير مجاهد العامرى حاكم دانية وجزر مينورقة وميورقة ويابسة (١) وكتب على لسانه اليه ـ والشاعر فى قصيدة التهنئة (٢) يوحى الينا بأنه كان يلازم مجلس المعتضد ، ويحضر معه مجالس انسه ويتساجلان السماع والشراب ، وأنه كان من المعتضد بمنزلة المشير الوزير ولقد كان لقب الوزارة يطلق على من يجالس الملوك ويشير عليهم ولكن قصيدة الشاعر توحى بأنه كان بمنزلة المشير الأول أو المشير الأوحد حيث يقول :

وأمنت عادية العدا الاقتال ، مذ
أعصمت فى أعلى يفاع حماكا (٣)
جهدا يفل نصيحة ممحوضة
أفردت مهديها فلا اشراكا
وثناء محتفل كأن ثناءه
مسك بأردان المحافل صاكا (٤)

ولقد رفع المعتضد الكلفة بينه وبين الشاعر فكان يهدى اليه الخمر والفاكهة والأزهار ويقبل هداياه ، ولا يكاد يصبر عن لقائه ، فلما احتجب فى أسبوع الزواج خاطبه الشاعر بقوله انه فى وحشة بالغة اليه مع أنه يعلم أنه فى أنس ونعيم ويترنم بما أغدقه عليه من احسان .

اسبوع أنس معقب لى وحشة
علما بأنى فيه لست أراكا

(١) هى الجزائر الواقعة شرق الأندلس ويطلق عليها الجغرافيون اليوم اسم جزائر البليار وكان لمجاهد أسطول بحرى قوى يهدد شواطىء فرنسا الجنوبية وغربى أيطاليا .

(٢) الديوان ص ٤٣٨ ـ ٤٤٥ ، ٢٣٧ .

(٣) الاقتال : المقاتلون ، أعصمت : احتميت ، يفاع : ذروة .

(٤) الأردان : الأكمام ، صاك : لصق .

فأنا المعـــذب غــير أنى مشـعر
ثقـــة بأنك ناعم فهنــــــاكا (١)

انى أقوم بشـــكر طولك بعـــد أن
ملأت من الدنيـــــا يدى يداكا (٢)

بردت ظـــلال ذراك ، واحلولى جنى
نعماك لى ، وصفت جمام نداكا (٣)

ثم يتقدم الى أميره معلنا استعداده لمعونته فى مهاجمة عدوه البغيض اللدود ـ ولعله يقصد ابن جهور الذى نقض بيعة هشام وسبه وسب من ناصره فيقول :

ولتدعنى وعـــدوك الشـــانى ، فان
يرم القراع يجد سلاحى شاكا (٤)

ولكن هوى الشاعر الغلاب وحنينه الى وطنه والى أهله جذبه الى قرطبة فعاد اليها مستخفيا قائلا « ان الذى اخترته الى نفسى غاية ما يسىء العدو به ، ويساء المولى منه ، فالجلاء أخو القتل والغربة أحـد السباءين (٥) ... وقد هجرت الأرض التى هى ظئرى (٦) والدار التى كانت مهدى ... (٧) » ولعله عاد الى وطنه مستخفيا باشـارة من ولى العهد طمعا فى أن يظفر من أبيه بالعفو عنه ، وكان هــذا التصرف من ولى العهد حكيما فان اسلام ابن زيدون الى بنى عباد سيرفع من شأن الشاعر وسيكون خطرا

---

(١) مشعر : عالم .
(٢) أنى : كيف ، طولك : غناك أو فضلك .
(٣) الذرا كل ما أظل الانسان أو أحسن اليه ، احلولى : حلا ، الجنى : الثمر الغض ؛ الجمام : المياه الغزيرة .
(٤) الشانى : المبغض ، القراع : القتال ، شاك : ظهرت شوكته وحدته .
(٥) السباء : الأسر .
(٦) الظئر : الحاضنة .
(٧) الديوان ص ٧٥١ .

اى خطر على قرطبة اذا لج بنو جهور فى العداء ؛ عاد الشاعر الى الزهراء احدى ضواحى قرطبة الجميلة على خوف وحذر ، ومن المكان الذى اختفى به وجه رسائله الى أصدقائه القدماء والى ابن جهور والى ولى العهد ثم الى حبيبته التى قهره هواها الغلاب هاتفا بها :

انى ذكرتك بالزهراء مشتاقا
والأفق طلق ، ووجه الروض قد راقا

وللنسيم اعتلال فى أصائله
كأنما رق لى ؛ فاعتل اشفاقا

ثم يختم قصيدته فى مناجاتها بقوله :

يا علقى الأخطر الأسنى الحبيب الى
نفسى اذا ما اقتنى الأحباب أعلاقا

كان التجازى بمحض الود من زمن
ميدان أنس جرينا فيه اطلاقا

فالآن ــ أحمد ما كنا لعهدكم ــ
سلوتم وبقينا نحن عشاقا (١)

ثم هو يناجى قرطبة فى شوق وحنين :

أقرطبة الغراء هل فيك مطمع ؟
وهل كبد حرى لبينك تنقع

---

(١) الديوان ص ١٣٩ ، ١٤٠ ــ العلق : الغالى : النفيس ، الأخطر الرفيع الأسنى الأضواء ، التجازى هنا : تبادل المجاملات الودية ، اطلاقا : فى حرية تامة ؛ والبيت الأخير معناه اننا فى الوقت الذى كنا فيه اكثر حمدا لوفائكم انصرفتم عن مودتنا وبقينا نحن عشاقا .

وهل لليالـيـك الحميـدة مرجع ؟
اذ الحسن مرأى فيك واللهو مسمع
واذ كنف الدنيـا لديك موطـأ (١)

معاهـد أبكيها لعهـد تصرما
أغض من الورد الجنى وأنعمـا
لبسنا الصبا فيهـا حبيرا منمنما
وقدنا الى اللذات جيشا عرمـرما
له الأمن ردء والغضـارة مربأ (٢)

كساها الربيع الطلق وشى الخمائل
وراحت لهـا مرضى الرياح البلائل
وغادى بنوها العيش حلو الشمائل
ولا زال منـا بالضحى والأصـائل
سـلام على تلك المـدائن يقـرأ (٣)

ثم عاد يبرر فراره من السجن :

ظعنت وكان الحـر يجفى فيظعن
وأصبحت أسلوب بالأسى حين أحزن

---

(١) لبينك : لفراقك ؛ الـكنف : الناحية او الظل ، وكنف الله : ستره ورحمته ؛ موطأ . ممهد ومهيأ .

(٢) الحبير المنمنم : الثوب الناعم الموشى ، ردء : ظهير ومعين ، الغضارة : السعة النعمة والخصب المربأ : مكان المراقبة .

(٣) الوشى : الزخرف والزينـة ، الخمائل : الشجر الملتف ، راحت : خفت وطابت الديوان ص ١٣٣ ــ ١٣٦ .

وفر على اليـــأس الفــؤاد الموطن

وأن بلادا هنت فيهـــــا لأهــــون

ومن رام مثلى بالدنيـــة أدنا (١)

وفى هـــذه الفترة ردد الشاعر أحلى الأغاريد ورتل أعذب الأناشيد ومنها قصيدته النونية الخالدة .

واخيرا نجحت الشفاعة ولم يكن هناك بد من نجاحها بعد أن بذل أصـدقاء الشاعر جهودا جبــارة ، وبعد أن أبدى الشاعر توسلات وضراعات عديدة وكبح جماح لسانه فلم يلجأ الى الهجوم أو الدفاع القاسى العنيف ، والشاعر بعد هذا حر طليق لا سلطان للأمير عليه ، واذا لج الأمير فى عنـاده أسلم الشاعر الى الحكام الآخرين وهم جميعـا يتطلعون الى جذبه اليهم ، وفى هذا خطر أى خطر على الأمير ، ثم ان الأمير لا يستطيع مع هذا كله أن يغضب جل ذوى الرأى والمكانة فى قرطبة ومعظمهم يرى الشاعر مظلوما ويرى عقابه قاسيا عنيفا .

عهـــد جـــديد

ما كاد الشاعر يخرج من سجنه حتى لقى ابن جهور ربه فى مدى عام أو بعض عام . وكان معظم الأمر فى بدايته صديق الشاعر أبو الوليـد بن جهور وكان قد مد يده الى الشاعر « وانتشله من نكبته وصـــيره فى صـــنائعه ولما ولى الأمر بعد والده نوه به وأسنى خطته » (٢) وهنا تطلع الشاعر لاستعادة مكانه فى قلب ولادة ، وهيهات هيهـات !! فقد انصرفت عنه الى غير رجعة ويقرر نيكل انها « صرفت سمعها عن توسلات الشاعر وضراعاته ولم يمض وقت طويل حتى تقهقرت من الحياة الأدبية الناشطة

(١) الديوان ص ١٣٦ ، ١٣٧ ظعن : رحل ، الأسى بضم الهمزة : ما يتعزى به الحزين .

(٢) الذخيرة ق ١ ج ١ ص ٢٩١ .

لتعيش فى حريم ابن عبدوس (١) » وكان أولى به أن يقول « على صلة بابن عبدوس « ليكون أدق تعبيرا ؛ واذا كانت ولادة قد انصرفت عنه ؛ فانه ظل يتغنى بها طول الحياة ، وكثيرا ما كانت عواطفه تخونه فتفلت منه بعض التعبيرات الوجدانية حتى فى مواقف الرثاء فقد رثى أبا الحزم بن جهور (٢) وواسى الحاكم الجديد قائلا فيه ما هو أقرب الى الغزل منه الى المديح ، وكثيرا ما تطفو نزعات العقل الباطن الى السطح من حيث يريد الشاعر أو لا يريد ، يقول بعد أن وصف النكبة وقدم العزاء الى الحاكم الجديد :

أهابت اليه بالقلوب محبة
هى السحر للأهواء ، بل دونها السحر
سرت حيث لا تسرى من الأنفس المنى
ودبت دبيبا ليس يحسنه الخمر

فان هذه المحبة الساحرة التى تسرى من النفوس فى مجال لا تبلغه الأمانى والأحلام ، ولا تصل اليه نشوات الشراب ألصق بالغزل الرقيق منها بالرثاء الحزين ، ثم يقول :

لبسنا لديه الأمن تندى ظلاله
وزهرة عيش مثلما أينع الزهر
وعادت لنا عادات دنيا ، كأنها
بها وسن ، أو هز اعطافها سكر (٣)

فما هى الدنيا التى يرنحها الكرى وتهز أعطافها المدام ، والتى أنست الشاعر أنه فى موقف رثاء ؟ ولقد جهد الشاعر بعد اليأس

---

(١) Hispano Arabic Poetry p. 119
(٢) الديوان ص ٥٢٣ — ٥٣٠ .
(٣) الديوان ص ٥٢٥ .

من حبيبته أن يضمن مشاعره العميقة مقدمات قصائده فى المدائح ليتجنب خلجات الشك ووساوس الظنون ، وتلمح فى هـــذه المقدمات اليأس المرير والصراع العاطفى العميق .

خليلى ما لى كلما رمت سـلوة
تعرض شـــوق دون ذلك حائل

أراح اذا راح النسيم شـــآميا
كأن شـــمولا ما تدير الشـــمائل

ضلالا تمادى الحب فى المعشر العدا
ولج الهوى فى حيث تخشى الغوائل(١)

ثم يرمى حبيبته بالغدر والخيانة فيقول :

ماذا يريبـك من فتى عز الهـــوى
فعنـــا لعزته بذلة خاضـــع

هل غـير أن محض الوفاء لغـــادر
أو غير أن صدق الوصال لقاطع (٢)

ثم قنع الشـاعر بترديد ذكرياته العـذبة فى الماضى وتغنى بها حينا بعد حين :

واها لعطفـك ، والزمان كأنمـــا
صبغت غضـــارته ببرد صـــباك

والليل ــ مهمـــا طال ــ قصر طوله
هاتى ــ وقد غفل الرقيب ــ وهاك

---

(١) الديوان ص ٣٩١ أراح : أجد ريح العبير الذكى أو أرتاح ، الشمول : الخمر الباردة ، الشمائل : الرياح الشمالية ، لج : ألج ومعنى البيت الأخير أن الحب تمادى ضـــلالا وجذبنى الى عدو لا الى حبيب واقحمنى فى غوائل واخطار .

(٢) الديوان ص ٤٠٠ .

ولطالما اعتل النسيم فخلته
شكواى رقت ؛ فاقتضت شكواك(١)

وقد رقاه أبو الوليد الى مرتبة السفراء وأوسع راتبه (٢) فنجح الشاعر نجاحا عظيما وعاد نجمه الى التألق ولا عجب فقد كسب تجارب عديدة الى جانب ذكائه وسعة ثقافته وقوة عارضته ووسامة مظهره وجلال منبته ؛ وهى جماع ما يراعى فى فى اختيار السفراء فى العصر الحديث ؛ وكان أبو الوليد بن جهور قد تهيأ ليهجر مجالس الشراب وينهض بأعباء الملك فى جلال ووقار حاذيا حذو أبيه ، وفى أثناء السفارات التى قام بها الشاعر اتصل بحاكم مالقة ادريس الثانى الملقب بالعالى وكانت فيه صفات تجذبه الى الشاعر وتجذب الشاعر اليه ، فقد كان متأدبا حسن اللقاء جيد الشعر ؛ وكان رقيقا لطيفا ولكنه كان يفسح مجالسه للطبقات الشعبية ولا يحجب نساءه عنهم ، وكل من طلب منه حصنا أعطاه اياه (٣) ولعل نفس الشاعر الطموح حدثته بآمال عظيمة لدى هذا الحاكم الذى يهب الولايات اذا وهب غيره الألقاب والأموال والذى يخلط نفسه بخلصائه ويرفع الكلفة بينه وبينهم حتى لا يحجب عنهم اماءه ونساءه ، وهو الى هذا يهتز للشعر ويثبت عليه ويجيد صياغته ، فأطال الشاعر مكثه لديه واقترب منه وخف على نفسه وأحضره مجالس أنسه (٤) ويظهر أنه نسى المهمة السياسية التى كلف القيام بها ، فلم يرتح ابن جهور لتصرف سفيره فان للسفير أن يسلك أيسر السبل للوصول الى أهداف حكومته ، ولكن عليه أن يتقيد بأوامرها وأن يلبى مطالبها ، أما أن

---

(١) الديوان ص ٣٤٥ ، واها : كلمة تعجب ، الفضارة : النعمة ، البرد : ثوب مخطط ، هاك : خذى والمراد تبادل الكئوس .

(٢) اعتاب الكتاب ص ٧٩ .

(٣) الكامل جـ ٧ ص ٢٨٩ والمقصود ولاه أياه ومعنى هذا تساهله فى توليه الولاة .

(٤) الذخيرة ق ١ جـ ١ ص ٢٩١ .

يقيم حيثما شاء وكيفما أراد مستهترا مع المستهترين ، فأمر لا تطيقه حكومة تعرف ما عليها من واجبات ، ثم ان امارة مالقة بربرية وحاكمها ادريس الثانى شيعى يدعى الخلافة ، ولقد قاست قرطبة من البربر ما قاست ، ولا تزال مطامعهم تحوم حولها ، وهذا الحاكم الشيعى يطمع فى اقامة خلافة علوية تضم الأندلس جميعها ؛ فهل يتأثر ابن زيدون بهذه المطامع وينسى دولته ويتآمر ضد أميره وصديقه ؟ ولابن زيدون خصوم أقوياء ما زالوا يتحينون الفرصة للقضاء عليه ، ومن الطبيعى أن ينتهز هؤلاء الخصوم الفرصة التى أتاحها لهم الشاعر بتصرفه الغريب ، وقد ارسل الأمير الى سفيره يعتب عليه ، فلم يستجب للعتاب فاضطر الأمير الى عزله من منصبه قبل رجوعه الى قرطبة (١) وللأمير عذره ولو كان الأمير السابق حيا لنكل بالشاعر كل تنكيل ، فان أهل قرطبة كانوا ينقمون على البربر ما انزلوه بقرطبة من فتك وتخريب وتدمير ، فاذا سالموهم الآن فليدفعوا بهم خطر بنى عباد لأنهم خطر على الطرفين ، ونحن نعلم أن والد الشاعر كان من المشايعين للبربر مما يحمل على اساءة الظن به فى هذا المقام .

أما ميل الشاعر الى ادريس فيقوم على التجاوب العاطفى بينهما ، وعلى أن الشاعر جريح يحاول أن يجد ما ينسيه أو يسليه حبه القديم ؛ ولكن كيف عاد الى قرطبة بعد عزله ، ولماذا آثر أن يترك مالقه التى وجد فيها انسه وأمانيه وعاد ليجابه خصومه وأعداءه وما قد يتعرض له من خطر عقاب الأمير ؛ الواقع أن الشاعر كان يطمع فى عفو الأمير فضلا عن تعلقه بقرطبة وبهواه القديم ؛ هذا الى أن عرش ادريس الثانى بمالقة كان مهتزا ، وكان البربر ينقمون عليه تدبيره السىء واقباله على اللذات وتهاونه فى التقاليد ولم يلبثوا أن عزلوه عن عرشه واقاموا مكانه ابن عمه

---

(١) المصدر والصفحة السابقين .

محمد بن ادريس ، فلم يبد أى مقاومة وبادر بالاستسلام (١) وعاد الشاعرالى أميره فقابله بالجفاء والاعراض فتضرع وتوسل اليه هاتفـــا به :

سرور الفتى ما لم يكن منك حسرة
وأرى المنى مالم ينـــل بك صاب
وان يك فى أهـل الزمان مؤمـل
فأنت الشراب العذب وهو سراب (٢)

ثم راح يذكره بمدائحـه فيـه وأفضال الأمير عليه آملا منه الا يهدم ما بناه ، وألا يضيع ما رعاه .

ولكن الأمير ظل يعرض عنـه ، وتألم الشاعر من هذا الاعراض وحز فى نفسه أن يلقى هـذه المعاملة بمرأى ومسمع من خصومه الأقوياء وأعـدائه الألداء ، وقد يحتمل الشـاعر العـزل فلديه من ثرائه ما يكفيه ، ولكنه لا يستطيع احتمال الذل والهوان ، فأخذ يلوح بالهجرة عن البلد الذى لقى به الهوان .

من مبلغ عنى البـــــلاد اذا نبت
أن لست للنفس الألوف بباخع (٣)
أما الهـــوان فصنت عنـــه صفحة
أغشى بهـا حد الزمان الشارع (٤)

وأخيرا ضاق الشاعر بقرطبة فهجرها الى غيرها من الامارات متصلا بحكام هذه الامارات وكان ينشد من وراء هذا الى أن يجد الأمير فرصة يراجع فيها نفسه ويتذكر صديق شبابه وأليف صباه

---

(١) ابن زيدون : عصره وحياته وأدبه ص ٢٢٧ ، ٢٢٨ .
(٢) الديوان ص ٣٨٤ الأرى : العسل : الصاب : المر .
(٣) تبت : تجافت وتباعدت ، باخع نفسه : قاتلها هما وحزنا .
(٤) الشارع : الشاهر سيفه او رمحه ، الديوان ص ٤٠١ .

فيعفو عن زلته ويعيده الى مناصبه ، واذا لم يتم هذا فان الشاعر يستطيع أن يختار لنفســـه المكان المناسب عند الأمير المناسب ؛ وتردد الشـــاعر على عـدة امارات منها امارة بلنسية . وامارة بطليوس ولكنه ـ كما يقول نيكل ـ أخطأ الوسط الملائم لمواهبه (١) ولعل الشاعر أخر اتصاله بالمعتضد بن عبـــاد الذى لقى منه كل حفاوة وتنويه لأنه خشى أن يكون الأمير قد وجد عليه لانصرافه عنه أو لعله كان يهاب ســطوته وغدره ، ولأن المعتضد كان مشهورا بالحدة والغدر والفتك بأقرب أصدقائه اليه ، وقد ضربنا أمثلة لهذا الغدر الشنيع (٢) ثم عاد الشاعر الى قرطبة ، وقد غفر الأمير له زلته وما كاد يستقر تحت ظلاله حتى قامت ثورة فى قرطبة تولى كبرها بنو ذكوان ، ونحن نعلم أنهم كانوا وثيقى الصـــلة بشاعرنا وبأبيه من قبله ، فلفحت هذه الثورة شاعرنا بما لم يكن له فى حساب ؛ والحـديث عن هـذه الثورة لم تتناوله المصادر التى بين أيدينـــا الا بلمحات خاطفـة غامضة أوضحها ما نقله ابن سعيد عن ابن حيان المعاصر لهذه الأحداث وخلاصته أن الأمير عزل ابن المكوى عن القضاء وعهد به الى ابى على حسن بن ذكوان لأنه كان عفيفا حازما « ذا صرامة وثروة ومرانة بالحكومة وان كان عاريا من العلم عاطلا عن الأدب ضاربا بأوفر حظ فى شكاسة الخلق وخشونة الطبع » ولكنه « استقل بالعمل لطول دربته بالحكم على نقصـــان العلم » كما عين الأمير أخاه أبا حاتم ذكوان بن محمد ابن ذكوان سفيرا ، ولـكن أحمد بن محمد بن ذكوان جمع رهطا وسعى فى الوثوب على الســلطان بقرطبة فانضم اليه عمه القاضى أبو على حسن بن محمد بن ذكوان « فعزله أبو الوليد بن جهور ســنة ٤٤٠ هـ وألزمــه منزله الى ان توفى ســـنة ٤٥١ وشهد

---

(١) Hispano Arabit Poetry p. 119

(٢) راجع ص ٦٨ ، ٦٩ من هذا البحث .

جنازته (١) » ولقد صاغ الشاعر قصيدة مسهبة تبرأ فيها من هذه الفتنة ومن القائمين بها يقول فيها :

قـل للوزير (٢) الذى تأميله وزرى
ان ضـــاق مضطرب أو هال مطلع
اصخ لهمس عتـــــاب نحتــه مقة
تكلف النفس منــــه فوق ما تسع
ما للمتاب الذى أحصفت عقـــــدته
قد خامر القلب من تضييعه جـزع
لا تستجز وضــع قدرى بعد رفعكه
فالله لا يرفع القــدر الذى تضع (٣)

ولكن ابن جهور بعد أن خذله أصدقاؤه انصرف عنهم جميعا ، وألقى بزمام الحـكم الى رجل حازم بعيد عن الشبهات منزه عن الأغراض هو ابراهيم بن يحيى المشهور بابن السقاء وفوض اليه الحكم فاستمر يباشره مطلق اليد نحو خمسة عشر عاما (٤) .

وهنا استبد اليأس بالشاعر وأشفق من الاقامة فى بلد كثير الفتن دائم الثورات تتطلع اليــه أعين الأمراء ويترقب كل منهم الفرصة لاحتلاله ، وكاد يقع فى يد البربر ثم وقع فعلا فى يد المأمون ابن ذى النـــون حاكم طليطلة لفترة محـــدودة حتى انتزعه منه بنو عبـــاد .

تطلع الشاعر الى بلنسية ، ولكنه لم يكن يستطيع أن يزاحم فيها أربعة من كبار الأدباء تمكنوا من نفس الأمير واستولوا على مشاعره ،

---

(١) المقرب جـ ١ ورقة ١٢٣ .

(٢) الديوان ص ٢٩٦ – ٣٠٤ كثيرا ما كان أمـراء الطوائف يلقبون بلقب الوزير أو الحاجب وأحيانا الخليفة .

(٣) المقة : الحب – أحصف : أحكم – الديوان ص ٣٠٠ ، ٣٠١ .

(٤) البيان المقرب جـ ٣ ص ٢٣٢ .

والشاعر لا يقنع بغير الصدارة فى أى مكان ، هؤلاء الأدباء الأربعة هم ابن طالوت وابن عباس وابن عبد العزيز وابن التاكرنى وقداشتهر بهم بلاط بنى عبد العزيز حتى سماهم الناس بالطبائع الأربع (١) - ثم تطلع الى المظفر صاحب بطليوس وكان قد وجه اليه رسالة رائعة ومدحه بقصيدتين رقيقتين ولقى منه حفاوة واقبالا ، ولكن المظفر كان يضع ثقته المطلقة فى وزيره وكاتبه أبى عثمان سعيد ابن خيرة (٢) ، واستعرض الشاعر غيرهما من الأمراء ، وفى كل مرة يعود به تفكيره الى المعتضد بن عباد لأن ميوله تتفق وميول الشاعر ولأنه شاعر أديب ، ومطامحه واسعة وامارته قوية تتسع شيئا فشيئا وتبتلع ما حواليها من امارات ، وقد جربه الشاعر فحمد التجربة واتصل به فسره الاتصال ، وللشاعر أصدقاء عديدون هاجروا من قرطبة الى اشبيليه وطاب لهم العيش فى ظل بنى عباد .

ولعل الشاعر كان يتوقع سقوط قرطبة فى يد المعتضد بعد زمن يسير فهى دانية القطوف سهلة التناول على بنى عباد لولا كثرة المتنافسين عليها من الأمراء . أما غدر الأمير بوزرائه والمقربين اليه فان الشاعر قد عرف المعتضد وخبر طباعه ، فمن السهل عليه ان يتجاوب معه ، وبخاصة بعد التجارب العديدة التى اكتسبها والأحداث العاصفة التى خاض غمارها ، وبعد أن اتصل بحكام عديدين فعرف ما يرضيهم وما يغضبهم من التصرفات .

واقتنع الشاعر بهذا فاتجه الى صديقه القديم أبى عامر ابن مسلمة الذى فر من قرطبة وأوى الى ظل المعتضد ابن عباد ينبئه بما تقتضيه العطلة من اظلام الخاطر وصدأ النفس ويسأله ان يتوسط عند المعتضد (٣) ولم تكن رغبة المعتضد فى ابن زيدون تقل عن رغبة ابن زيدون فيه ، لما يتصف به الشاعر من ظرف

---

(١) المصدر السابق ص ١٦٥ .

(٢) الذخيرة القسم الثانى ص ٣٩٥ .

(٣) الديوان ص ٧٦٣ - ٧٦٨ .

ولباقة وذكاء وشاعرية فذة وأدب بارع فضلا عن تجاربه العديدة في شئون الوزارة والادارة والسفارة ، ولمعرفته الدقيقة بأحوال قرطبة التى يتطلع الأمير الى التهامها فى كل حين .

وقام أبو عامر بن مسلمة بما عهد اليه الشاعر به خير قيام ونجحت الوساطة وتبادل الشاعر والأمير الرسائل (١) وأفاض الشاعر من مدائحه على الأمير ما أفاض ، ورحل الشاعر الى اشبيليه ليقضى فيها الشطر الثانى من حياته فى ظل بنى عباد فغمره المعتضد بحفاوته واحسانه ، وأنزله صديقه أبو عامر بمنزله والتف حوله أعلام اشبيليه من الشعراء والكتاب والعلماء . وبعد أن اطمأن لمقامه الجديد استأذن الأمير فى العودة الى قرطبة ليدير شئونه ويرتب أموره بها قبل الرحيل النهائى عنها فأذن له ، ومن قرطبة وجه الى الأمير رسالة شكر وثناء (٢) وأعلن عزمه على الدخول فى طاعته المقترنة بطاعة الله ، فتوالت عليه هدايا الأمير ، وردد الشاعر شكره على هذا الانعام :

وواصلنى جميلك فى مغيبى
وطالعنى نداك مع انتزاحى (٣)
ولم أنفك اذ عدت العوادى
اليك رهين شوق والتياح (٤)

وانتقل الشاعر من حياة الى حياة ، ومن بلاط الى بلاط ، ومن حياة عاصفة الى حياة متسمة بالهدوء والقرار .

---

(١) الديوان ص ٧٦٩ ، ٧٧٣ .
(٢) الديوان ٧٧٣ .
(٣) الديوان ٤٣٣ — ٤٣٨ .
(٤) انتزاحى : بعدى ، الالتياح : الظمأ — الديوان ص ٤٣٧ ، ٤٣٨ .

الفصل الخامس

سياسة حكيمة

لقـــــاء كريم

كان المعتضد حريصا على ضم ابن زيدون اليه ، فما كاد يفد اليه حتى غمره بحفاوته وبره « وجعله من خواصه يجالسه فى خلواته ويركن الى اشاراته فى صورة وزير (١) » وقابل الشاعر هــذه الحفاوة بالمبالغة فى الشكر والاغراق فى الثناء ويرجح أنه صاغ فى هــذه الفترة قصيدته المسهبة التى جاوزت الثمانين بيتا ، ومطلعها :

للحب ــ فى تلك القبــاب ــ مراد
لو ساعف الكلف المشوق مراد (٢)

وضع لهــا مقدمة غزلية تقليدية فى خمسة وعشرين بيتا ؛ ومن الطبيعى أن يتيقظ هواه فى هذه المقدمة على الرغم من حرصه على طبعها بالطــابع التقليدى ، فهو يعجب لتجلده ويقطع بأن الأمد بينه وبين حبيبته فسيح يحتاج الى جهاد طويل وبخاصة بعد أن أجاد حبك الشباك لصيدها فأفلتت منه ؛ وهو لا يطمع منها الآن الا فى صلة الخيال :

---

(١) الوافى بالوفيات المجلد الأول ص ٢٧١ .

(٢) المراد بفتح الميم : موضــع الارتيــاد وهو طلب الشىء المرغوب فيه ، الكلف : المحب ، مراد : أمل ــ الديوان ص ٤٤٧ ــ ٤٦٧ .

كم ذا التجلد ؟ لن يساعفك الهوى
بالوصل الا أن يطول جلاد
أعقيلة السرب المباح لوردها
صفو الهوى ، اذ حلىء الوراد (١)
ما للمصايد لم تنلك بحيلة ؟
ان الظباء لتدرى فتصاد (٢)
لا تقطعى صلة الخيال تجنبا
اذ فيه من عوز الوصال سداد (٣)

ثم يعتذر الى حبيبته كما يعتذر الى أصدقائه بأنه هجرهم فى خوف وضيق ليتمكن من العودة اليهم فى عزة وأمن واستعلاء ، ولعل فى هذا اشعارا بما كان يطمح اليه من معونة بنى عباد فى الاستيلاء على قرطبة وتوحيد شمل الولايتين ؛ وقد تحقق هذا الأمل ولكن بعد عشرين عاما ، وهو يحب أن يطمئنهم الى أنه لم يسترح الى بعدهم عنه .

من مبلغ عنى الأحبة ، اذ أبت
ذكراهم أن يطمئن مهاد
لا بأس ، رب دنو دار جامع
للشمل ، قد أدى اليه بعاد

ثم تخلص الى المديح تخلصا بارعا فقال :

ان اغترب فمواقع الكرم الذى
فى الغرب شمت بروقه أرتاد
أو أنأ عن صيد الملوك بجانبى
فهم العبيد مليكهم عباد

---

(١) العقيلة : كريمة الحمى ؛ السرب : جماعة النساء ، حلىء الوراد : طردوا فى عنف ، والمعنى ما أعذب وردك أيتها العقيلة لولا عنف القائمين على حراسته .
(٢) أدرى الصيد وتداره : أوقعه فى حبالته .
(٣) العوز : الحاجة والضيق ، سداد من عوز : ما تسد به الحاجة .

والشاعر هنا يبالغ فيجعل الملوك جميعا عبيدا للمعتضد ولكنه يريد أن يلبس مبالغته ثوب المنطق ويريد فى الوقت نفسه أن يرضى المعتضد باثبات نسبة القديم فى المناذرة ملوك اللخميين (١) — وان كان بعض المؤرخين يشك فى هذه النسبة — والشاعر هنا يؤكد هذه النسبة . ويستعرض تاريخ هذه الأسرة ليثبت أن الأمير عريق فى الملك سواء فى الجاهلية أو الاسلام وانطلق الشاعر فى هوايته التاريخية فاستعرض أسماء أشهر ملوك المناذرة وأمجادهم ، ثم وصف حفدتهم من بنى عباد وقرر أنهم زينوا أمجادهم التايدة بأمجادهم الطريفة ، ووصلوا حاضرهم العظيم بماضيهم الكريم .

بيت تود الشهب فى افلاكها
لو أنها لبنائه أوتاد
متقادم ؛ الا تكن شمس الضحى
لدة له ، فنجومها أرآد (٢)

ثم التفت الى مدح الأمير فجعله واسطة عقد هذا البيت الكريم :

نيطت بعباد لآلىء مجدهم
فتلألأت فى تومها الأفراد (٣)
أرج الحديث متى تفز بجواره
يطب الحديث ويعبق الترداد
لو أن خاطره الجميع مفرق
فى الخلق أوشك أن يحس جماد

---

(١) ملوك الحيرة قبل الاسلام واشتهر منهم المنذر بن ماء السماء والنعمان بن المنذر .

(٢) اللدة : الزميل والنظير ، ارآد جمع راد وهو وقت ارتفاع الشمس فى الضحى ، والمعنى هذا البيت قديم المجد ان لم يعادل الشمس فهو معادل للنجوم .

(٣) نيطت : علقت ، التوم : اللآلىء المزدوجة .

وبعد أن وصف الأمير بالشجاعة الخارقة والعزم المكين ؛ وصف جماله الرائع الذى تحوطه المهابة والجلالة « والأمير كان مشهورا بالوسامة والهيبة حقا » :

نفسى فداؤك أيها الملك الذى
زهر النجوم لوجهه حساد
تبدو عليك من الوسامة حلة
يهفو اليها بالنفوس وداد (١)
لم تشف منك العين أول نظرة
لولا المهابة راجعت تزداد

ثم ذكر ما لقيه من حفاوة وتكريم فى هذا الجناب الكريم ثم شفع قصيدته السابقة بقصائد أخرى أطلق نفسه فيها على سجيتها وأهدى الى المعتضد وتقبل هداياه وحضر معه مجالس شرابه ووصف هذه المجالس فى عبارات رقيقة ، وساجل الأمير ما كان يصوغه من الشعر العذب فى وصف هذه المجالس .

أهدى اليه المعتضد هدية من الراح والفاكهة وبعث معها بأبيات أجاب عنها الشاعر بقصيدة يقول فيها (٢) .

أمولاى بلغت أقصى الأمل
وسوغت دأبا نساء الأجل (٣)
وعمرت ماشئت فى دولة
تقصر عنها طوال الدول

ثم يقول :

---

(١) يهفو : يسرع ؛ المعنى لم تقنع العين بالنظرة الأولى اليك ولولا هيبتك وجلالك لعادت النظر اليك مرارا .

(٢) الديوان ص ٢٢٢ .

(٣) نساء الأجل : امتداد العمر .

لشرف مملوكك المستتر
ق نظم من الكلم المنتخل (١)
وراح تعيد الى من أسن
طيب زمان الصبا المقتبل (٢)

ودعاه الأمير الى حمام قصره وبعث اليه بطيب وبخور فكتب اليه شاكرا من أبيات (٣) :

رضاك لنا ـ قبل الطهور ـ مطهر
وقربك ـ من دون البخور ـ معطر
فلو عز حمام لأدفانا ذرا
يفيض به ماء الندى المتفجر (٤)
ولو لم يكن طيب لأغنت حفاوة
تمسك منها حالنا وتعنبر

وأباح له المعتضد النزهة مع بعض نسائه فى احدى حدائقه الخاصة . وبها حمام رخامى مفعم بالماء الحار والى جانبه تمثال مصقول لغادة هيفاء ، فوجه اليه الشاعر قصيدة عصماء وصف فيها الحديقة والحمام وأبدع فى وصف التمثال ثم خلص الى مدح الأمير (٥) قائلا :

ملك ذاد عن حمى الدين منه
من اليه فى نصره التفويض (٦)
أن أساء الزمان أحسن دأبا
مثلما باين النقيض النقيض

(١) المنتخل : المفضل المختار .
(٢) الراح : الخمر ، ويصفها بأنها تعيد الشباب الى الكهل المسن .
(٣) الديوان ص ٢٢٣ ، ٢٢٤ .
(٤) الذرا : الظل أو الكنف والستر ، تقول : أنا فى ذرى فلان أى فى حمايته ورعايته .
(٥) الديوان ص ٢٣٩ ـ ٢٤٢ .
(٦) ذاد : دافع ، التفويض التسليم المعنى : فوض الله الى الأمير نصرة الدين فدافع عن حماه .

ومن هنا تعلم منزلة الشاعر عند الأمير ، ولكننا نتساءل ما هى المناصب الرسمية التى شغلها فى بلاطه وأطلق لسانه عليها بالشكر الجزيل ؟ يجيبنا عن هـذا التساؤل ابن حيان بقوله « واجتذبه المعتضد عباد بن محمد فهاجر عن وطنه اليه ، ونزل فى كنفه ، وصار من خواصـه فى مجالسـه وفى خلواته ؛ وسفر له فى مهم رسائله لفضل ما أوتيه من اللسن والعارضة ؛ ثم كتب له بعد أبى محمد بن عبد البر (١) » ووصف ابن خاقان منزلة الشاعر فى بلاط الدولة العبادية بقوله : « فهشت له الدولة ، وتاهت به الجملة ، فأحمد اليها فراره وأرهفت النكبة غراره » (٢) ونحن نستطيع أن نبسط هذه الاشارات الموجزة ونعين ما وليه الشاعر من مناصب خطيرة :

١ ـ اتخـذه المعتضد ناصحا فى مرتبـة وزير ، ولقد جرب مشورته فحمدها وكان الشاعر يتطلع الى هذا المنصب أولا ؛ حيث كتب الى صديقه أبى عامر بن مسلمة عندما التمس وساطته الى المعتضد قبـل وفوده عليه فقال عن المعتضد « انه لن يقوم فى نجابة غرس اليد واصابة طريق المصنع من ولاية أخلصها ونصيحة أمحضها ، وشكر أجنيه الغض من زهراته » (٣) ورجا هذا فى أول قصيدة مدح بها المعتضد بعد أن أدى اليه :

وليستفيدن السـناء مـع الغنى
عبد يفيـد النصح حين يفاد (٤)

وفرح الشاعر بمنصب الوزير المشير حين أسند اليه فقال :

وعاضـد الدين الـذى
قـد كان قبـل يضـطهد

---

(١) اعتاب الكتاب ص ٧٩ .

(٢) الغرار : الحد قلائد العقبان ص ٧١ .

(٣) الذخيرة ق ١ جـ ١ ص ٣٣٩ ، ٣٤٠ .

(٤) السناء : الرفعة ـ الديوان ص ٤٦٦ .

شـــــــــاورنى في أمـــــــره
شـــيحان ، لو شـــاء استنــد (١)

٢ ـ رفعــه الى مرتبــة ذى الوزارتين وهى مرتبة يستطيع الوزير فيها أن يشير وأن يباشر سلطة التنفيذ ، والى هذا أشار ابن نبــاته فقال « فتلقــاه المعتضـــد بالقبول والاكرام ، وولاه وزارته ، وفوض اليه أمر مملكته » (٢) وذكر كور فى بحثه عن الشاعر بدائرة المعارف الاسلامية أنه « كان كاتم سر المعتضد وكبــير وزرائه (٣) » وقد ســــــماه صـــــاحب المعجب باسم « ذى الرياستين » (٤) وسماه الذهبى باسم « الصاحب » (٥) متأثرا فى هــذا بألقاب المشــارقة ، والصاحب عندهم يطلق على رئيس الوزراء المتصرف فى شئون الدولة كالصاحب بن عباد ؛ ويذكر فيليب حتى ؛ أن المعتضـــــد ولاه رياســـــة الوزارة وامارة الجيش (٦) » أما رياسة الوزارة فأمر معقول ، وأما رياسة الجيش فاننا لا نعلم من أين استقاها المؤرخ وليس بين أيدينا من المصادر ما يدل عليها ، وما نعلم أن الشـاعر باشر الحروب أو قاد الجيوش ونعلم أن قيادة الجيش كانت لأبناء المعتضد .

٣ ـ استغل المعتضد مهارة الشـاعر فى السفارة بينه وبين الملوك المجاورين « لفضل ما أوتيه من اللسن والعارضة (٧) » وقد استفاد الشـاعر من تجاربه السـابقة ما أعانه على النجاح وجنبه الأخطاء .

---

(١) من قصيدة وجهها الى المعتمد فى حياة ابن المعتضد ، عاضد الدين ناصره الشيحان الغيور والحازم ، الديوان ٦٠١ ، ٦٠٢ .

(٢) سرح العيون ص ٤ .

(٣) V.2 p. 457

(٤) المعجب ص ١٠٥ .

(٥) سير النبلاء ج ١١ سفر ٢ ص ٢٠١ .

(٦) تاريخ العرب (مطول) ج ٣ ص ٦٦٤ .

(٧) اعتاب الكتاب ص ٧٩ .

٤ — رفعه المعتضد مع هذا الى منزلة أمير الشعراء فى بلاطه الغاص بالشعراء المتنافسين على هذا المنصب ، ولهذا وصفه ابن تغرى والذهبى بأنه « حامل لواء الشعر فى عصره (١) » ووصفه ابن الصيرفى بأنه « وزير آل عباد وشاعر تلك الطبقة والمتقدم فيهم (٢) » وكثيرا ما كان يسمى بشاعر المصر .

٥ — غضب المعتضد على كاتبه أبى محمد عبد الله بن يوسف ابن عبد البر وكاد يفتك به ، وفكر فى اسناد هذا المنصب الى الكاتب الشهير أبى محمد الباجى ، وكان شاعرنا يتطلع أن يضم الى مناصبه العديدة هذا المنصب الخطير حتى ظن بعض معاصريه أن له يدا فى عزل ابن عبد البر — وقد نجح الشاعر فيما أراد بمعونة صديقه أبى محمد بن الجد (٣) — وهذا المنصب يتيح لصاحبه أن يتحدث باسم الدولة وأن يكتب عنها المكاتبات الرسمية وهو يشبه الى حد كبير منصب رئيس الديوان الملكى الآن . وهنا جمع الشاعر فى قبضة يديه أهم مناصب الدولة ونال أسمى ما كان يتطلع الى بلوغه من الرتب والألقاب ، والى هذا يشير ابن دحية بقوله ان المعتضد « ألقى مقاليد وزراته اليه ، وأفاض الخلع السوابغ عليه (٤) » ولقد صاحب التوفيق شاعرنا فى جميع ما اضطلع به من أعباء فتوالت فتوحات المعتضد الحربية والسياسية واتسعت رقعة دولته ، ويقول ابن خاقان فى حديثه عن المعتضد ان ابن زيدون « أظهر صولته ، ودبر دولته ، وأدحى ضحاها وأدار بالمكارة رحاها (٥) » ولكن هل مرت حياة الشاعر

---

(١) المختار من شعر شعراء الأندلس الورقة ١٠ .

(٢) الذخيرة ق ٢ ص ١٠١ .

(٣) الذخيرة ق ١ ج ١ ص ٢٩٠ .

(٤) المطرب لوحة ١٢٨ .

(٥) قلائد العقبان ص ١٤ ، دحى : الشيء مطه ووسعه ، ولم ترد أدحى فى معاجم اللغة ، ولعله أدجى بمعنى اظلم أفقها على الأعداء .

هنيئة مع المعتضد المشهور بالقسوة والغدر والفتك بأقرب الناس اليه ؛ ان طبيعة الحياة تأبى أن يطوى الانسان عشرين عاما فى مثل هذا البلاط الحافل بالدسائس والمؤامرات والغدر دون أن يلحقه منها رشاش ، ان المؤرخين لم يذكروا لنا شيئا الا بعض اشارات عارضة فى بعض المصادر التاريخية ، وفى شعر الشاعر ؛ تشير الى ما قاساه الشاعر من مشقة واعنات استطاع بلباقته وحسن تأتيه وذكائه وتجاربه السابقة أن يسلم بجلده منها وسنشير اليها فيما يلى بايجاز .

سحابات عارضة

قضى الشاعر فى ظل المعتضد عشرين عاما تعرض فيها لمتاعب عديدة أشار اليها كور بقوله « لم تكن حياة ابن زيدون باشبيلية هادئة كل الهدوء الذى يشير اليه ابن خاقان ولا خالية من المتاعب كما توحى قصائد الديوان (١) » ولكن كور لم يذكر لنا المتاعب التى عاناها الشاعر فى هذا البلاط ، ولم يذكر المصدر الذى رجع اليه فيما رواه ، ولعله اكتفى بالاستنتاج أو بما أشار اليه ابن خاقان من كثرة أعداء الشاعر ومنافسيه فى مناصبه وفى مكانته عند الأمير ، وأنهم كانوا يعتقدون أن الشاعر وراء الأمير فيما يقوم به من بطش وغدر وانتقام وهذه هى عبارة ابن خاقان عن ابن زيدون : « أظهر صولته (٢) ودبر دولته ... وأغراه بأعدائه (٣) وزين له الايقاع بهم ، فغدا شجا فى صدورهم ونكدا فى سرورهم (٤) » ومن الطبيعى أن يكيد هؤلاء جميعا لابن زيدون ، ولكن الشاعر تحاشى جهده أن يصطدم بهم ، وجهد أن يفعل كل ما يرضى الأمير ،

---

(١) Ibn Zaidoun P. 116

(٢) صولة الأمير .

(٣) أعداء الشاعر .

(٤) قلائد العقيان ص ١٤ .

وتجنب أن يرتكب ما يغضبه أو يجافى هواه وسنضرب أمثلة لبعض المواقف القاسية التى تعرض لها الشاعر من منافسيه ومن الأمير :

كانت نفس المعتضد تثور بنزعات شريرة فاذا احتدمت فيه هذه النزعات فتك ببعض خاصته ، واذا تطاحنت هذه النزعات اكتفى بالايقاع بين ندمانه وسماره ليتسلى باثارتهم ومشاهدة الصراع بينهم ، وكلما هدأت حدة الصراع زادها اشعالا (١) ، ولقد أصاب ابن زيدون من هذه النوازع لفحات لولا كياسته وحكمته لقادته الى الهلاك – كان فى بلاط المعتضد شاعر كبير اسمه أبو الحسن على بن غالب بن حصن ينبىء القليل الباقى بين يدينا من شعره على أنه شاعر موهوب يجيد صياغة الشعر فى قوة وسلاسة ولا يكاد يتخلف عن ابن زيدون الا فى الغزل المنبعث عن عاطفة جياشة وهو مشبوب ، وقد دهش ابن بسام من تجاهل بعض الأدباء له فقال : « وانى لأعجب من قوم من أهل أفقنا لم يعرفوه ولم ينصفوه فأضربوا عن ذكره ، وزهدوا فى اعلاق شعره ولعلهم حاسبوه بخزعبلات كان يعبث بها بين مجونه وسكره ، وهيهات !! فضله أشهر واحسانه أكثر (٢) » وقد أورد ابن بسام طائفة صالحة من شعره تؤيد رأيه كل التأييد ولم يكن شاعرا فحسب ، ولكنه كان كاتبا نابغا أعجب المعتضد بكتابته فجعله كاتبا له ووزيرا (٣) .

فلما وفد ابن زيدون على المعتضد وارتفعت مكانته عنده وجد فيه ابن حصن منافس خطيرا وأحس بالموجدة عليه وشعر المعتضد بهذا فانتهزها فرصة للايقاع بينهما اشباعا لأهوائه ونوازعه الشريرة ، فأشعل نيران الحفيظة بين الشاعرين وأثار كوامن الحقد فى نفسيهما ووقف يرقب الصراع بينهما بعين قريرة راضية

---

(١) راجع ص ٦٨ – ٧٠ من هذا البحث .

(٢) الذخيرة ق ٢ ص ٩٢ .

(٣) المقرب جـ ١ ورقة ٣٠٣ ورايات المبرزين ص ٨ .

تتلذذ بمنظر الشحناء واراقة الدماء ؛ ولكن الأحداث التى مرت بابن زيدون أكسبته خبرة ودراية بطبائع النفوس فآثر السلامة ولاذ بالصبر والأناة ودافع خصمه بلين ورفق واحتمله ما وسعه الاحتمال ، أما ابن حصن فاندفع فى طيش وخفة ونزق يستثير الشاعر ويهجوه معتمدا على بديهة متحفزة تساعده على ارتجال الشعر ؛ وكان ابن زيدون فى هذه الفترة يتجنب الارتجال ـ الا فى حالات اللهو ـ لأنه لا يجب أن يؤثر عنه الا الجيد المتقن ، ولعله كان يشفق أن يندفع مع عواطفه فتند عنه عبارات لا يستسيغها المعتضد ولا المقربون منه ، ولم يكن هذا الحرص ناشئا عن وعى فنحن نعلم عن ابن زيدون قوة العارضة واللسن كما شهد له بذلك معاصروه وفى مقدمتهم ابن حيان (١) ، وله مواقف عديدة تشهد له بسرعة البديهة سنعرض لها فى الفصل التالى ان شاء الله .

امعن ابن حصن فى تحدى ابن زيدون والتشهير به والسخرية منه بمناسبة أو غير مناسبة ، فلقد مدح المعتضد بقصيدة مسهبة جزلة (٢) ولكنه لم ينس فى هذا المقام أن يغمز ابن زيدون « شاعر المصر » فقال فى وصف قصيدته :

فدونك عذراء المعانى ابتدعتها
تساعدنى عفوا ولم تتعذر
اذا ما الرواة استنشدتها تبرقعت
لها أوجه من حشمة وتغير
وينكل عنها شاعر المصر كله
الا فاضحكن من شاعر المصر وافخر

ولم يكتف بهذا اللمز فأمعن فى تحدى ابن زيدون طالبا الى الأمير أن يحكم بين شعريهما ، ويقدم منهما من يستحق التقديم

---

(١) الذخيرة ق ١ ج ١ ص ٢٩٠ .
(٢) المصدر السابق ق ٢ ص ١٠١ .

مدعيا أن ابن زيدون يعتمد فى ترويج شعره على جودة الالقاء وحسن الانشاد ، ويرميه بأنه يكرر فى معانيه دلالة على فقره الفنى .

ودونك فاحكم بين شعرى وشعره
بذهن ذكى ، ثم قدم وأخر
ولست بكاسيها مدى الدهر حلة
بنغمة انشاد ، ولا بمكرر
وما أنت ممن يحمد السيف عنده
لجودة صقل ، وهو غير مذكر (١)

ومن الطبيعى أن ابن زيدون لم يقف من هذه المنافسة مكتوف اليدين ولكنه لجأ الى الحيلة والأناة وانتهاز الفرص السانحة حتى تسنى له التخلص من خصمه العنيد ؛ ويحدثنا ابن سعيد « ان ابن زيدون لم يزل يسعى فى حتف ابن حصن بمكره حتى فتك به المعتضد (٢) » وقد سجل ابن بسام الصفحة الأخيرة من هذا الصراع بقوله : « وهو يظن (٣) أنه سيجرى بالخلاء (٤) ويستولى على حمل اللواء ، فانتحاه من ابن حصن شيطان مريد ، وطلع عليه منه رقيب عتيد وطفق ينازعه الراية ويسابقه الى الغاية وان كان أبو الوليد ربما غمره بمكانه وتمكنه من سلطانه ؛ وكان المعتضد لشذوذ مناحيه ، وفضل عربدة كانت فيه ، ربما أغرى بينهما اذا اجتمعا فى مجلسه ، فيتمكن لابن حصن التقديم عليه بسعة ذرعه ورضاه بالعفو من طبعه ؛ وكان ابن زيدون قد جرى من الكلام الى غاية لا يتعداها ، ولا يرضى من نفسه الا بلوغ أقصاها ولا يمكنه ذلك منها الا فى مهلة طويلة

---

(١) المصدر السابق ق ٢ ص ١٠١
(٢) المغرب ج ١ ورقة ٣٠٢ .
(٣) يقصد ابن زيدون .
(٤) ينطلق دون عقبات .

وعلي كلفة ثقيلة ؛ فربمـا كبا جـواده وتأخر مراده ، ولم يزل ابو الوليد يطرق ويحلم ، ويسدى فى أمره ويلحم (١) وابن حصن يفتر ويقـدم ، ففـاز ابن زيدون بحلمـه وتوقـره وهوى نجم ابن حصن بين اغتراره وتهوره فزلت قدمه وطاح دمه (٢) » .

وهناك خصومة ثانية عنيفة قامت بين الشاعر وبين الكاتب المشهور أبى محمد عبد الله بن يوسف بن عبد البر ، وكان قد نال شهرة ذائعة فى تحبير الرسائل جعلت امراء الأندلس يحرصون على الظفر به « فتهادته الآفاق وامتدت اليه الأعناق ، ففاز به قدح عباد بعد طول خصام ، والتفاف زحام ، فأصـاخ أبو محمد لمقاله (٣) وتورط فى حباله ، وغص أبو الوليـد بن زيدون بمقدمه فجهر كل جهر (زعموا) فى اراقة دمه » (٤) .

ونحن لا نعرف أحـداث هـذه الخصومة ولكننا نعلم أن ابن زيدون كان يتطلع الى منصب الكتابة للمعتضد بعد أن أزاح من طريقه ابن حصن ؛ ونعلم أن المعتضد كان حريصا على أن يجذب الى بلاطه فحول الشـعراء ونوابغ الـكتاب وأنه جذب اليه ابن عبد البر بعـد أن طبقت شهرته الآفاق وتنافس الملوك فى جذبه اليهم ؛ ولعل ابن زيدون رأى فى مقدمه غضا من مكانته الأدبية فضاق بمكانه وربما كاد له عند المعتضد ؛ ولقد كاد المعتضد يفتك بابن عبـد البر جريا على عادته مع خلصـائه لولا أن والده عالم الأندلس الكبير يوسف ابن عبد البر (٥) انقذه من مخالب المعتضد

(١) ينسج له الشباك ، يسدي يحكم الخيوط العرضية ، يلحم : يحكم الخيوط الطولية .

(٢) الذخيرة ق ٢ ص ٩٢ ، ٩٣ .

(٣) مقال المعتضد بن عباد ، اى انجذب الكاتب لوعوده .

(٤) اعتاب الكتاب ص ٨٣ .

(٥) هو العلامة الكبير ابو عمر يوسف بن عبد البر (٣٨٦ – ٤٦٣ هـ – ٩٧٨ – ١٠٧٠ م) صاحب المؤلفات العلمية العديدة وقد بقيت لدينـا طائفة صالحة منها .

بعد جهد كبير ؛ ويرجح ابن الأبار أن من أسباب غضب المعتضد على ابن عبد البر رسالته الأخيرة التى كتبها فى تبرير فتك المعتضد بابنه وولى عهده اسماعيل ، وذكر أنه كتب هذه الرواية دون روية (١) وقد راجعنا هذه الرسالة فوجدنا ابن عبد البر كتبها على لسان المعتضد تلبية لطلبه ليبرر بها فعلته ، وليس فيها مأخذ عليه (٢) ؛ ولكن المعتضد كان فى هذه مضطرب الأعصاب مختل التفكير عقب فتكه بابنه ، وأن الغضب استبد به وهاج قرمه الى الدماء فأخذ يفتك بالكثيرين من حاشيته حتى بخدمه ونساء قصره (٣) ويرجح أوغست كور أن ابن زيدون « كان على علم بتطورات هذا الموقف وأن له دورا سياسيا لا شك فيه (٤) » . ولكنه لم يذكر مصدرا لهذا الترجيح ، وسبب فتك المعتضد بابنه أنه جهزه لفتح قرطبة فشق عصا الطاعة على أبيه ونكل عما عهد اليه به وتآمر على أبيه فذبحه بيده .

هذان موقفان يصوران ما قاساه الشاعر فى هذه الفترة وأن حياته لم تكن خالية من الأخطار ، وقد صور الشاعر حياته فى هذا البلاط بأنها جنة محفوفة بالمكاره :

من لى بشكر نعمة
الحر فيها معتبد
سوغت منها العزة الـ
قعساء فى العيش الرغد
حيث أضاف منهل
صفا الى ظل برد

---

(١) اعتاب الكتاب ص ٨٣ .

(٢) راجع الرسالة بتمامها عند دوزى فى كتابه HistoriaAlladidaraml.253-256

(٣) ملوك الطوائف ص ١٤١ – ١٤٧ والبيان المقرب جـ ٣ ص ٢٤٤ .

(٤) Hispano Aralir Poetry P.119

كأنهـــــا لى جنــــــة
حفت بمـكروه الحســــــد (١)

والواقع ــ كما يقول نيكل ــ « أن رجلا خالص النصح واسع الثقافة بارز المكانة كابن زيدون كان جـــديرا بما ناله من منزلة مرموقة ، ولكن مواهبه ومنزلته جلبت عليه عداوة الكثيرين (٢) » ولقد بقيت لدينـا بضعة أبيات من قصيدة ضاع معظمها ، وهى تنطق بعتاب مر وجهــه الشاعر الى الأمير يوحى بأن الأمير نفاه أو وجهه الى مكان مقفر فى صحراء جرداء فترة من الزمان ، ولم يبق من القصـــيدة غـير أبيـات أربعة جاءت فى نســخ الديوان المخطوطة ولا نعرف المناسبة التى قيلت فيها القصيدة ولكنها توحى أن المعتضد أراد ابعاده أو أبعده عن اشبيليه الى مكان مقفر فى صحراء جرداء فتوسل اليه الا يجود به على هذه المفازة ، فالجود بالأموال غير الجود بالرجال ؛ وذكره أنه جدير منه بالصون ، وأنه ما كان يخطر له ببال ان يفذ السير فى هذه الصحراء .

ويظهر أن الشاعر لقى من أميره استجابة طيبة فانه ظل يعيش فى كنف الأمير حتى انتهت حياة الأمير ــ ومن الانصاف أن نذكر أن الشاعر ــ كما لقى عـــداء كثيرين ــ ظفر بصداقات كثيرين من الاخوان الأوفياء المخلصين كالمعتمد ولى العهد ، وكابن خلدون (٣) وابن القصيرة ، بل كانت صلاته بالمعتضد نفسه أقرب الى صلات الاخوة والمحبة ورفع الكلفة منها الى الصلات الرسمية ، ولهذا يتميز شعره فيه بظاهرتين مقابلتين أولاهما الصفة القائمة على المناصب والتقاليد الرسمية وشعره فيها رصين تقليدى ، والصفة القائمة على الأخوة والمودة الدائرة حـول مجالس اللهو والشراب والاهــداء والاســتهداء وشعرها ســهل رقيق يتسم بالارتجال

(١) الديوان ص ٦٠٤ ، ٦٠٥ .
(٢) Ibn Zeidoun P 119-120
(٢) لعله جد المؤرخ المشهور .

والظرف والبعد عن التكلف وتجنب المبالغات مثل قوله مع هدية تفاح أرسلها الى المعتضد :

يا من تزينت الرياســــة
حين البس ثوبهـــــا
ولــه يــد ينس الغمـــا
م من أن يعــارض صــوبها (١)
جاءتك جامـــدة المـــدا
م فخـــذ عليهـــا ذوبهـــا (٢)

ويقول في استهداء المعتضد خمرا :

يا بانيــــا كل مجـــد
وهـــادما كـــل وجـــد (٣)
جسم السرور ســـوى
من صـــوغ نعمـــاك عنـــدى
فهـــب لـــه روح راح
ينطق بأحفـــل حمـــد (٤)

ومن الغريب أن الشـاعر لم ينس في حيـاته الجديدة هواه القديم ، والى هذا يشير ابن خاقان بقوله « ولما حل من المعتضد بالمكان الذى حل ، وانتكث عقد شدائده وانحل ، تسلت نفسه من شجونها ، وحنت الى صفا ولادة وحجونها ، وتذكرها وما تناساها وعاودته لوعته وأســاها ، وحن اليها حنين من حيل بينه وبين ما يشتهى ، وقنع باهداء تحية تبلغ اليها وتنتهى ، فقال يتغزل ويمدح المعتضد ... (٥) » ثم سرد قصيدته الفائية الطويلة في مدح المعتضـــد ومقدمتها الغزليـــة التى تشيع فيها العاطفة التقليدية

---

(١) الصوب : نزول المطر .
(٢) الديوان ص ٢٢١ ، ٢٢٢ .
(٣) الوجد : الحزن .
(٤) الديوان ص ٢٢٣ .
(٥) قلائد العقيان ص ٩١ .

المناسبة للموقف الرسمى (١) ؛ ومن القصائد الغزلية التى صاغها الشاعر خالصة للغزل ناطقة بالحنين على بعد الديار قصيدة أغفلها الديوان وحفظها لنا المراكشى يقول فى مستهلها (٢) :

هل تذكرون غريبا عاده شجن
من ذكركم ؟ وجفا أجفانه الوسن
يخفى اواعجه والشوق يفضحه
فقد تساوى لديه السر والعلن

ثم يتساءل عن أحبابه الذين هجروه واضطغنوا عليه هل يعودون الى حفظ العهود كما استمر هو فى حفظها ؟ وهل يعود الماضى القديم كما كان ؟ :

يا هل أجالس أقواما احبهم
كنا وكانوا على عهد فقد ضغنوا
أو تحفظون عهودا لا اضيعها
ان الكرام بحفظ العهد تمتحن

ويدعوه الحنين الى تعقب أبنائهم بعده فلا يجد من يجيب

ما للركائب ما تهدى لنا خبرا
سدت مسالكها ؟ أم صمت الأذن ؟
اسائل البرق : هل وافى بربعكم ؟
وهل أناخ عليها الوابل الهتن ؟ (٣)

ثم يتذكر أنه فى العيد وأن هذا اليوم السعيد يجمع الأهل بالأهل والأحباب ؛ بالأحباب ، وأن الفرحة تعم فيه الجميع ، وانه وحده المحروم فيه :

---

(١) الديوان ص ٤٧٩ – ٤٩٨ .

(٢) الديوان ص ١٦٢ نقلا عن المعجب ص ١٠٠ .

(٣) هذان البيتان سقطا من المعجب وحفظهما لها صاحب مسالك الابصار وان كان ينسب القصيدة كلها الى ابن الوضاح المرسى المعروف بالبقيرى ؛ ولكن المراكشى صاحب المعجب اقدم منه عصرا واكثر تثبتا .

ان كان عادكم عيـــد فرب فتى
بالشـوق قد عاده من ذكركم حزن

وأفردته الليـالى من أحبتـه
فبات ينشـدها مما جنى الزمن

« بم التعلل ؟ لا أهـل ، ولا وطن
ولا نديم ، ولا كأس ، ولا سكن (١) »

وبدأ المعتضد يستعد لفتح قرطبة بعد أن مهد لهذا الفتح بكل الوسائل ولكن المنية عاجلته سنة ٤٦١ وأتم ابنه المعتمد ما بدأه أبوه واستولى على قرطبة سنة ٤٦٢ هـ .

روى ابن الأبار أن ابن زيدون فرح بموت المعتضد « وأظهر سرورا بذلك واستراحة منه ، لأنه كان غير مأمون على الدماء . ولا حافظا لحرمة الأولياء فقال يهجوه » :

لقـد سرنا أن النعى موكل
بطاغيـة قد حم منـه حمام

تجانف صوب الغيث عن ذلك الصدى
ومر عليـه البرق وهو جهام (٢)

وقد أيد الصفدى وابن شاكر رواية ابن الأبار (٣) ولا عجب فى أن يرهب ابن زيدون المعتضد فقد كان جبارا لا يرحم فتك بابنه وولى عهـده اسماعيل ، وكاد يفتك بابنه الثانى وولى عهده المعتمد (٤) ويقول الحجارى أنه « ما مات حتى قبض أرواح ندمائه

(١) البيت الاخير مقتبس من مطلع قصيدة للمتنبى .

(٢) الحلة السيراء « النسخة المصورة بالجامعة العربية لوحة ٦٨ » تجانف : عدل ومال جهام : لا مطر فيه ، الصدى : الجثمان .

(٣) الوافى بالوفيات المجلد الثانى ص ٦١٩ وفوات الوفيات جـ ١ ص ١٩٩ .

(٤) قلائد العقبان ص ١٩ .

وخواصه وكان قد عرف عنه ذلك فصار الأدباء يتحامونه » (١)

ولكننا نعلم أن الشاعر نال من آلاء المعتضد فوق ما كان يتطلع اليه ، وأنه كانت بينهما مودة وصداقة وانعطاف ، ونعرف أن ابنه الحاكم الجديد من أقرب المقربين للشاعر ، فما الذى يدعوه الى الهجاء ؟ ولكننا نصدق ما رواه ابن شاكر والصفدى من أن ابن زيدون « سئل : كيف انفرد بالسلامة من المعتضد ؟ فقال : كنت كمن يحسك بأذنى الأسد يتقى سطوته تركه أو أمسكه » فهذا القول أشبه بابن زيدون وليست فيه اساءة للراحل الفقيد ، ولا اولى العهد الجديد وما كان ابن زيدون ليستقبل الحاكم الجديد بهجاء أبيه الذى احسن اليه وأكرم مثواه ، وبخاصة أن الحاكم الجديد تربطه بالشاعر أوثق الصلات .

مع المعتمد بن عباد

وفد الشاعر على اشبيلية والمعتمد فى سن العاشرة ولم يكن وليا للعهد فى ذلك الحين ولكنه أصبح وليا للعهد بعد نكبة أخيه اسماعيل ، وقد ظهرت مواهب المعتمد الشعرية مبكرة فتطلع الى ابن زيدون يتأدب على يديه ويقتبس منه ويطارحه المقطوعات الشعرية ويساجله النغمات الأدبية ؛ ولما أصبح وليا للعهد تدرب على يديه فى الشئون الادارية والسياسية وانزله من نفسه أسمى منزلة وأحله من قلبه أجل مكان أمر المعتضد أن يكون مجلس ابن زيدون منخفضا عن مجلس ولى عهده وابنه المعتمد فى ترتيب المجالس الرسمية ، وهذا أمر طبيعى ، ولكن حب المعتمد لأستاذه وتعلقه به حمله على أن يكتب اليه معتذرا :

أيها المنحط عنى مجلسا
وله فى القلب أعلى مجلس

---

(١) الوافى بالوفيات مجلد ٢ ص ٦١٨ الوافى بالوفيات المجلد ٢ ص ٦١٩ وفوات الوفيات جـ ١ ص ١٩٩ .

بفؤادي لك حب يقتضي
أن ترى تحمل فوق الأرؤس (١)

فأجابه الشاعر بقصيدة طويلة يقول فيها :

أسقيط الطل فوق النرجس ؟
أم نسيم الروض تحت الحندس (٢)
أم قريض جاءنى عن ملك
مالك بالبر رق الأنفس (٣)

ومن هذا نعلم مكانة الشاعر عند الأمير الجديد وأنها تفوق مكانته عند أبيه ؛ وان ديوان الأمير وديوان الشاعر ليفيضان بالمطارحات الشعرية التى تربطهما بأوثق الصلات .

ولكن الحاقدين الحاسدين للشاعر بذلوا محاولة أخيرة لتعكير العلاقات بينه وبين الحاكم الجديد وأطمعهم ان المعتمد ما كاد يتولى مقاليد الحكم حتى استدعى اليه صديقه القديم ابن عمار ، وهو شاعر عظيم متقارب السن مع الأمير ، وكانت بينه وبين المعتمد مودة جاوزا فيها الحد حتى اضطر المعتضد الى نفى ابن عمار وابعاده عن ابنه وولى عهده ، فاستشفع ابن عمار بابن زيدون لدى المعتضد ، ولعل ابن زيدون تغافل عن هذه الشفاعة فلم يكن لها الأثر المنشود ، ويبدو أن ابن عمار وجد فى نفسه على ابن زيدون .

وما كاد المعتمد يلى الحكم حتى استدعى اليه ابن عمار « وقربه أشد تقريب حتى كان يشاركه فيما لا يشارك الرجل فيه أخاه ولا أباه » (٤) فرأى حساد ابن زيدون أن الفرصة سانحة للكيد له ، وبخاصة بعد أن استولى ابن عمار على هوى الأمير ،

---

(١) الديوان ص ٢١١ .
(٢) الحندس : الليل الشديد الظلام .
(٣) الديوان ص ٢١٢ .
(٤) المعجب ص ١١٧ .

وكان هؤلاء الخصوم يحملون ابن زيدون أوزار المعتضد كلها فهو الذى « دبر دولته وأظهر صولته وأغراه بأعدائه وزين له الايقاع بعماله ووزرائه فغدا شجا فى صدورهم ونكدا فى سرورهم .. » (١) فنسبوا الى الشاعر البيتين السابقين فى هجاء المعتضد بعد وفاته ، ثم دسوا رقعة للمعتمد سطروا فيهـا قصيدة طويلة استهلوها بقولهم :

يأيهـا الملك العـلى الأعظم
اقطـع وريدى كل باغ ينئم (٢)
واحسم بسـيفك داء كل منافق
يبـدى الجميل وغـير ذلك يكتم

ثم دعوه الى تقليد أبيه فى الفتك بحاشيته :

واذكر صـنيع أبيـك أول أمـره
فى كل متهـم فانـك تعـلم
لا تتركن للنـاس موضع تهمـة
واحزم فمثلك فى العظائم أحزم (٣)

ولكن الأمير كان أعرف بأستاذه وأرعى لصديقه وأحفظ لذكرى أبيه فعلق على هذه المقطوعة بسبعة أبيات يقول فيها :

كذبت منـاكم ، صرحوا أو جمجموا
الدين أمتن ، والسـجية اكـرم
خنتم ، ورمتم أن أخـون ؛ وانمـا
حاولتمـو أن يسـتخف يلملم (٤)
وزحفتـم بمحـالكم لمجـرب
ما زال يثبت للمحـال فيهـزم

---

(١) قلائد العقيان ص ١٤ .
(٢) ينئم : يئن ويصوت .
(٣) الديوان ص ٣٠٦ ـ ٣١٠ .
(٤) يلملم : جبل على مرحلتين من مكة .

انى رجـــوتم غـــــدر من جربتم
منــــه الوفاء ، وظلم من لا يظلم

وختمها بقوله :

كفوا ، والا فارقبوا لى بطشـــــة
يلقى السـفيه بمثلهـا فيحلم (١)

والأبيات غنية عن التعليق ؛ واهتز الشاعر لهذا الموقف النبيل فنظم قصيدة مسهبة من خمسين بيتا يمدح فيها الأمير ويشكره ويشيد بمواقفه الكريمة (٢) يقول فيها :

قل للبغـــــاة المنبضين قسيهم
سترون من تصـميه تلك الأسهم

ما كان حلم (محمـــــــد) ليحيله
عن عهـــده دغل الضمير مذمم (٣)

فتح قرطبـــة

استقر الشاعر فى ظل الأمير الجديد ، والتفت الى واجبـــه التقليدى فى هذا البلاط فرثى الأمير الراحل ، وهنا الأمير الجديد واستأنف تدبيره لفتح قرطبـة درة الولايات الأندلسـية وموطن طفولته ومـدرج صـباه ومناط هـواه الغلاب ؛ وكان حاكمها أبو الوليد بن جهور قد أثقله المرض وتقدمت به السن فترك الحكم لولديه وكان أصغرهما عبد الملك أقواهما شكيمة فنازع أخاه الأكبر عبد الرحمن وطغى عليه حتى كاد ينفرد دونه بالسلطان ، وكان طائشا نزقا ، وفى هذا الوقت كان الوزير ابن السقاء يسوس قرطبة بحكمته وحسن سيرته وبعد نظره ، وكان المعتضد بن عباد وهو

---

(١) الديوان ص ٣١١ ، ٣١٢ .

(٢) الديوان ص ٣١٢ — ٣٢١ .

(٣) الديوان ص ٣١٤ ، انبض الرامى القوس جذب سهمها ليرمى بهـــا تصميه : تصيبه اصابة قاتلة ، دغل : فاسد حاقد .

يدبر أمر الاستيلاء على قرطبة .« قد خامره من أمر ابن السقاء مدبر دولة بنى جهور مالا يسعه بوح ولا كتم ، وما لا يدعه سفه ولا حلم شرقا بحسن سيرته ، وفرقا من استمرار مريرته (١) وحسدا لآل جهور ، فقد كان ابن السقاء هذا من الاستقلال بمكانه والضبط لسلطانه بحيث يخيف الأنداد ، فدس عباد (المعتضد) الى عبد الملك (ابن جهور) من جره على الفتك به (٢) ، وبعث الى ابن السقاء من ألقى فى روعه حب الملك (٣) » وقد نجحت الدسيسة وفتك عبد الملك بابن السقاء ؛ وهنا تطلع المأمون ابن ذى النون حاكم طليطلة الى قرطبة وكان يحلم هو بها أيضا ؛ وهنا ظهرت براعة المعتضد فاتصل سرا بالمأمون وفاوضه على أن يخلى بين المعتضد وبين « قرمونة » على أن يترك المعتضد له قرطبة ويعينه على فتحها « فأجابه ابن ذى النون الى ذلك ، وتوثق منه بالايمان وأخلى له قرمونة فرجعت لابن عباد فشحنها بالأطعمة وقواها بالرجال ، وغدر بابن ذى النون ولم يف له بشىء ، فاغتاظ ابن ذى النون ووجه الى قرطبة عسكرا عظيما فجرت لأهل قرطبة معه حروب عظيمة ، وضاقت قرطبة بأهلها وانقطعت عنهم المرافق فاستغاثوا بالمعتمد بن عباد (٤) فأتاهم مغيثا فقاموا على أميرهم عبد الملك بن جهور وملكها المعتمد » (٥) ونرجح ان ابن زيدون كان وراء تدبير المعتضد وابنه المعتمد حتى تم له الاستيلاء على هذه المدينة العظيمة ، لأن حنينه اليها لا يزال يلح عليه ، ولأنها موطنه ومنبت طفولته ومصدر هواه ولأنه خرج منها كاسف البال حزين النفس شريدا فهو يود أن يعود اليها عزيز الجانب مرهوب السلطان

---

(١) شرق بالماء غص به ، فرقا : خوفا ، استمرار مريرته : استفحال أمره .
(٢) قتل ابن السقاء .
(٣) البيان المقرب جـ ٣ ص ٢٥٦ .
(٤) كان قد ولى الحكم فى هذه الأثناء .
(٥) البيان المقرب جـ ٣ ص ٢٨٣ .

وكان فوق ذلك يبلغه ما يؤلمه فى نفسه وفى قرابته بقرطبة على يد بنى جهور (١) على الرغم مما كان بينه وبينهم من صلات فمن الطبيعى أن يعمل على الانتقام منهم ؛ وكان للشاعر أنصار عديدون بقرطبة حتى فى بلاط بنى جهور ، وقد أسفوا على فراقه لهم وفى هذا يقول ابن حيان واصفا أثر رحيله عن قرطبة : « خلا بالحضرة مكانه وكثر الأسف عليه » (٢) فمن الطبيعى أن يراسلهم الشاعر سرا وبخاصة فى أوقات أزماتهم الشديدة ، وحدث أنهم « اجتمعوا فى السر على أن يخلعوا ابن جهور ويولوا ابن عباد ، فأبرموا أمرهم وأحكموه وقاموا بأجمعهم وثاروا فى صبيحة اليوم الذى اتفقوا فيه مع قواد ابن عباد ، وقام أصحاب ابن جهور دونه . وكانوا طائفة قليلة فغلبت عليهم أهل قرطبة » (٣) فمن الذى كان يستطع التأثير فى أهل قرطبة مثل زعيمها وفتاها وشيخها ابن زيدون ؟ ويؤيدنا فى هذا الرأى الدكتور فيليب حتى حيث يقول : « وكان باشارة من ابن زيدون وتأثيره أن أرسل المعتمد جيشا على قرطبة فانتزعها من بنى جهور » (٤) .

خاتمة المطاف

دانت قرطبة للمعتمد بن عباد لتسع بقين من شعبان سنة ٤٦٢ هـ « فوصل اليها ، وآنس أهلها ، وبث المعروف فيها ، وأحسن السيرة فى أهلها ، فسروا بايالته وولى عليها ابنه الحاجب سراج الدولة عباد بن محمد بن عباد ، فوصلها يوم الثلاثاء السادس من شوال سنة ٤٦١ هـ ودخلها دخولا فخما تضاعف له سرور أبيه وانصرف المعتمد الى اشبيليه وخلف ابنه واليا عليها وترك معه القائد ابن مرتين مع جماعة من الفرسان » (٥) .

---

(١) المعجب ص ١٠٦ .
(٢) الذخيرة ق ١ ج ١ ص ٢٩١ .
(٣) البيان المقرب ج ٣ ص ٢٥٩ .
(٤) تاريخ العرب ج ٣ ص ٦٦٤ .
(٥) أعمال الاعلام ج ٣ ص ١٧٥ ، ١٨٣ ، ١٨٤ .

وهذه العبارة توهم أن المعتمد لم يمكث بقرطبة طويلا ، ولكننا نعلم أنه ظل بهــــا الى ما بعـــد وفاة ابن زيدون فى صدر رجب سنة ٤٦٣ هـ .

عاد الشاعر الى قرطبة مظفرا منصورا ولكنه كان قد أشرف على السبعين واعتلت صحته ، ولكنه لم ينس واجبه نحو بلده وأهله وأصدقائه ومواطنيه « اذ كان منهم متعصبا لهم هاويا اليهم حدبا عليهم وليجـــه خبر (١) بينهم وبين ســـــلطانهم الحديث الولاية (٢) » .

وحدثت فتنة باشبيليه اقتضت أن يعود المعتمد اليها . ولكنه آثر أن يرسل ابنه عباد اليها « فى جيش كثيف من نخبة علمائه ووجوه رجاله (٣) » وهنا سنحت الفرصة أمام أعداء ابن زيدون الناقمين عليه فانتهزوها ليبعدوه عن الأمير وليخلو لهم وجهه وبهذا يستطيعون أن يكيدوا للشاعر كل الكيد ، وكان ابن عمار الوزير الشـــاعر صاحب الحظوة عنـــد الأمير ، وقائد الجيش الظـــافر ابن مرتين هما بطلا هذا التدبير ، وكان ابن مرتين جنديا باسلا وفاتكا قاســـيا ، ويرجح دوزى أنه من أصـــل مسيحى ، وبالغ فى قسوته حتى أحفظ أهل قرطبة عليه فتنكروا له وفتكوا به بعد حين(٤) ـ وترجع فتنة اشبيلية الى أن مسلما تلاحى مع يهودى فزعم المسلم « أن اليهودى سب الشريعة فبطش به المسلم وسط السوق وجرحه وحرك عليـــه العامة (٥) » ولعل الاشبيليين كانوا متأثرين بثوة أهل غرناطة على اليهود وفتكهم بهم ســـنة ٥٤٩ (٦) وأراد عبـــد الله بن سلام والى اشبيليه اطفاء الفتنة فقبض على

(١) يريد وسيط خبير .
(٢) الذخيرة ق ١ جـ ١ ص ٣٥٦ .
(٣) المصدر السابق ص ٣٥٤ .
(٤) ملوك الطوائف ص ٢٣٠ وما بعدها .
(٥) الذخيرة ق ١ جـ ١ ص ٣٥٤ .
(٦) البيان المغرب جـ ٣ ص ٢٦٦ ، ٢٧٥ والاحاطة جـ ١ ص ٢٧٣ .

المسلم للتحقيق في الأمر « فكان لعامة الناس فى انكار حبسه كلام واكثار خشى وباله ، فخاطب السلطان بقرطبـــة يعرفه ما كان منه ، ويستأمره فى شأنه ، فعجل بانفاذ ولده الحاجب سراج الدولة الى اشـــبيلية فى جيش كثيف من نخبـة علمـائه ووجوه رجاله لمشـــارفة القصة والاحـتباط على العامة » (١) فأشار ابن عمار وابن مرتين على المعتمد بارسال ابن زيدون مع الجيش لما له من خبـرة وتجارب ، والواقع أن اختيارهما كان موفقا لما امتاز به ابن زيدون من كياســة ولباقة وحسن تدبير ، ولما له من معرفة سابقة بشئون الدميين ولكنه حق أريد به باطل فان هدفهما كان ابعاده بكل الوسائل فان أخفق كادوا له عند الأمير ؛ وان نجح فلن يكسب مجدا جديدا يضيفه الى أمجاده ؛ ومن السهل نسبة نجاحه الى سراج الدولة ابن الأمـير ، وكان الشاعر مريضا فلم يشفع له مرضــه عند الأمير « فألزمه النفوذ على بقية وعلك كان متألما منه ، ولم يعذره فى التوقف من أجله فمضى لطيته مسوقا الى منيته » (٢) ونسى الأمير واجب رعايته لأستاذه « وتحدث الناس بنبو مكان الأديب ابن زيدون لدى السلطان وأن استمساكه يعلى مرتبته بعد مختصة المعتضد بالله كان من المعتمد على الله رعاية لخصوصية أبيه به ، يغص باستمرارها ثقتاه المختصان به الحظيان لديه المستهمان لخاصــته ابن مرتين وابن عمــار » (٣) ويظهر أن المتآمرين أدركا أن ابن الشاعر أبا بكر بن زيدون باق بقرطبة وكان قد ورث عن أبيه مواهبـه السياسية وتدرب على يديه أحسن تدريب وله بقرطبة من أنصار أبيه عدد كبير ، وله من شبابه ومواهبه وحب أهل قرطبــة له ما يجعله خطرا على ما يحيكان من تدبير ، فما زالا يلحـان على المعتمـد حتى أنفذه وراء أبيه

(١) الذخيرة ق ١ جـ ١ ص ٣٥٤ .

(٢) المصدر السابق ص ٣٥٥ .

(٣) المصدر السابق .

« فأمضى خلفه ، فعنـــدها استســــاغا غضته واستهما مكانه ، واحتويا على خاصـــة الســـلطان وتدبير دولتـــه ولـــكل دولـــة رجال ... » (١) ويظهر أن المرض والكهولة والآلام المعنـــــوية والهواجس النفسية الحت على الشاعر ، فلم تمض بضعة أشهر حتى فاضت روحه باشبيلية فى صدر رجب سنة ٤٦٣ هـ .

ولما اتصل خبر وفاته « بعشيرته أهل قرطبة تناعوه وسيئوا لفقده وحزنوا عليه ... فصار مصابه لديهم كفاء ما اجتث فيه من تأميلهم ... » (٢) ويظهر أن المعتمـــد احس خطاه ورأى تغير شعور أهل قرطبة عليه فعجل بأن ولى ابنه أبا بكر بن زيدون فى مناصب أبيه وعهد اليه بالوزارة وخصه بولاية اشبيليه حاضرة ملكه العتيد الى جانب اشرافه على دار سك النقود ، ولم يهدأ أهـــل قرطبة حتى انتقموا من ابن مرتين شر انتقام ، ولم يهدأ أبو بكر بن زيدون حتى سعى بكل جهده فى نكبة ابن عمار وتم له ما أراد .

وهكذا انطوت حيـــاة الشاعر بعد أن أضاءت أشعته أرجاء الأندلس ، وامتدت من الشرق الى الغرب وتركت آثارها خالدة فى لغة الضاد .

وخير ما نختم به هـــذا الفصل أن نستعيد بيان ابن حيان حيث يقول فى ختام ترجمتـــه له : « فقـــد تولى من أبى الوليد كهل لن يخلف الدهر مثله جمالا وبيـــانا وبراعة ولسانا وظرفا وحلولا من مراتب البلاغة نظما ونثرا بمرقبة لم يخلف لها بعده عاطيا قراته بين الكلامين » (٣) .

---

(١) المصـــدر السابق .

(٢) الذخيرة ق ١ جـ ١ ص ٣٥٦ .

(٣) الذخيرة ق ١ جـ ١ ص ٣٥٥ ، ٣٥٦ « المرقبة : الموضع المشرف العالى ، عاطيا : متناولا » .

القسم الثالث

صفحة الخلود

الفصل الأول

معالم الصورة

ان رجلا عظيما كابن زيدون ملأ قلوب معاصريه وأسماعهم ونافس منهم من نافس وصادق من صادق وقضى حياته مكافحا يصيب ويصاب ، ويفوز بأسمى المناصب وينحدر الى غيابة السجن .. ان رجلا مثل هذا جدير بأن يشغل معاصريه مابين قادح ومادح ومحب وكاره ، وبخاصة انه اشتغل بالسياسة زاحم كبار السياسيين فكان فى طليعتهم ، وقرض الشعر فكان فى صدارتهم ، ومارس الكتابة فكان فى مقدمة الكتاب ، ولهذا اختلفت فيه آراء معاصريه وتباينت تباينا كبيرا . فيقول ابن سعيد نقلا عن ابن بسام : « انه كان سامحه الله ممن لا يرجى خيره ، ولا يؤمن شره » (١) وان كنا لم نجد هذا الخبر عند ابن بسام ويقول الحميدى والضبى انه « كثير الشعر قبيح الهجاء » (٢) ونحن نعلم ان الضبى يتابع الحميدى فى كل مارواه دون روية أو تمحيص حتى يكاد كتابه « بغية الملتمس » يكون نسخة من « جذوة المقتبس » الا بعض التراجم التى زادها عليه ؛

على حين نرى ابن حيان المؤرخ الكبير الذى عاصر الشاعر وترجم له وجمع ديوان شعره يتحدث عن صلات الشاعر بسكان قرطبة « انه كان متعصبا لهم هاويا اليهم حدبا عليهم وليجة خير بينهم وبين سلطانهم » (٣) ويقول ابن بنانه شارح رسالة الشاعر

---

(١) المقرب جـ ١ ورقة ٢٣٤ .

(٢) جذوة المقتبس لوحة ٥٦ وبغية الملتمس ص ١٧٤ .

(٣) الذخيرة ق ١ جـ ١ ص ٣٥٦ .

الهزلية انه « كان حسن التدبير تام الفضل متحببا الى الناس » (١) .

واذا استعرضنا تاريخ الشاعر وجدناه ذا شخصية قوية وأنه قضى حياته يصارع أعداءه فينال منهم بقوة وعنف ويصافى أصدقاءه فيبرهم فى مودة وعطف ، ومن الخير أن نسرد أمثلة لكلتا الحالتين .

فى مواجهة الأعداء :

١ ــ كان الشاعر صديقا لأبى عامر بن عبدوس ثم ساءت العلاقات بينهما بسبب ولادة فعاتبه الشاعر فلم يعتبه وزجره فلم يزدجر ، وبعد أن كتب اليه قصيدته الضادية (٢) المليئة بالعتاب والتحذير كتب اليه الرسالة الهزلية (٣) التى مثل به فيها كل تمثيل اضطر بسببها الى الابتعاد عن ولادة حتى حين .

٢ ــ كان بين الشاعر وبنى ذكوان مودة صافية توارثها الأبناء عن الآباء ، ويأخذ عليه خصومه أنه تنكر لهم ــ والحقيقة أنه وفى لهم ، ورثى صديقه أبا بكر بن ذكوان بقصيدة دامية ، أما الذين قاموا بالفتنة منهم سنة ٤٤٠ ضد بنى جهور فلم تكن بينهم وبين الشاعر أى صلة ، وكادوا يجرونه معهم الى الوبال ، وكل مافعله الشاعر انه تبرأ من هذه المؤامرة ومن المشتركين فيها من بنى ذكوان (٤) .

٣ ــ يأخذ عليه النقاد أنه مدح المظفر صاحب بطليوس ورفعه الى القمة ، ولم تمض بضعة أعوام حتى هجاه وهنأ المعتضد بالانتصار عليه ، ونحن نعلم أن الشاعر فى وقت محنته تودد الى المظفر وتقرب منه ، ويبدو انه لم يظفر منه بما كان يرجوه فانصرف عنه دون أن يناله بهجاء ــ ولما استقرت حياته فى ظلال المعتضد بن عباد كان من الطبيعى أن يغنى له وأن يسجل انتصاراته وفتوحاته ، وينوه بأمجاده العظام .

---

(١) سرح العيون ص ٤ .

(٢) الديوان ص ١٩٣ .

(٣) الديوان ص ٦٣٤ .

(٤) راجع ص ٢٠٤ ــ ٢٠٦ من هذا البحث و ٢٩٦ من الديوان .

٤ ــ يزعم الزاعمون انه تنكر لأوليــاء نعمتــه من بنى جهور فهاجم كما تنكر للمعتضد بن عباد بعد أن أولاه ما أولاه من الاحسان فهجاه بعد موته ، وقد تبرأ الشاعر من التهمتين وفندنا نحن هذا الادعاء فيما سبق (١) .

٥ ــ وينسبون الى الشاعر أنه كان السبب فى مصرع منافسه أبى الحسن على بن حصن ، وانه حرض المعتضد على الفتك بكاتبه أبى محمد عبد الله بن عبــد البر ؛ أما الأول فكان يسعى فى هلاك الشاعر والشاعر يدافعه بالصبر والمطاولة حتى أعيته فيه الحيل ، فموقفه منه موقف الدفاع المشروع ، واما الثانى فقــد كاد الأمير يفتك به فى ثورة جنونية بعد أن قتل ابنه وولى عهده بيديه فقــد تملكه بعد هذا الموقف العنيف « حزن عميق وهاج به هائج الغضب فنكل بشركائه وأصدقائه وخدمه حتى بنساء قصره ، وكم أمر ببتر أيد وأرجل وجدع أنوفا وقطع رءوسا وقتل فى السر وقتل فى العلن ، ولقد دخل عليه بعض وزرائه فى اليوم الثالث لهذه النكبة فوجده مربد الوجه فظيع المنظر يجمجم بكلام غير واضح ويزمجر زمجرة الأسد ، فصرخ فيهم : ما بالكم لا تنطقون ايها الأشقياء ، انه ليسركم ما انا فيه الآن من محنة وبلاء ، فاذهبوا بعيدا عنى واخرجوا من هذا المكان (٢) .

مع الأصدقاء :

١ ــ وفى الشاعر لكثير من أصدقائه فى حياتهم وحفظ ذكراهم بعد وفاتهم ومن أشهرهم القاضى أبو بكر بن ذكوان وأبو عبد الله ابن عبد العزيز ببلنسية وأبو بكر الطبنى وشفع لصديق آخر شفاعة

---

(١) راجع ص ١٣٩ ، ٢٢٨ من هذا البحث وراجع كتابنا « ابن زيدون : عصره وحياته وأدبه ص ١٨٣ ــ ١٨٥ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧ .

(٢) Historia Abloclidarum I,P553-256 وملوك الطوائف ص ١٤٥ ــ ١٤٧ .

حارة عند المظفر بن الأفطس ووجه اليه رسالة حارة (١) وقصيدة عصماء (٢) فى شأن هذا الصديق .

٢ ـ وللشاعر موقف نبيل يجدر التنويه به فقد كشف موهبة أدبية عظيمة فى أبى بكر محمد بن سليمان القصيرة ، وكان على فضله منطويا على نفسه متهيبا الدخول فى خدمة المعتضد ، فقدمه ابن زيدون اليه وأثنى عليه ومهد له عنده فألحقه بخدمته ، ثم زكاه بعد المعتضد عند ابنه المعتمد فبرزت مواهبه حتى ثنيت له الوزارة « وعظمت حاله واتسع مجاله » (٣) .

٣ ـ وكما وفى الشاعر لأصدقائه وأنصاره وفى لأفراد كل شعب حل فيه ، فلما قامت الفتنة فى اشبيليه رأى ذوو الشأن ارساله اليها لتعلق أهلها به ؛ وما كاد يهجر قرطبة من قبل حتى « خلا بالحضرة مكانه وكثر الأسف عليه » (٤) لأنه « كان حسن التدبير تام الفضل متحببا الى الناس » (٥) ولم يكد خبر نعيه يصل الى قرطبة حتى تناعاه أهلها « وسيئوا لفقده وحزنوا عليه اذ كان منهم متعصبا لهم هاويا اليهم حدبا عليهم » (٦) وما لبثوا أن فتكوا بخصمه ابن مرتين .

٤ ـ يفيض ديوان الشاعر بالحنين الى أصدقائه وأحبائه ونكتفى بذكر مثل واحد يغنى عن سائر الأمثلة . يقول فى حنينه الى قرطبة :

تذكرت أيامى بهـــا فتبـادرت
دموع كما خان الفريد نظـــام
وصحبـة قوم كالمصابيح ، كلهم
اذا هز للخطب الملم حســام

---

(١) الديوان ٧٥٤ ـ ٧٦٢ .
(٢) الديوان ٤٠٦ ـ ٤١٧ .
(٣) اعتاب الكتاب ص ٨٤ والذخيرة ق ٢ ص ١٤٢ .
(٤) الذخيرة ق ١ ج ١ ص ٢٩١ .
(٥) سرح العيون ص ٤ .
(٦) الذخيرة ق ١ ج ١ ص ٢٥٦ .

اذا طاف بالراح المـــدير عليهم
أطاف به بيض الوجـــوه كـرام
محل عنينا بالتصـــابى خـــلاله
فأسعدنا والحـادثات نيـــام (١)

٥ ـ جهر كثيرون من عظماء عصره بالثناء عليه والاشادة بوفائه فقال المعتمد بن عباد فى رسالة شعرية وجهها اليه :

نظـم در يستبى القلـ ـب متى ينظـم وينثر
دلنى أنـك فى الخـلـ ـصان معقود بخنصر (٢)

وكتب اليه ابن عمار متشفعا به لدى المعتضد :

يا غـــرة الزمـــن البهـ ـيم ، وغزة الأدب الذليـل
اشفع عنـــايتك الجليـ ـلة لى لدى الملك الجليـــل
ولئن أجبت لــراغب وأقات عثرة مســـتقيل
فلـــكم أتيت بمثلهـــا وهى الصنيعة فى مثيلى (٣)

وخلاصة الرأى أن الشاعر فى صلاته الاجتماعية لم يكن شيطانا رجيما ولا ملاكا رحيما ، وانما كان انسانا سويا يقسو على أعدائه ويفى لأصدقائه وقد عبر هو عن هذا بقوله :

فـــأنى الين لمـــن لان لى
واترك من رام قصرى مرض (٤)

ولكن الشاعر لا يثور ولا يفتك الا اذا هوجم أو كمـــا قال هو منذرا خصومه بألا يغرهم منه لينه ، وألا يطمعهم فيه كرمه :

---

(١) الديوان ص ١٥٢ ، ١٥٣ ــ الفريد : العقد ، خان النظام : انظر جـ ١ .
(٢) الديوان ص ٦١٣ ، يسبى القلب : يأسره ، الخلصـــان : الصـديق الوفى .
(٣) الذخيرة ق ١ جـ ١ ص ٣٧٣ ، ٣٧٤ .
(٤) الديوان ص ٥٨٤ ــ القصر : الحبس أو الاجبار ، الحرص : الاشراف على الهلاك .

حذار حذار ، فان الكريم
اذا سيم خسفا أبى فامتعض (١)
فان سكون الشجاع النهو
س ليس بمانعه أن يعض (٢)

أما حين يأمن أذى الأعداء ويطمئن الى السلامة فهو كما وصف نفسه :

ليحظي ولى سره وفق جهره
فظاهره شكر وباطنه ود
يميزه ممن سواه وفاؤه
واخلاصه ، اذ كل غانية هند (٣)

ولقد امتاز شاعرنا بسمات عديدة تميزه عن سواه ، ومن الخير أن ندرس هذه السمات بايجاز .

الظرف ورقة الحديث وسرعة البديهة

امتاز الشاعر بهذه الصفات وهى متجانسة متقاربة أعانته على استيعابها ذاكرة قوية وفطرة طبيعية مواتية وقد شهد له الرواة بطلاقة اللسان وقوة العارضة ، وأنه « فتى الآداب وعمق الظرف ، غلب على قلوب الملوك بفضل ما أوتيه من اللسن والعارضة » (٤) ويصفه ابن بسام بالبراعة والظرف (٥) ثم يصفه فى موضع آخر فيقول : « وأما سعة ذرعه وتدفق طبعه وغزارة بيانه ، ورقة حاشيته فالصبح الذى لا ينكر ولا يرد ، والبحر الذى لا يحصر ولا يعد » (٦) وفى حديث أبى المطرف بن فتوح مع صاحبه عن شعراء

---

(١) سامه الخسف : أولاه الذل امتعض : اغتاظ .
(٢) الشجاع النهوس الثعبان أو الأسد العاض ، الديوان ٥٨٢ .
(٣) الديوان ص ٣٦٦ ، وص ٧ غانية هند : مثل يضرب للتساوى فى الشر .
(٤) الذخيرة ق ١ ج ١ ص ٢٩٠ ، ٢٩١ .
(٥) المصدر السابق ق ١ ج ١ ص ٣٥٥ .
(٦) ص ٢٩٢ .

الاندلس : « قال : فمن أذكرهم للأشعار وأنظمهم للأخبار ؟ قلت : الحلو الظريف ، البارع اللطيف أبو الوليد بن زيدون » (١) ولهذه الصفات خف على قلوب كل من اتصل به من الملوك : اتصل ببنى عبد العزيز أصحاب بلنسية « فحل منهم محل الحميا فى الكئوس ووقع منهم مواقع البشائر فى النفوس ، وأقام بين مسرة تواصله وميسرة تغازله » (٢) واتصل بادريس الثانى حاكم مالقة « فخف على نفسه وأحضره مجالس أنسه وأطال الثواء عنده » (٣) ولما اتصل بالمعتضد أصبح من أقرب خلصائه اليه يجالسه فى خلواته ، ويسفر له فى المهم من رسائله (٤) وقد أشاد بهذه الصفات هنرى بيريز فى كتابه عن الشعر المنهجى الأندلسى فى القرن الحادى عشر(٥) وعبر الشاعر عن هذه الصفات بقوله :

لا افتنان كافتنانى ... فى حلى الظرف الحسان
خصنى بالأدب الله ... فأعلى فيه شانى
خاطرى أنفذ مهما ... قيس من حد السنان(٦)

الولع باللذات

نشأ شاعرنا مترفا فى عصر يتسم بالترف واللهو والنعيم وعاش مع المترفين من الملوك والأمراء والوزراء والزعماء فاستجابت نفسه لهذه الدوافع كلها فمال اليها وأجاد التعبير عنها ، وكان كثيرا مايدعو المعتضد الى الشراب أو يدعوه المعتضد اليه فيخف لتلبية النداء ، دعا المعتضد الى الشراب مبررا له :

فهب الى اللذات يؤثر راحة
تجم بها النفس النفيسة للكد

---

(١) ق ١ جـ ٢ ص ٢٨٧ ، ٢٨٨ .
(٢) قلائد العقيان ص ٧٤ .
(٣) الذخيرة ق ١ جـ ١ ص ٢٩١ .
(٤) الوافى بالوفيات المجلد الأول ص ٢٧١ واعتاب الكتاب ص ٧٩ .
(٥) La Poésie Andalouse En Arabe Classique P. 427.
(٦) الديوان ص ٥٩٥ .

ووال بهــــا فى لؤلؤ من حبــابها
كجيد الفتاة الرود فى لؤلؤ العقد(١)

ويدعو المعتمد الى مثل هذا المجلس :

وأدر هنـــــاك من المدام انمهــا
أرجا زكا ، وأشــــفها جــــربالا
لا زلت تفترش السرور حــدائقا
فيــه ، وتلتحف النعيم ظلالا (٢)

وطوى الشاعر ليلة أنس باحدى جنات اشبيلية وصفها بقوله :

وليل أدمنــا فيـــه شرب مدامة
الى ان بدا للصبح فى الليل تأشير
فحزنا من اللذات أطيب طيبهــــا
ولم يعـــرنا هم ولا عاق تكدير
خلا أنه لو طـــــال دامت مسرتى
ولكن ليالى الوصل فيهن تقصير(٣)

وكان الشاعر فى اقباله على اللذات يضيق بقدوم شهر رمضان لأنه يحول بينه وبينها فترة من الزمان فيقول :

قالوا غدا رمضـــــان فستعد له
وتب الى الله واهجر لذة الكاس
ان الهلال يرى حتما ، فقلت لهم
حتمتم وشـــتات بين جــلاس
فقال لى الغيم : لا يحفل بقولهم
عــلى سترته ، فاشرب بلا باس

---

(١) الديوان ص ٥٠١ .

(٢) أنم : أشد اذاعة ، الأرج : توهج الريح الطيبة ، زكا : طاب الجريال : الخمر أو لونها الأحمر ــ الديوان ص ٥٢١ .

(٣) الديوان ص ٢٤٥ ، التأشير : التحزير فى الأسنان وحدة أطرافها .

فقمت أعثر فى ذيل المجـــون الى
جمع المسرة بين الطاس والكاس(١)

ووصف ابن خاقان زمن الشـــاعر وتصرفه فيه بأن الشـــاعر « لم يصرفه الا بين ريحان وراح ولم يطلعه الا فى سماء مؤانسات وأفراح » (٢) وقد وصف الشـــاعر لنا فى شعره ونثره كيف كان « يرشف الرضاب أعذب رشف ويهصر القد الطف هصر وينعم بلف جسم بجسم وقرع ثغر بثغر » (٣) وذكر لنا كيف كان يجنى أقحوان الثغور ويقطف رمان الصدور ... » (٤) .

صفاته الجسمية

الجسم وعاء النفس وكلاهما يؤثر فى صاحبه ويتأثر به ولقـد ذكر الرواة أن الشاعر كان وسيما ، وقد وصفه ابن حيـان بهذه الصفة فى أكثر من مناسبة حتى فى كهولتــه فهو يقول فى رثائه : « فتولى منه كهل لن يخلف الدهر مثله جمالا وبيانا وبراعة ولسانا وظرفا ... » (٥) ويروى الصفدى أنه كان يخضب بالســواد (٦) وهذا يدل على حرصه على أناقته وجمال مظهره ، ويوحى الينـا الشاعر فى رسالته الهزلية التى كتبها على لسان ولادة الى ابن عبدوس بأنه من أقمار العصر وريحان المصر فيقول « ولعلك انما غرك من علمت صبوتى اليه وشهدت مساعفتى له من أقمار العصر ورياحين المصر الذين هم الكواكب علو همم والرياض طيب شيم :

---

(١) لم ترد هذه الرواية فى دواوين الشاعر المخطوطة والمطبوعة وقد عثرنا عليها بعد نشرنا الديوان فى (حلبة الكميت) للنواجى ص ١١٦ .

(٢) قلائد العقيان ص ٧٠ ، ٧١ .

(٣) راجع القصيدة بالديوان ص ١٢١ .

(٤) راجع الرسالة بالديوان ص ٧٧٨ ، ٨٧٩ .

(٥) الذخيرة ق ١ جـ ١ ص ٢٩٠ ، ٣٥٥ .

(٦) تمام المتون ورقة ٨ .

من تلق منهم تقـــل لاقيت ســــــيدهم
مثل النجوم التى يسرى بها السارى » (١)

وكان الشاعر حسن الصوت جيد الانشاد ، وفى هـــذا يقول ابن حصن فى وصف قصيدته التى مدح بها المعتضد ســـاخرا من ابن زيدون :

ولست بكاســـيها مــدى الدهر حلة
بنغمـــة انشــــاد ولا بمكرر (٢)

فلسفة الشاعر

لا تكمل دراستنا للشاعر حتى نتعرف الى فلسفته فى الحيـاة ولكل فنان نظرته الخاصة الى الحياة والى المجتمع وهو يصـــدر فى أفعاله وتصرفاته عن هذه النظرة العميقة ، واذا درسنا حيـاة شاعرنا وأقواله وتصرفاته وجدناه ممن يؤمنون بالجبرDetemination وقد لعبت مسألة الجبر والاختيار دورا كبيرا فى المذاهب الاسلامية وشغلت كثيرين من الفلاسفة وعلماء الكلام ، ونرجح أن الشـاعر درس هذه الأبحاث وأن أحداث حياته ونتائج دراساته قادته الى هذا الايمـان وقـــد ردد نظرية الجبر فى كثير من شعره ونثره ، فهو يقول مخاطبا صديقه أبا حفص بن برد :

ولقـــد ينجيـك اغفـا ل ، ويرديـك احتراس
ولكم أجـــدى قعـوذ ولـكم أكدى التمـــاس
وكذا الدهـــر : اذا ما عـــز ناس ذل ناس

ويقول من قصيدة أخرى :

ولقـــد نظرت فلا اغتراب يقتضى
كدر المـــآل ولا توق يعصـــــم

---

(١) الرسالة الهزلية بالديوان ص ٦٦٨ .

(٢) الذخيرة ق ٢ ص ١٠١ .

كم قاعـــد يحظى فتعجب حاله
من جاهد يصــل الدءوب فيحرم
ولكم تســـامى بالرفيع نصــابه
خطـــر فناصبه الوضيع الألام

فالانسان ضعيف القوة محدود النظـر أمـــام القوة الخفية المهيمنة على الكون ؛ ومقاييس الانســـان الوضعية متهافتة أمام مقاييس الأقدار ؛ فالانسان قد يقدر ويدبر ولكنه يفشل ، وقـد يعبث فيصيب ، وقد يجد ويكافح فلا ينال شيئا وقد يكسل فينال ما يريد والانسان قد يحترس فيصاب ، وقد يستسلم فيسلم ... لأن قوى الانسان محدودة ، وأستار الغيب مسدولة على عينيـه فلا يدرى ما يضره أو ينفعه ، وربما جاهد فى سبيل الحصول على ما يؤذيه ، وربما تحاشى وتجنب ما ينفعه ، ولعله تأثر فى هـــذه النظرة بالآية الكريمة « وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون » (١) وليست هذه النظرة عابرة فى ديوانه ولكنها تتردد كثيرا فى ثنايا شعره كما تتردد فى خلال نثره ، ومن أمثلتها ماقاله فى رسالته البكرية « وما حم واقع ، ولا حذر من قدر ، وسبق السيف العذل ، وتقدم من فعلى ما جف به القلم » (٢) والايمان بالقدر يستدعى الايمـان بالحظوظ فالشاعر حتى فى مدحه يؤمن بالحظوظ :

ان الذى قسـم الحظـــو ظ حباك بالخلق العظيم (٣)

فالخلاق المهيمن حينما قسم الحظوظ حبا الأمير بالخلق العظيم وحتى الحب يجرى أحكامه أيضا على الحظوظ المقدورة :

ما كان حبك الا فتنـــة قدرت
هل يستطيع الفتى أن يدفع القدرا (٤)

(١) الآية ٢١٦ من سورة البقرة .
(٢) الديوان ص ٧٤١ ، ٧٤٢ .
(٣) الديوان ص ٢٠٣ .
(٤) الديوان ص ١٧٤ .

والايمان بالجبر يدفع صاحبه الى التشاؤم وذلك حينما يشعر بطغيان القوى المهيمنة على الكون ويعجز عن فهم حكمتها ، ويشعر أنها تحد من رغباته وتعصف بآماله ، وتحول بينه وبين ما يريد فيسكن الى اليأس ويجنح الى الخمول ، ولكن الايمان بالجبر قد يدفع صاحبه دفعا الى النضال والجهاد واثقا بأن القوى الجبارة التى تسيطر على الكون هى قوة عادلة رحيمة لا تظلم أحدا وان أهدافها العامة هى خير الانسانية . وأنها لا تفعل الا خيرا وان ظنه الناس شرا نتيجة لقصور أبصارهم وبصائرهم وان لها فى قضائها حكمة تظهر حينا وتختفى حينا ولكنها فى النهاية لا تخرج عن نطاق الخير العام ، وشاعرنا من هذا الفريق ، فالشهد فى مذاقنا حلو ولكنه قد يضر والعلقم فى مذاقنا مر ولكنه قد يفيد ، وكلاهما فى موضعه المناسب أنفع من الآخر بكثير :

ان الذى قدر الحوادث قدرها
ساوى لديه الشهد منها العلقم(١)

والانسان لا يعلم ما يضره وما ينفعه فحكمه عرضة للأخطاء :

وان السعى قد يكدى ... وأن الظن قد يخدع
وكم ضر امرءا أمر ... توهم أنه ينفع (٢)
والانسان اذا مسه شر ... فلا بد أن يعقبه نفع
ربما أشرف بالمر ... ء على الآمال ياس
ان قسا الدهر فللماء من الصخر انبجاس
وعسى أن يسمح الدهر فقد طال الشماس (٣)

ولهذا يناضل الشاعر ويكافح مع ايمانه بالجبر ، ولا يهمه ما يصيبه فى النضال لأنه واثق بالنتيجة الحتمية لمن يحسن العمل

---

(١) الديوان ص ٣١٢ .
(٢) ص ٥٧٨ .
(٣) ص ٢٧٤ .

ويتقن الجهد ويتحرى الخير العام ، ولهذا فهو لا يأس على مافات ولا يفرح بما نال :

اذا صـــــابتنى الجلى تجـلت عـن فتى أروع
عـــلى ما فات لا يأسى ومما ناب لا يجـزع (١)

ويردد هذا المعنى فى شعره كثيرا فيقول :

ولله فينا علم غيب ، وحسبنا
به عند جور الدهر من حكم عدل (٢)

وكان لتفاؤل الشاعر مع ايمانه بالجبر أثر كبير فى فلســـفته العملية القائمة على الكفاح والنضال فاذا فشل فى غاية اتخــذ من فشله وسيلة للنجاح . واذا ضمته غيابة السجن عمل على الفرار ثم ناضل حتى وصل الى ذروة النجاح ، واذا ضاق به بلد غادره الى آخـــر :

من كان يجهل ما البليــــد ؟ فانه
من تطببه عن الحظـــــوظ بلاد
وفتى الشـــهامة من اذا أمل سما
نفذت به شــــورى أو استبداد

لا بأس رب دنو دار جامع
للشـــمل قد أدى اليـــه بعاد (٣)

نظرته الى المجتمع

كان الشاعر متشائما فى نظرته الى الناس على الرغم من نظرته الفلسفية المتفائلة بالأحداث ؛ فقد كان يسىء الظن بالناس لأنه لقى

---

(١) ص ٥٧٩ صابة : اصابة ، الجلى : الامر العظيم ، الأروع : الرائع الحسن .

(٢) الديوان ص ٢٦٤ .

(٣) ص ٤٥٢ تطبيه : تصرفه .

على أيديهم أبلغ الاساءات فكان ألد أعدائه من أقرب أصـــدقائه ، خدم أبا الحزم بن جهور وأسهم في اقامة دولته ، وما كاد يكافئه على احسانه حتى ألقى به في غيابة السجن ولم يقبـــل فيه شـفاعة الشافعين ، وكان صديقا حميما لابن عبدوس وابن القلاس فانقلبا عليه عدوين لدودين ... وهكذا كان منافسوه من الصق محبيـه وقد عبر عن هذا في قصيدته لأستاذه وصــديقه أبي بكر مسلم ابن أفلح النحوى (١) واصفا موقف الأمير منه واصغاءه الى حساده ومنافسيه :

عدا سمعه عنى ، وأصغى الى عدا
لهم فى أديمى كلمـا استمكنوا عط
بلغت المدى اذ قعــدوا ، فقلوبهم
مكامن أضـــغان أســـاودها رقط
يولوننى عـــرض الكـــراهة والقلى
وما دهرهم الا النفاسة والغمط (٢)

وأشد ماقاساه من المحن كان على يد حساد مجده المجرمين :

واشد فاجعـــة الدواهى محن
يسعى ليعلقه الجريمـة مجــرم
تلقى الحســود أصم عن جرس الوفا
ولقــد يصيخ الى الرقاة الأرقم (٣)

هذه نظرته الى المجتمع ، أما نظرته الى المرأة فهى منحدرة اليه من وراثات قديمة سابقة للاسلام حيث كان العرب ينظرون الى المرأة

---

(١) الديوان ص ٢٨٥ ـ ٢٩٣ .

(٢) الاديم : الجلد ، عط تمزيق ، المدى ، الغاية ، الأساود : الحياة العظيمة الرقط : ما اختلط سواد جلدها بالبياض وهى من أخبث الحيات ، القلى : الكره ، الغمط : الحسد ـ الديوان ٢٩١ .

(٣) الديوان ص ٣١٣ يصيخ : يستمع ، الرقاة : أصـــحاب التمائم او التعاويذ الذى يستخرجون الحيات ، الأرقم الثعبان المخطط .

نظرة ازدراء واحتقار حتى انتشرت فى بعض القبائل عادة وأد البنات ، فلما جاء الاسلام أبطل هذه العادة ورد للمرأة كرامتها ومكانتها وأوصى بها الرسول صلى الله عليه وسلم ومما قاله فى ذلك : « لقد طاف بآل محمد نساء كثير يشتكين أزواجهن ليس أولئك بخياركم » وقال عليه الصلاة والسلام : « خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلى » وكان صلوات الله وسلامه عليه يضرب المثل العليا للمسلمين والمسلمات فى معاملاته لزوجاته أمهات المؤمنين واحتذى حذوه المخلصون المؤمنون ، فقال قائلهم :

رأيت رجالا يضربون نساءهم
فشلت يمينى يوم أضرب زينبا

ولكن شاعرنا سلك غير هذه السبيل فاعتدى بالضرب على ولادة كما ذكرنا (١) وصرح بأن خير زوج للفتاة هو القبر . وهى نظرة جاهلية غريبة من الشاعر فى مثل عصره ــ توفيت بنت للمعتضد قبل وفاته بثلاثة أيام فحزن عليها حزنا شديدا ، فكتب الشاعر اليه معزيا من قصيدة :

سرك الدهر وساء ... فاقن شكرا وعزاء
أنت ان تأس على ال ... مفقود الفا واجتباء
فاسل عنه غيره ، واحـ ... ـتمل الرزء اباء
حبذا هدى عروس ... دفنها كان الهداء

والشاعر هنا متأثر بقول عبد الله بن طاهر (٢) :

لكل أبى بنت يراعى شئونها
ثلاثة أصهار اذا حمد الصهر
فبعل يراعيها ، وخدر يكنها
وقبر يواريها ، وأفضلها القبر

---

(١) ص ١٧١ من هذا البحث ــ والديوان ص ١٧٥ .

(٢) الديوان ٥٥٩ ــ ٥٦١ ــ اجتباء : اختيار واصطفاء ، الهدى السيرة ، والهداء : الزفاف .

وليست هذه النظرة خاطرة عابرة عند الشاعر ولكنه يرددها ويبالغ فيها حتى فى المواقف الرسمية فهو يشبه المرأة بالحذاء يخلعه الرجل ليستبدل به آخر ، وهو يردد هذا المعنى فى تهنئته للمعتضد بزواجه من بنت مجاهد العامرى بعد أن ماتت زوجته الأولى :

هى والفقيدة كالأديم اخترته
فقددت – اذ خلق الشراك – شراكا (١)

واذا كان بعض العرب فى الجاهلية ينظرون الى المرأة هذه النظرة ، فان الانصاف يقتضينا أن نذكر أن أغلبية العرب فى الجاهلية كانت تنصف المرأة (٢) وقد جاء الاسلام فرعاها بعنايته وهيأ لها أكرم الأوضاع المناسبة لمكانتها الاجتماعية .

نظرة نقدية

وقبل أن نختم هذا الفصل نحب أن نناقش ملاحظة أشار اليها بعض النقاد عن ظاهرة تتجلى فى آثار الشاعر الأدبية ذات شطرين :

الشطر الأول : أن الشاعر تعود أن يكرر نفسه فى بعض آثاره فهو يستعيد من قصائده السابقة أبياتا عديدة ينقلها الى قصائده الجديدة ، ومن أمثلة ذلك ان الشاعر صاغ قصيدة فى مدح أبى الوليد ابن جهور ورثاء أمه (٣) ، ثم صاغ قصيدة أخرى فى مدح المعتمد ورثاء أبيه (٤) فنقل من الأولى عشرين بيتا ضمها الى الثانية حيث افتتح القصيدتين بسبعة أبيات مشتركة ، وبعد عدة أبيات استعار ثلاثة عشر بيتا من القصيدة الأولى ضمها الى الثانية دون تغيير أو بتغيير طفيف للتفرقة بين المذكر والمؤنث والى هذا أشار ابن بسام بقوله : « فتلاعب أبو الوليد كما ترى فى هذه القصيدة تلاعب

---

(١) الديوان ص ٤٤١ – الأديم : الجلد ؛ خلق : بلى ، الشراك : سير النعل .

(٢) المرأة العربية فى الشعر الجاهلى ص ٤١٣ – ٤٢٥ .

(٣) الديوان ص ٥٣٩ .

(٤) الديوان ص ٢٦٢ .

الحطيئة بنسبه ، وتصرف تصرف أبى حنيفة بمذهبه ، فأنث وذكر وقدم واخر ... » (١) وفعل قريبا من هذا فى أربعة أبيات غزلية نقلها من مقدمة قصيدة له فى مدح أبى الوليد بن جهور الى مقدمة قصيدة له فى مدح المعتضد ولم يتكلف فى هذا النقل الا تغيير القافية وحدها لتغير القافية فى القصيدتين ـ لا نستطيع أن نرجع هذا الى عى الشاعر فاننا لو حذفنا الأبيات المكررة فى قصيدتى الرثاء لبقى للشاعر فى القصيدة الثانية نيف وخمسون بيتا أصيلة جيدة تغنيه عن هذا الاقتباس ، كما كان فى امكان الشاعر حذف أبيات الغزل الأربعة من مقدمة قصيدة المديح الثانية ويبقى له بعد هذا واحد وثمانون بيتا جيدا ، فكيف نعلل هذه الظاهرة ؟

ربما كانت راجعة الى معابثة الذاكرة ، فكثيرا ما تقفز الى ذهن الشاعر أبيات نظمها ونسيها منذ عهد قديم فيظنها بنت ساعتها ، وللذاكرة أحيانا معابثات عجيبات ـ وربما اقتبسها الشاعر عن قصد لأنه مولع بالاقتباس واقتباسه من شعره أولى من اقتباسه من غيره ـ وربما نفس على بنى جهور مانظمه فيهم فأراد أن يجردهم منه ليقدمه الى من هم أولى به وأكثر استحقاقا له ولكن هذا كله لا يبرر ما وقع فيه الشاعر من التكرار .

الشطر الثانى : ولع الشاعر بالاقتباس والاشارة الى المأثور من الحكم والأمثال ، وفرائد الشعر القديم ، ثم الشغف بالاشارة الى الأحداث التاريخية والنوادر الأدبية ، ونبادر فنقول ان هذه السمة كانت الطابع الغالب على عصره ولكن الشاعر أسرف فى هذا المنحى كل الاسراف حتى زعم حاسدوه أننا لو رددنا ما اقتبسه الى أصوله لم يبق له شىء . وهذا مبالغة من نقاده وحاسديه فى الازراء به ـ فالشاعر كان ذواقة للأدب مفتونا به حفظ من فرائده مالم يحفظه سواه ودرس التاريخ وتعمق فيه وعلقت بذهنه آلاف الأمثال والحكم

(١) الذخيرة ق ١ جـ ١ ص ٣٦٩ .

والطرائف الأدبية فامتزجت بأحاسيسه ومشاعره سواء عن عمد أو عن غير عمد ، فسالت على طرف لسانه وعلى يراعته قاصدا وغير قاصد ، وآثاره ليست مجرد سرد آثار السابقين وانما التنسيق والتوفيق والترتيب ووضع الشيء فى موضعه بين آثاره الأدبية الأصيلة ، والشاعر قد هضم ما حفظه وامتزج بلحمه ودمه ثم تمثله، وقدمه حاملا طابعه الشخصى وذاتيته المتميزة كالنحل يقطف جنى الأزهار الغضة والثمار اليانعة ثم يحيلها الى عسل مصفى لذيذ ، وليس من المعقول أن نطلب الى كل شاعر أو أديب الابتكار التام — وليس كل ابتكار محمودا ولا كل اتباع مذموما ، وكل مانطلبه من الأديب الموهوب اذا اتبع منهجا خاصا أن يكون مؤمنا به متحمسا له وأن تكون شخصيته ظاهرة متجلية فيه — وينبغى لمن يعالج موضوعا نقديا كهذا أن يرتكز الى الأسس الآتية مراعاة منه للانصاف :

أولا : تحفل كل لغة من اللغات بتعبيرات أدبية خاصة وضعها أدباؤها الأقدمون وجرت على الألسن فصقلتها من جيل الى جيل ، فأنست اليها الأفهام ، ووجدت فيها القلوب اشعاعا قويا كالخمر المعتقة ، وتندرج تحت هذه التعبيرات الحكم والأمثال ، وبعض العبارات المجازية مثل : « ركب فلان رأسه ، ومات حتف أنفه ، وطارت نفسه شعاعا وزاغ بصره ، وورم أنفه ، وأصبح ملء القلب والسمع ، هو قيد الخواطر ، وشرك النواظر ؛ هو منه قاب قوسين، افتر ثغره ، أغر الوجه ... » ومن التعبيرات القرآنية التى تعاورتها الألسن فازدادت جمالا على جمال : « بلغت القلوب الحناجر ؛ سلقوكم بالسنة حداد ، مردوا على النفاق ، اتخذوا ايمانهم جنة ، كأنهم خشب مسندة » مما جعل لهذه الألفاظ رسوخا فى ميادين التفكير على توالى الأزمان وصيرها « مشبعة بالمعانى والتجارب والذكريات التى نسجها حولها الزمن وأودعها طياتها ، وأمثال هذه الألفاظ تزيد الأسلوب قوة ، وتجعل أثره شاملا ممتدا الى آفاق فسيحة ولعل هذه الأنواع من الكلمات والعبارات هى التى لا تستغنى عنها اللغة فى جميع عصورها مهما تبدلت حياة المتكلمين بها واختلفت

ببناتهم لأن الزمن قد ثبت دعائمها » (١) والمهم فى هذه العبارات الا تكون قلقة نابية فى موضعها بل تنساب فيه كأنها ولدت معه وعاشت فيه .

ثانيا : ليس كل مألوف تافه القيمة ، وليس كل جديد قيما خالدا ، لأن المألوف قد يحمل معه تجربة عاطفية تجعلنا ننفعل به ونحسه احساسا خاصا ، وكأننا نعيش فيه ونحيا معه ، فالشاعر العربى حينما رأى نخلة بعيدة عن موطنها أحس بغربتها وأحس بغربته معها فقال فى عبارة سهلة ساذجة :

الا يا نخلة بالسفح من اكناف حلوان
الا انى واياك على الدنيا غريبان

أو جعلها جارة له وخلع عليها حياة كحياته وشعورا كشعوره :

فياجارتا انا غريبان ها هنا
وكل غريب للغريب نسيب

فالشاعر لم يأت بجديد ، ولم يبتكر معنى عميقا بل هو أقرب الى السذاجة ، ولكنها سذاجة حبيبة الى النفس قريبة من القلب تثير فينا انفعالا وجدانيا ومشاركة عاطفية تجعلنا نحس احساس الشاعر ونبادله وجدا بوجد وتحنانا بتحنان .

ثالثا : تتسع آفاق الشاعر بمقدار اتساع تجاربه النفسية وثقافته العلمية وثروته اللغوية ، وكلما غزرت مادته اللغوية أعانته على اجادة التصوير وروعة الأداء ، وفى هذا يقول تشارلتن Cbalton « ان رأيت رجلا غنيا بألفاظه فاعلم أنه لذلك أوسع حياة من سواه وان رأيت رجلا قديرا على استخراج المعانى من ألفاظها فاعلم أيضا أنه أعمق حياة من سواه » (٢) .

ولعل هذا ما قصده جوته شاعر الألمان الكبير حيث قال : « فى كل فن تجد صلة نسب ، واذا رأيت فنانا كبيرا فلابد أنه قد وعى

(١) الأصول الفنية للأدب ص ١٨٨ .
(٢) فنون الأدب ص ٨ .

أحسن ما عند أسلافه وأن هذا هو الذى جعله عظيما » واعترف موليير بالاقتباس فقال : « اننى آخذ المعنى الحسن حيث أجده » ويقول لانسون : « ان أمعن الكتاب أصالة انما هو الى حد بعيد راسب من الأجيال السابقة وبؤرة للتيارات المعاصرة وثلاثة أرباعه مكون من غير ذاته . . . »

والدارس لابن زيدون يجد آثاره متسلسلة متناسقة فى نظم متلاحم الأجزاء مطرد السياق فلا تكاد تشعر أنه اقتبس شيئا من غيره الا اذا كنت تعرفه ولا نجد فى هذا الاقتباس قلقا أو غرابة وكأنه ولد على لسان الشاعر وانبثق من أحاسيسه ومشاعره وتجاربه الوجدانية العميقة ؛ والشاعر يمتاز بأذن موسيقية بارعة فى اختيار الألفاظ وجودة التعبير والفنان الأصيل هو الذى يمتاز بجودة الصياغة ومعاودة النظر فى الصقل والتهذيب وفى هذا يقول شلى : « ان الفن عرق وجهاد شاق » (١) ولقد ذكر محرر مجلة المصور (٢) أن بالمتحف البريطاني خمسا وسبعين صورة من قصيدة توماس جراى الشهيرة « مرثية فى فضاء كنيسة بالريف » كلها بخط توماس جراى نفسه ، كتبها فلم يرض عنها فأعاد كتابتها مرارا . . . وفى المرة الخامسة والسبعين أحس رضاءه عنها فكف عن محاولة الاعادة ، ولقد كتب بلزاك تجربة صفحة من مخطوط ألفه وأهداها الى النحات دافيد مذيلة بهذه العبارة « ليس النحت مقصورا على النحات وحده » (٣) .

ومن هنا ندرك معنى الشعر المنقح عند الشعراء الأقدمين ومعنى الحوليات عند زهير بن سلمى وأضرابه .

وفى ضوء ما سبق نستطيع أن نقرر أصالة ابن زيدون الفنية — وأن نردد مع شوقى قوله فى ابن زيدون :

---

(١) المجلة عدد أبريل سنة ١٩٥٨ .

(٢) العدد ١٩٧٩ بتاريخ ٦٢/٩/١٤ .

(٣) مبادىء علم النفس الطبعة الثانية بدار المعارف سنة ١٩٥٧ ص ٢٥١ .

أنت فى القــول كله	أجمل الناس مذهبا
بأبى أنت هيـــكلا	من فنون مركبـــا
شـــاعرا أم مصورا	كنت أم كنت مطربا
ترســـل اللحن كله	مبدعا فيـــه مغربا
أحسن الناس هاتفا	بالغوانى مشببا (١)

---

(١) من قصيدة شوقى فى تقديم ديوان ابن زيدون طبعة كامل كيلانى .

الفصل الثانى

شاعر الحب والجمال

ان أصدق وصف نستطيع أن نطلقه على ابن زيدون هو « شاعر الحب والجمال » ولسنا نمنحه هذا اللقب مجاملة أو انسياقا مع المشاركة الوجدانية ، وانما خلعنا عليه هذا اللقب نتيجة دراسة علمية عميقة ارتكزنا فيها على علم النفس والفلسفة والجمال ، واستعرضنا آثار الشاعر فى ضوء حقائقها العلمية وخرجنا منها بالنتيجة المطلوبة .

والحب والجمال يلتقيان فى الأساس ويفترقان فى المظهر كالصفحتين المتقابلتين لورقة واحدة اذا صح هذا التعبير فكلاهما لصيق بصاحبه مؤثر فيه متأثر به ، فالجمال يخلق الحب ، والحب يخلق الجمال وكلاهما مرتبط بصاحبه أشد الارتباط .

وتزداد عاطفة الحب اشتعالا اذا حالت الحوائل بين المحبين وكثر المتنافسون على الحبيبة ، ولم تجد العاطفة بما قامت عليه من الغرائز رياء لها ، فيضطر المحب الى كبت عاطفته فتزداد حدة وعنفا ، والى هذا يشير الدكتور ليبمان بقوله : « ان العواطف المكبوتة تثأر لنفسها آخر الأمر فى صورة مرض عقلى أو بدنى » ولكن الفنان ينفس عن عاطفته المكبوتة بابرازها من مرجلها فى صورة عمل فنى بديع .

والتجربة العاطفية العميقة التى خاضها الشاعر أذاقته جميع ألوان الحب من وصال وهجر ومن صد ودلال ومن غيرة وثقة ، ومن نأى وانجذاب ، ومن رقة وقسوة ، وقد استغرقت هذه التجربة العاطفية حياة الشاعر كلها وامتدت به ومعه من فورة الصبا الى

ثورة الشباب الى قوة الرجولة الى حنين الكهولة ، فأحس نشوة اللقاء كما ذاق مرارة الجفاء وسعد بالوصال كما شقى بالدلال ، ونعم بالانفراد كما تجرع مرارة المنافسة ، واستمتع بنغمات اللقاء كما ابتلى بلفحات الحرمان .

وتقاد الأدب يقسمون الحب الى قسمين متمايزين هما الحب العذرى أو الأفلاطونى ؛ والحب الحسى أو المادى وان كان هذا التقسيم غير دقيق لأن الحب العذرى لابد أن يرتكز فى مبدئه على الحب الحسى أو المادى ، وفى هذا يقول بونتج : « ان جمال الحب وقوته لا يتمان الا اذا احتضنتهما الغريزة ، على أنه اذا غطت الغريزة الحب تكشف لنا الانسان على صورة حيوان » .

فى سن المراهقة يفرز الجسم بعض الهرمونات التى تنفذ الى الدم فتحدث تغييرا نفسيا وجسميا ، ثم تصحب هذا التغيير مشاعر جديدة ، فيسوق حب الاستطلاع العقل الى الأمام ويرده الحياء الى الوراء ، ويصاب الشاب بالارتباك فى حضرة الجنس الآخر ، وتتعلم الفتاة كيف يحمر وجهها خجلا ، وقد يصبح الطفل بغتة ذكيا بعد أن كان غبيا أو يصبح عنيدا بلا سبب معقول بعد أن كان مطيعا وتنتاب الفتى والفتاة نوبات من التأمل الداخلى ... وينفتح الخيال وتظهر دولة الشعر وتسرع كل موهبة فى النمو (١) ...

وفى هذه الفترة يتدفق الحب فيغمر الفنون بحيويته فتنمو وتزدهر ، فالحب يتخيل الجمال ويبحث عنه وقد يبتدعه ويتخيل الخير وينشده ويصمم على تحقيقه ، ويعمل الفكر على التجاوب مع الوجدان ، وينشط الخيال وتكثر الأحلام ، وينتهى الأمر أحيانا بعبقرية فذة مثمرة (٢) وأساس هذا كله ناجم فى مبدئه عن الغريزة الجنسية ، والعاطفة فى هذا أشبه ببذرة وضعناها فى باطن الأرض فامتدت جذورها فى أعماق الطين ، ولكن ساقها شق التربة وامتد

---

(١) طب العقل والنفس ص ١ .

(٢) مباهج الفلسفة الكتاب الاول ١٦٨ ، ١٦٩ .

فى الفضاء ثم تكشف عن أزهار يانعة وثمار حلوة دانية وظل ظليل ، والى هذا أشار جوته بقوله : « عندما يتحرك الحب الانسانى ويسرع الخطأ تتفتح بذرة الحب الالهى » (١)

ولقد سار شاعرنا على هذا النهج مدفوعا بالعوامل الطبيعية لعاطفته المشبوبة فقد بدأ غزله حسيا كما ذكرنا :

لما انثنى فى سكره قضيبا
تشدو حمام حليه تطريبا
هصرته حلو الجنى رطيبا
أرشف منه المبسم الشنيبا

ولقد عبر الشاعر عن نشوة الوصال فى مقطوعات كثيرة بالديوان :

مراد من الحب غض الجنى
لديه من الوصل ورد علل
ليالى ما انفك يهدى السرو
ر حبيب سرى ورقيب غفل (٢)

وهو يتذكر أيام اللقاء ويكرر ذكرها فى نشوة واعجاب :

اذ جانب العيش طلق من تألفنا
ومورد اللهو صاف من بصافينا
واذ هصرنا فنون الوصل دانية
قطافها ، فجنينا منه ماشينا

ويعجب لمرور هذه الأيام مثل لمح البصر وكأنها لم تكن :

كأننا لم نبت والوصل ثالثنا
والسعد قد غض من أجفان واشينا

---

(١) طب العقل والنفس ص ١ .

(٢) الديوان ص ١٥٦ : لما تمايل قده المشوق كالقضيب ورنن حليه كتغريد الحمام ضممته الى بقوة مقبلا ثغره العذب .

سران فى خاطر الظلمـــاء يكتمنا

حتى يكاد لسان الصبح يفشينا(١)

ولكنه الى جانب هذا لهج بالحب العذرى وتعلق بالعفاف :

ورب ظـــلام ليلى جـــن فوقى

فنبت عن الصباح الى الصـــباح

فهل عدت العفاف هنـــاك نفسى

فديتك ، أو جنحت الى الجناح(٢)

وهو لا يتطلع من حبها الى أكثر من أن ترف أمانيه حولها :

فى المســـاء والصباح وان يتلقى

ســـلامها فى أنفـــاس الرياح

فؤادى من أسى بك غـــير خـــال

وقلبى عن هوى لك غير صـــاح

على حالى وصـــال واجتنـــاب

وفى يومى دنو وانتزاح

وحسبى أن تطـــالعك الأمـــانى

بأفقك فى مســـــاء أو صـــباح

وان تهـــدى الســـــلام الى غبا

ولو فى بعض أنفـــاس الرياح (٣)

والشاعر قد تواتيه الفرصة وتسمح له بنيل ما يشتهيه ولكنه يقنع بما دون الاثم من لذات :

---

(١) الديوان

(٢) الديوان ص ٤٣٠ ــ جن : استتر جنح : مال ، الجناح (بضم الجيم) الاثم .

(٣) الديوان ص ١٤٩ ــ انتزاح : بعـــد ، غبـــا : مرات متباعدة ــ ومن المأثورات : زر غبا تزدد حبا .

لم أنس اذ باتت يدى ليــــلة
وشاحه اللاصق دون الوشـــاح
ألمت بالألطف منـــــه ، ولــم
أجنح الى ما فيه بعض الجناح (١)

والانصاف يقتضينا أن نذكر ان هذه العفة والحديث عنهـــا يظهران فى المواقف الرسمية فى مقدمات قصـــائده أو عند لوعة الحرمان ، وكم للحرمان من أياد بيضاء على الفنون الجميلة ولولا الحرمان ماسعدنا بأروع آيات الفنون ، لأن الرى يغفل عاطفة الحب أو يضعفها ، والحرمان يشعلها وينميها ، ولقد فطن الشعراء قديما بفطرتهم الطبيعية الى هذا فقال قائلهم :

كم من دنىء لهـا قد صرت أتبعه
ولو صحا القلب عنها كان لى تبعا
وزادنى كلفـا فى الحب أن منعت
أحب شيء الى الانسان مامنعا (٢)

ومعظم ما ابدعه شاعرنا فى روائعه يقوم على الحرمان :

سأقنـــع منـــك بلحظ البصر
وأرضى بتســليمك المختصر
ولا اتخطى التمـــاس المنى
ولا اتعـدى اختـلاس النظـــر
أصــونك من لحظـــات الظنون
وأعليــك عن خطـرات الفـــكر
واحــذر من لحظـــات الرقيب
وقد يستدام الهوى بالحـذر (٣)

(١) الديوان ص ٢٤٧ .
(٢) الأغانى جـ ١١ ص ٢٣ من ابيات للأحوص .
(٣) الديوان ص ١٦٨ .

وأقصى ما يتطلع اليه من آمال أن يصبح عبدا لطيفها الحبيب :

سلنى حيـــاتى أهبهـــا فلســـــت أملـــك ردك
الدهر عبـــدى ، لمـــا أصبحت فى الحب عبدك (١)

وقد ابتدع الشاعر فنا جديدا نستطيع أن نسميه «غزل المكايدة» وهو من وحى الحرمان أيضا ؛ وهو يرمى فى هذا النوع من الغزل الى أهداف ثلاثة هى :

الهدف الأول : مكايدة منافسيه ممن يحومون حـــول حبيبته واشعارهم بأنه نال منها كل ما يشتهى وانصرف عنها الى ســواها وترك لهم فضلاته ، وهو فى هذا المظهر يبالغ فيما ظفر به منها :

اذ الدنيـــا متى نقتـــد أبى سرورهـــا يتبـــع
واذ للحظ اقبــــــال واذ فى العيش متمتـــع
واذ أوتارنا تهفـو واذا أقداحنــــــا تترع
وأوطار المنى تقضى وأسباب الهوى تشفع(٢)

وقد تحدثنا عن وصف ليلته التى قضـــاها فى صحبة ولادة وسجلها فى عبارته النثرية المسجوعة (٣) ، وهـــو ينـــذر ابن القلاس هاتفا به :

أعد نظرا فان البغى ممـــا لم يزل يصرع
ولا تطـــع التى تغويك فهى لغيهم أطــوع
ولاتك منــــك تلك الدار بالمرأى ولا المسمع
فان قصارك الدهليز حيث سواك فى المضجع(٤)

ويقول فى ابن عبدوس وكان يلقب بالفار :

أكل شهى أصبنـــا من أطايبـــه
بعضا وبعضا صفحنا عنه للفـــار

---

(١) ص ١٦٥ .
(٢) الديوان ٥٧٨ ، ٥٧٩ .
(٣) الديوان ص ٧٧٧ — ٧٨١ .
(٤) ص ٥٨٠ ، ٥٨١ .

ثم ينبئه أنه أخذ الجنى الغض وترك له فضلات الأمعاء :

وحسبى أنى أطبت الجنى لابانه وأبحت النفض
ويهنيك أنك يا سيدى غدوت مقارن ذاك الربض (١)

الهدف الثانى : اشعار حبيبته بأنه سلاها وانصرف عنها الى من هى أجمل منها وجها وأصغر سنا وأرق حاسة :

عاودت ذكر الهوى من بعد نسيان
واستحدث القلب شوقا بعد سلوان
من حب جارية يبدو بها صنم
من اللجين عليه تاج عقيان
غريرة لم تفارقها تمائمها
تسبى العقول بساج الطرف وسنان

ثم يعلن أن هذه الجارية انسته كل حب قديم وأن هواها الجديد سينسيه كل هوى ماض ، فهى بالنسبة اليه ايمان بعد كفران :

لاستجدن فى عشقى لها زمنا
ينسى سوالف أيامى وأزمانى
حتى تكون لمن أحببت خاتمة
نسخت فى حبها كفرا بايمان .(٢)

وهو يحاول أن يشعرها بأنها كانت كالثياب التى بليت من طول الاستعمال ، وانه استجد بدلها لباسا جديدا :

قد علقنا سواك علقا نفيسا
وصرفنا اليه عنك النفوسا
ولبسنا الجديد من خلع الحب
ب ، ولم نال أن خلعنا اللبيسا(٣)

---

(١) ص ٥٨٩ — الجنى : الثمر الغض ، النفض : ما تساقط من الورق والثمر لفساده ، الربض : مأوى الماشية أو احشاء الناقة أو ما تحويه الأمعاء .

(٢) الديوان ص ١٩٢ .

(٣) ص ١٩٥ .

ثم يهتف بابن عبدوس ليعلن الحبيب أنه استبدل غيره به ، وانه سعد بهذا البديل :

وأشـــعره أني انتخبت البديل
وأعمله أني اســتجدت العوض
فمـــا مشربى لقـــلاه أمر
ولا مضجعى لنـــواه أقض (١)

ثم يحمد الفراق لأنه أراحه ولأنه غسل عنه عار هواه النديم :

وأن يـد البين مشـــورة
لعـــار أماط ووصم رحض (٢)

الهدف الثالث : ايهام الجميع بأنه سلا حبيبته وانصرف عن هواه القديم لأنه كشف مافيه من زيف وتمويه :

يا مستخفا بعاشـــقيه ومســتفشا لناصـحيه
ومن أطاع الوشـــاة فينا حتى أطعنا السلو فيـــه
الحمــــد لله اذ أراني تكذيب ما كنت تدعيــه
من قبل أن يعرم التسلى ويغلب الشوق ما يليه (٣)

ومن الغريب انه كان قد وجه الى حبيبته قصيدة عاطفية رقيقة استهلها بقوله :

لو كان قولك : مت ، ماكان ردى : لا
يا جائر الحـكم أفـديه بمن علاد (٤)

ولكنه فى موقف المكايدة اضطر الى أن ينقض ماقاله فكتب اليها من قصيدة :

أما الحبيب الذى أبدى الجفاء لنا
فمـــا رأينـــا قلاه حادثا جللا

---

(١) ص ٥٨٩ القلى : البغض امر : صار مرا ، أقض خشن .
(٢) ص ٥٨٩ ـ أماط : ازال رحض : غسل .
(٣) الديوان ص ١٩٠ ـ يعرم يشتد ويشرس .
(٤) ص ١٧٩ .

ولم ترد أن ظفرنا ملء أعيننـــــا
بالمشترى فتجنبنا له زحــلا (١)
هذى الحقيقـــة لا قولى مخادعة
لو كان قولك «مت» ماكان ردى: «لا»

والشاعر هنا يخدع نفسه قبل أن يخدع أحدا ــ وهو يرمى من وراء غزل المكايدة الى ردع خصومه ومنافسيه ، وقــد نجح الى حد ما فى هذا الهدف ولكنه كان يرمى ــ أكثر من هذا ــ الى اثارة الغيرة فى نفس حبيبته ، ولكنه أخفق فى هذا الغرض كل الاخفاق ، لأن الغيرة اذا تجاوزت حدودها قتلت عاطفة الحب وحولتها الى عاطفة كراهية وانتقام .

وقد أدرك الشاعر هذا ولكن بعد فوات الأوان ، فعاد ينقض مابناه من غزل المكايدة ، فهو يقسم لها بأغلظ الايمان أنه ماسـلا هواها ولا انصرف عنها الى سواها ، ولا اتخذ منها بدلا ، وما اعتقد لها الا الوفاء :

لم نعتقــــد بعدكم الا الوفاء لكم
رأيا ولم نتقــــلد غـيره دينـــا
لا تحســبوا نأيكم عنـــا يغــيرنا
اذ طالمــا غير النــأى المحبينـــا
والله ماطلبت أهـــواؤنا بدلا
منكم ، ولا انصرفت عنكم أمانينا
ولا استفدنا خليلا عنــك يشغلنا
ولا اتخذنا بديلا منـــك يسلينا
أما هـــــواك فلم نعـدل بمنهله
وردا ، وان كان يروينا فيظمينا

ويعلنها أنه سيظل وفيا لحبها حتى يلقاها فى موقف الحشر ، وهذا الأمل باللقاء يكفيه ان عز فى الدنيا اللقاء :

---

(١) ص ١٩٤ .

ان كان قد عز فى الدنيا اللقاء ففى
مواقف الحشر نلقاكم ويكفينـــا

واذا كان قد هجرها حينا من الزمان فليس هــذا ناشئا عن السلوان ولكن عوادى الحدثان هى التى أرغمته على فراقها ارغاما :

لم نجف أفق جمـــال أنت كوكبـــه
لاهين عنـــه ولم نهجـــره ساليـنا
ولا اختيـــــارا تجنبنـــــاه عن كثب
لكن عدتنـــا عـــلى كره عوادينـــا
ولو صـــبا نحونا من علو مطلعـــه
بدر الدجى لم يكن ـ حاشاك ـ يصبينا(١)

وديوان الشاعر ملىء بهذه النغمات التى رددها نيفا وعشرين عاما ـ طواها يحوم حول حبيبته عن بعد ويرتل فيها أعذب الألحان وما أسعد الفن اذا رفده الحرمان .

* * *

والعاطفة اذا انطلقت جامحة عمياء فانها قد تؤدى الى الجنون أو الهلاك ، أما العاطفة السوية فهى التى تشايعها أضواء الفكر ؛ واذا كانت العاطفة تساعد الفكر على الانشـاء والابداع والتفنن فى التماس وسائل النجاح ، فان الفكر يساعدها فى الاتجاه الرشيد ويعاونها على بلوغ أهدافها بالرأى السديد ؛ وجميع الفنون هى ثمرة العاطفة الوجدانية العميقة التى تنظمها وتنسقها وتبرزها اشـعة الفكر الوضاء . « ولنذكر ان العاطفة المشبوبة غير المستنيرة بالعقل مجازفة غير مأمونة العواقب ، وأن الرقى فى التطور النفسى يتطلب السـلوك العقلى الذى هو فوق مستوى الغـرائز والعواطف جميعا .. » (٢) .

---

(١) انتخبنا هـذه المقطعات من قصـيدة الشاعر النونية ص ١٤١ ـ ١٤٨ من الديوان .

(٢) مسائل فلسفية الجزء الأول ص ٦٢ .

وشاعرنا على عمق عاطفته يستعمل الفكر المنطقى كثيرا فى غزله فهو يناشد حبيبته بأسلوب منطقى ألا تفسد ما توثق بينهما من الصلات القوية لمجرد خطرات ظن فاسدة ، واذا كان بينهما ألف سبب تحتم جميعها بواعث اللقاء فكيف تبيح لذنب واحد أن يفسد هذه البواعث جميعها ، وهبه أذنب خطأ فقد نال على ذنبه عقاب الخاطىء المتعمد فى عنف عنيف :

لا تفســدن ماقد تأكد بيننا　　من صالح خطرات ظن فاسد
حاشاك من تضييع ألف وسيلة　　شجى العدو لها بذنب واحـد
ان أجنه خطأ فقــد عاقبتنى　　ظاما بأبشع من عقاب العامد(١)

ثم هو يعلن لها أنه سيكتم اسمها فى غزله لأن قدرها وصفاتها المنفردة تغنيه عن ذكر اسمها :

لسنا نســميك اجـلالا وتكرمة
وقدرك المعتلى عن ذاك يغنينـا
اذا انفردت ، وماشوركت فى صفة
فحسبنا الوصف ايضاحا وتبيينا(٢)

وهو اذا استبدت به العاطفة لجأ الى الصبر وان لم يكن سهلا :

ليس لى صبر جميـل　　غـير أنى أتجمـل
ثم لا بأس ، فـكم قـد　　نيل أمـر لم يؤمل (٣)

وعقله المفكر ينصحه بأن يحذر العيون ، ويتجنب اساءة الظنون ويصبر فان العاقبة للصابرين :

لئن فاتنى منـك حظ النظـر
لأكتفين بســماع الخبر
وان عرضت غفـلة للرقيب
فحسبى تسـليمة تختصر

(١) الديوان ص ١٦٤ .
(٢) ص ١٤٥ ، ١٤٦ .
(٣) ص ١٨٢ .

أحاذر أن تتظنى الوشـــــاة
وقـــد يستدام الهوى بالحـــذر
وأصـــبر مستيقنـــا انه
سيحظى بنيل المنى من صبر (١)

وللشاعر قصيدة رائعة تتساوق فيها العاطفة العميقة مع الفكر المنطقى الدقيق (٢) ، فهو يستهلها بأنه سيظل وفيا لها فى مستقبله كما كان وفيا فى ماضيه على الرغم من دواعى اليأس منها ، وعلى الرغم من اصغائها للوشاة ، وتصديقها لهم واقبالها عليهم ورضائها عنهم .

لئن قصر اليأس منـــك الأمل … وحال تجنيك دون الحيـــــل
وناجاك بالافك فى الحســـود … فأعطيته جهـــرة ما ســـأل
وراقك سحر العـدا المفترى … وغـــرك زورهم المقتبـــــل
وأقبلتهم فى وجـــه القبـول … وقابلهم بشرك المقتبـــــل (٣)
فان ذمام الهـــوى لن أزال … أبقيه حفظـــا كمـــا لم أزل (٤)

ثم هو يناشدها التأنى فى فصم ما بينهما من صلات ؛ ويتساءل عن سبب انصرافها عنـــه ، ألم يصبر على ما يحتمله راضيا ليكون خفيفا على قلبها ؟ الم يقلل زياراته لها حتى لا تمله ؟ الم يتغاض عن اساءاتها التى توجهها اليه عامدة أو غير عامدة مع انها مناط آماله ، ومحط هواه :

عـــلام أطبتـــك دواعى القلى … وفيم ثنتك نواهى العـــذل (٥)
الم الزم الصـــبر كيما أخف … الم أكثر الهجـــر كى لا أمل
الم أرض منـــك بغير الرضى … وأبدى السرور بمـــا لم أنل

(١) ص ١٦٨ .
(٢) الديوان ص
(٣) قبله الشيء : قابله به ، القبول : المحبة .
(٤) المعنى ما زلت فى الماضى والحاضر ولن أزال فى المستقبل وفيا لحبك الغلاب .
(٥) أطباه : استماله اليه .

ألم اغتفـــر موبقـــات الذنو ب عمدا أتيت بهـــا أم زلل
على حين أصبحت حسب الضمير ولم تبغ منـــك الأماني بدل

ثم يصف لنا مادار بينهما من جدل فكرى كاد يطمس ما بينهما من مشاعر عميقة وناشدها أن تراجع نفســها وأن تعود لسجاياها الحلوة والى حبها القديم :

سعيت لتكدير عهـــد صـــفا وحــاولت نقض وداد كمـــل
ومهما هززت اليـك العتـــا ب ظاهرت بين ضروب العلل
كأنك ناظرت أهـــل الـــكلام وأوتيت فهما بعـلم الجـــدل
ولو شئت راجعت حر الفعال وعدت لتلك السجايا الأول (١)

ثم هو يؤذنها بأنها اذا لجت فى الدلال عليه فسيضطر لوداعها الى غير رجعة ، وهو مكره على اتخاذ هذا الموقف لأنهــا هى التى اصرت عليه ، واذا كانت قد سلته فسيقلدها فى سلوانها ويحاكيها فى انصرافها عنه :

عليك الســلام ســلام الوداع وداع هوى مات قبل الأجـل
وما باختيـــار تسليت عنـــك ولكننى مكـــره لا بطـــل (٢)
ولــم يدر قــلبى كيف النزوع الى أن رأى سيرة فامتثـــل (٣)

والعاطفة العميقة لا تكون كاملة حتى يتسع مداها فيمتد الى العشيرة ثم الى الوطن كله ثم الى العالم بأكمله فتتغنى بالحب كمـا تتغنى بالصداقة كما تترنم بالوطنية ثم بالعالمية الى أن تتصل بالمثل العليا من حب الحق والخير والجمال .

ان الجمال وثيق الصلات بالعقيدة الدينية . فقد نشأت الفنون الجميلة جميعها فى ظل الديانات ؛ ولقد أقامت الانسـانية فى عهودها الأولى الهياكل والمعابد والمحاريب والتماثيل تمجيدا للآلهة ، كمـا

---

(١) الفعال « بفتح الفاء » اسم للفعل الحسن والكرم .

(٢) « مكره أخـوك لا بطل » مثـل يضرب لمن يرغم على القيـام بأمر فيؤديه كارها .

(٣) النزوع عن الشىء : الاقلاع عنه .

أنشأت فنون الرقص والغناء والموسيقى والتمثيل تقديسا للأرباب واستجلابا لرضائهم ودفعا لسخطهم ؛ أما الأديان السماوية فقد أعطت الفنون الجميلة حقها على ألا تكون مدعاة للهو والعبث وعلى أن تكون بعيدة عن اثارة الغرائز والشهوات وبشرط أن تظل مجرد رموز تدل على عظمة الخالق وتقديسه لا أن تشاركه فى قداسته أو تنفرد دونه بالعبادة والتقديس : ولقد من الله على سليمان عليه السلام بأنه سخر له الجن « يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات . . » (١)

أما الاسلام فقد أشاد بالفنون الجميلة فى الحدود التى اشرنا اليها آنفا ؛ روى مسلم عن عبد الله بن مسعود من حديث طويل : « ان الله جميل يحب الجمال » (٢) كما نوه القرآن الكريم والحديث الشريف بالزينة والطيبات والحسن قال تعالى : « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق . . » (٣) وقال جل شأنه « يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد » (٤) وقال عز من قائل « يأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا » (٥) ولفت أنظارنا سبحانه الى الطبيعة الجميلة فقال تعالى : « انا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب » (٦) وقال عز وجل « أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ، وما لها من فروج » (٧) ومن سبحانه على المؤمنين فخاطبهم قائلا : « ولكن الله حبب اليكم الايمان وزينه فى قلوبكم » (٨) وينبهنا سبحانه الى الزينة الحيوانية فقال جل شأنه

---

(١) سورة سبأ الآية ١٣ الجفان : القصاع الكبيرة ، الجوابى : الأحواض

(٢) شرح صحيح مسلم للنووى جـ ٢ ص ٨٨ – ٨٩ .

(٣) الآية ٣٢ من سورة الأعراف .

(٤) الآية ٣١ من السورة السابقة .

(٥) الآية ٥١ من سورة « المؤمنون »

(٦) الآية ٦ من سورة الصافات .

(٧) الآيه ٦ من سورة ق – الفروج : الشقوق .

(٨) الآيه ٧ من سورة الحجرات .

عن الأنعام « ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون ... والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة .. » (١) كما ينبهنا سبحانه الى الزينة النباتية ، فقال جل شأنه « ان جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا » (٢) ومن الله سبحانه على الانسان بأنه خلقه وسواه وعدله وأنه صوره «فى أحسن تقويم» وأنه تعالى « أحسن كل شيء خلقه ؛ كما وصف الله سبحانه وتعالى ما أعده للمؤمنين من « جنات عالية قطوفها دانية » « تجرى من تحتها الأنهار » وأنهم « يحلون فيها من أساور من ذهب ويلبسون ثيابا خضرا من سندس واستبرق متكئين فيها على الأرائك .. » (٣) كما وصف ما تحفل به من « سرر مرفوعة وأكواب موضوعة ونمارق مصفوفة وزرابى مبثوثة » (٤) وما بها من ولدان مخلدين « اذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا ، واذا رأيت ثم رأيت نعميا وملكا كبيرا .. »(٥) والاسلام هو دين الطهارة والجمال ، وقد أعطانا الرسول صلى الله عليه وسلم القدوة الطيبة والمثل الأعلى فى هذا ، فقد كان كثير الاغتسال كثير الادهان بالطيب ، وكان يهذب لحيته ويرجل لمته وكان لا يفارقه فى حضره وسفره مشطه ومقصه ومرآته ومكحلته وسواكه وهى وسائل النظافة والزينة المعروفة فى عصره ، وان كان يحرم الذهب والفضة والحرير على الرجال حتى لا تكون مدعاة للتفاخر بين المؤمنين وحتى لا تخرج بهم عن خلق الرجولة وحتى لا تكون وسيلة لكنز الأموال ؛ روى الترمذى فى صحيحه ان النبى صلى الله عليه وسلم « كان يأخذ من لحيته من عرضها وطولها »

---

(١) الآيات ٦ - ٨ من سورة النحل - تريحون وتسرحون تعودون مساء وتغدون صباحا .

(٢) الآية ٧ من سورة الكهف .

(٣) الآية ٣١ من سورة الكهف .

(٤) الآيات ١٣ - ١٦ من سورة الغاشية - أكواب : كئوس لا عروة لها ، موضوعة : بين ايديهم ، نمارق : وسائد ، زرابى : بسط ، مبثوثة : مفروشة

(٥) الآية ١٩ ، ٢٠ من سورة الانسان .

وروى مالك فى الموطأ أنه صلوات الله عليه رأى رجلا ثائر الرأس واللحية فأشار اليه ففهم الرجل اشارته وعاد وقد أصلح نفسه فقال صلى الله عليه وسلم « أليس هذا خيرا من أن يأتى أحدكم ثائر الرأس كأنه شيطان » وروى أبو داود الطيالسى فى مسنده عن المغيرة ابن شعبة أن النبى صلى الله عليه وسلم رأى رجلا طويل الشارب فدعا بمسواك وشفرة فوضع السواك تحت الشارب فقص عليه »(١) ونحن نعلم ان الدول الحديثة تختار السفراء من ذوى الهيئة الحسنة وقد سبقهم الرسول صلى الله عليه وسلم الى هذا ، فقد روى بزاز عن بريرة عنه صلى الله عليه وسلم « اذا أبردتم بريدا فابعثوه حسن الوجه حسن الاسم » (٢) وقد روت السيدة عائشة رضى الله عنها فى حديثها عن الامامة « يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله وأقدمهم هجرة فان كانوا سواء فليؤمهم أحسنهم وجها » (٣) والأحاديث فى هذا مستفيضة .

ولكن بعض المستشرقين يثيرون موقف الاسلام من فنى النحت والتصوير ، وفاتهم أن الاسلام أعلن حربا عنيفة على الوثنية وكانت متجلية فى عبادة التماثيل المنحوتة التى يسمونها الأصنام وأنه فى دعوته الى التوحيد اقتلع بواعث هذه العبادة المقيتة ؛ ومع هذا فقد بحث القدماء والمحدثون هذا الموضوع بحثا مستفيضا ، وانتهت غالبيتهم الى اباحة الصور المرسومة « التى لا ظل لهـا » واباحة التماثيل النصفية اذا لم تكن هذه وتلك موضعا للتقديس ، وفى هذا يقول الامام النووى فى شرحه لصحيح مسلم « ان تصوير صورة الحيوان وشبهه حرام شديد التحريم وهو من الكبائر بعكس الشجر والجبال وما ليس فيه حياة ، أما اتخاذ الصور فان كان فى موضع تكريم فهو حرام ؛ وان كان فى مكان امتهان فليس بحرام ، ولا فرق

---

(١) الدين والجمال ص ٥٠ ، ٥١ .

(٢) الجامع الصغير للسيوطى « حرف الالف » وذكر أنه حديث حسن .

(٣) الجزء الرابع من سند أبى داود فى حديثه عن الامامة .

فى هذا بين ما له ظل ولا لا ظل له ... » وقد عقب على هذا المرحوم الشيخ عبد العزيز جاويش بأنه « ليس المراد تعميم التحريم فى كل زمان ومكان ، وكل أمة ، فانه لا معنى لذلك الحجر متى أمن من جانب العبادة والتعظيم اللذين اختص الله بهما ... ومن القواعد الشرعية أن للوسائل أحكام الغايات والمقاصد ، فاذا كانت لغرض شرعى كانت واجبة ، وان كانت لمجرد الزينة كانت مباحة ، وان كانت للعبادة فهى حرام قطعا » (١) .

ونعود بعد هذا البحث العلمى فنتساءل عن المقاييس التى تجعلنا نحكم على الشىء بالجمال ؛ الواقع أن هذا الموضوع شغل أذهان الفلاسفة وعلماء الجمال وعلماء النفس منذ أمد بعيد ولا يزال يشغلهم حتى الآن ، وكثيرون منهم عادة يرددون قول أناتول فرانس : « أعتقد اننا لن نعرف بالضبط أبدا لم كان الشىء جميلا »(٢) ولهم العذر فى هذا فاننا لا نستطيع أن نجارى سكان تاهيتى فى اعجابهم بالأنف المفرطحة ، ولا سكان الصين فى شغفهم بالأقدام الصغيرة ولا العرب فى اعجابهم بالردف الثقيل ، ولا الزنوج فى حبهم الشفاه الغليظة ، فان الأذواق تختلف من جيل الى جيل ومن اقليم الى اقليم ، بل ان الناس يختلفون فى البيئة الواحدة والعصر الواحد فى تقبيحهم للجمال ، حتى « يستحيل وجود اتفاق تام على مقومات الشىء الجميل أو على الدرجات النسبية أو الخطوات التى يتدرج فيها المقياس من القبيح الى الجميل ، اذ ليس هناك حقائق أو مستويات منطقية فى عالم الفن كما فى الحساب أو الجغرافية أو الهندسة » (٣) والى هذا أشار الدكتور ماكس ديتز بقوله : « ان تاريخ الفنون بأسره مفعم بالمجادلات الذوقية » (٤) بل اننا نجد

---

(١) التصوير عند العرب ص ١٣٣ .
(٢) مباهج الفلسفة الكتاب الأول ص ٢٨٣ .
(٣) ميادين علم النفس الجزء الأول ص ٥٠١ .
(٤) الدين والجمال ص ٨١ .

المثال الجمالي عند الغربيين يختلف من شعب الى آخر ومن عصر الى عصر ، فقد كانت البدانة بدعة في بعض الأوقات ، تأمل صور السيدات اللاتي صورها روبنز والصبايا الممتلئات في صور رميراندت حتى العذراء في رسوم رافائيل كلهن مزدهرات الجسم ، ولكن حسناوات رينولدز وجنزبورو ورومني أكثر من ذلك رشاقة أما نساء هوبسلر فممشوقات القد وبغير أرداف ، وفي خلال الجيل الذي نعيش فيه تغير ذوق المرأة في جسمها من الامتلاء الدوري Doric الى الرشاقة الكورنثية ؛ فهيئات الجسم تتخذ كأزياء الثياب شيئا من التنويع والقداسة (١) .

وكلما تغيرت الحضارة والثقافة تغيرت أيضا مثل الجمال في الموسيقى والفن والشعر (٢) .

ولكننا على الرغم من هذا نستطيع باستعراض آراء الباحثين من قدماء ومحدثين أن نخرج ببعض النتائج الهامة التي يمكن أن تكون أساسا صالحا لتقويم المثل الجمالية (٣) .

يرد فيثاغورس جمال الموسيقى الى العلاقات الرياضية ويصف حركة الكواكب بالانسجام الدقيق ، اما افلاطون فيجعل الفن الجميل شعبة من علم الأخلاق ، وأما أرسطو فالجمال عنده هو التماثل والتناسب والترتيب العضوي للأجزاء في كل مترابط أو ما نستطيع أن نسميه التماثل والتناسب والترتيب والوحدة ، ويكاد كانت وشوبنهور يتفقان على أن الجمال صفة للشيء الذي يبعث في انفسنا اللذة بصرف النظر عن نفعه ويحرك فينا ضربا غير ارادي من التأمل ويشيع لونا من السعادة الخالصة ؛ ويقرر هيجل أن الجمال وحدة في تنوع وانتصار الصورة على المادة ، ويرى نيتشه أن كل ما ثبت ضرره يبدو قطعا قبيحا فنحن لا نأكل السكر لأنه حلو ولكننا نعده

---

(١) نسبة الى العصر الدوري في الحضارة اليونانية القديمة .

(٢) مباهج الفلسفة الكتاب الأول ص ٣٠٢ .

(٣) ميادين علم النفس الجزء الأول ص ٥٠٣ ، ٥٠٤ .

حلوا لأننا تعودنا أن نرى فيه مصدرا للطاقة ، وكل شيء نافع يصبح بعد وقت قصير لذيذا مقبولا ، وهى نظرية مادية بحتة محدودة بنطاق النفع والضرر ، وسار على هـــذا النهج سنتيانا حيث رد الجمال الى اللذة ، واتجه هذا الاتجاه ستاندال وهوبس . . . واتجه آخرون الى أن الجمال مرتبط بالصلات الجنسية وبالغوا فى هـذا الاتجاه مبالغة كبيرة ، فالجنس عندهم هو كل شيء وفى هذا يقول دى جورمون De Gormont : « سل ضفدعا ما الجمال ؟ يجبك أنه أنثاه :ضفدعة ذات عينين مستديرتين تبرزان من رأسها الصغير ذات فم واسع عريض وبطن أصفر وظهر بنى » (١)

ونحن لا ننكر أن للجنس أثره القوى كمـــا لا ننكـر أن للذة سيطرتها النـافذة ولكننـــا لا نستطيع أن نضغط القيم الجمالية ونحسبها فى هذين النطاقين المحدودين ؛ فان جمال الطبيعة « يقف الجمال فيه بعيـــدا عن منبعه فى الحب » (٢) ومن الجرأة البالغة التعجل فى وضع قوانين عامة مادية فالطبيعـة تستنكر التعميمات التى نتجاهل تنوعها غير المتناهى ، وهى مستعدة أن تلقى فى وجه قوانيننا الكلية آلافا من الاستثناءات .

ومع أننا لا نستطيع أن نجرد الجمال من العنصر الذاتى ؛ ولكننا ينبغى أن نعتمد فى بحثنا على الجانب الموضوعى ؛ وهنا نستطيع أن نطمئن الى أساس سليم نستمده من ارسطو ثم من كانت وشوبنهور وهيجل وغيرهم ونستطيع أن نجمله فيما يلى :

أولا : التناسق فى الأشكال والألوان والأنغـام سواء كان من فعـل الطبيعة أو فعل الانسان أو من فعلهما معا .

ثانيا : تحقيق هدف كريم سواء كان الهدف ماديا أو معنويا .

ثالثا : الوحدة التى تسرى فى كيان الشيء الجميل بحيث تضمه فى نسق مطرد منسجم خال من الالتواء أو الفوضى أو النشاز .

---

(١) راجع الفصل الثالث عشر من مباهج الفلسفة الجزء الأول .

(٢) المصدر السابق ص ٢٩٥ .

رابعا : التنوع المتناسق داخل نطاق الوحدة السابقة أو كما يقول هيجل « وحدة فى تنوع » .

خامسا : أن يبعث فينا مشاعر عميقـــة بالجدة وان كان مألوفا ، وبالراحة وان كان شاقا ، وبالسعادة وان كانت وهما .

سادسا : أن يحملنا على التقمص الوجدانى بحيث نتجاوب معه كل التجاوب وبحيث نحس اندماجنا الكامل فيه فلا ندرى أنحبه لأنه جميل ام نراه جميلا لأننا نحبه .

سابعا : أن يرضى فينا انفعـــالاتنا الطبيعية من غـرائز وعواطف أو مانسميه تحقيق اللذة على الا يعقبهـــا الم أو تؤدى الى الخروج على الأوضاع الاجتماعية والعقائد الدينية ؛ واللذة الروحية هى أعلى ضروب اللذات وأبقاها اثرا وأوسعها مدى واقربها الى نطاق الخلود لأنها تتعلق بما وراء الواقع المحدود

وفى ضوء ما سبق نستطيع أن نحدد موقف شاعرنا من هــذه القيم الجمالية التى لخصناها فى ايجاز :

بين الطبيعة والحب :

ان شاعرنا فى حبه العنيف لجمال المراة امتدت عاطفته القوية المشبوبة من جمال المراة الى جمال الطبيعــة ومزج بين الحبيبين مزجا رائعا وترنم بهما معا حتى التبس الأمر فلا ندرى احبه للمراة جزء من حبه للطبيعة أم حبه للطبيعة امتداد لحبه للمراة ، وبهذا حلق فى افق قلما حلق فيه سواه ، وقد الهمته طبيعـــة الأندلس الساحرة ما الهمته من الروائع الفنية التى سرت مع نبضات قلبه فهيمنت على مشاعره الوجدانية فى جميع مساربها ؛ وزاد فى ولعه بالطبيعة انها ارتبطت مع حبيبته أوثق ارتباط ؛ فطالما تلاقيـا فى الغياض الندية والرياض الشذية على المياه الجـارية بين الأزهار اليانعة والنسمات العليلة ، وكم مال معها كما يقول : « الى روض

مدبج فى وظل سجسج ، قد قامت رايات اشجاره ، وفاضت سلاسل أنهاره ، ودر الطل منثور ، وحبب الراح مزرور » (١) .

والشاعر حتى فى أيام محنته لا ينسى الترنم بعاطفته المشبوبة نحو الطبيعة الممتزجة بالهيام ، فانه بعد فراره من سجنه عاد الى الزهراء خائفا يترقب ، فأنسته الطبيعة الباسمة نكبته وذكرته بحبيبته « فوافاها ، والربيع قد خلع عليها برده ونثر سوسنه ووردة ، وأترع جداولها ، وأنطق بلابلها ؛ فارتاح ارتياح جميل بوادى القرى ، وراح بين روض يانع ، وريح طيبة السرى فتشوق الى لقاء ولادة وحن » (٢) وكتب اليها قصيدته الرائعة التى مزج فيها غزله بالطبيعة بغزله بحبيبته ، وفيها يقول :

انى ذكرتك بالزهراء مشتاقا
والأفق طلق ووجه الروض قد راقا
وللنسيم اعتلال فى أصائله
كأنما رق لى فاعتل اشفاقا
والروض عن مائه الفضى مبتسم
كما شققت عن اللبات أطواقا
ورد تألق فى ضاحى منابته
فازداد منه الضحى فى العين اشراقا
سرى ينافحه نيلوفر عبق
وسنان نبه منه الصبح أحداقا

فالطبيعة هنا بارزة باسمة تأخذ على الشاعر مذاهبه ، وتملك عليه سمعه وقلبه وتثير فيه الذكريات الحلوة العذبة بل هى كائنات حية تشاطره أحاسيسه ومشاعره ، فالروض يبتسم اعجابا ، والنسيم يرق فيعتل اشفاقا والروض يفتر ثغره ابتساما ، والنيلوفر الوسنان ينبه منه الصبح احداقا ، وقد أعجب نيكلسون بهذه

(١) الذخيرة ق ١ ج ١ ص ٢٧٧ ، ومحاسن النساء ص ١٠٩ .
(٢) قلائد العقيان ص ٧٣ .

القصيدة الرائعة فجعلها انموذجا لتوضيح الشعور العميق بالطبيعة التى يتميز بها الشعر الأندلسى (١) وشاعرنا مولع دائما بالربط بين جمال الطبيعة وجمال المراة فكلاهما رائع الجمال وان تباينت السمات، استمع الى وصفه لحبيبته وقد تهادت بين سرب من الحسناوات الرشيقات :

وغصن ترشف ماء الشباب ... ثراه الهوى ، وجناه الأمل
بدت فى لدات كزهر النجوم ... حسان التحلى ملاح العطل
مشين يباهين روض الربا ... يبانع روض الصبا المقتبل
فمن قضب تتثنى بريح ... ومن قضب تتثنى بدل
ومن زهرات تندى بمسك ... ومن زهرات تندى بطل (٢)

وهنا تبدو لنا مهارة الشاعر فى المزج بين ألوان الجمال وولعه بالموازنة والتناسق الذى يبرز الوحدة فى التنوع والتنوع فى الوحدة، فى بيان رائع يأخذ بالألباب .

وشعوره بالطبيعة لا يكاد يفارقه حتى فى غيابة السجن فانه يمزج شكواه بترانيمه الوجدانية التى يهديها الى مجالى الطبيعة فى حبيبته أو الى حبيبته فى مجالى الطبيعة ، حيث يقول :

ما جال بعدك لحظى فى سنا القمر
الا ذكرتك ذكر العين بالأثر
فى نشوة من سنان الوصل موهمة
الا مسافة بين الوهن والسحر
فليت ذاك السواد الجون متصل
لو استعار سواد القلب والبصر (٣)

المشاعر الوطنية والحب :

لهج شعراء الجاهلية بذكر مواطن الأحباب وبكوا على أطلالهم

(١) A Literary History of lbe Arabs P.425
(٢) الديوان ص ١٢٧ .
(٣) ص ٢٥١ .

البالية وربوعهم الخاوية من سقط اللوى وحومل الى حومانة الدراج والمتلثم الى الجواء وثهمد ؛ ولهم العذر فى هذه الذكريات التى تحمل الى خيالهم الصور الوجدانية والمشاعر العاطفية السابقة ، ولكنها تبدو فى شعرهم جامدة وترد متتابعة بحيث يضيق بها السامع ضيقا شديدا ، بهذا السرد الجاف ؛ اما هـــذه المواطن عند شاعرنا فانه استطاع ان يعرضها فى صور حية نابضـــة بالمشـــاعر الوجدانية والذكريات العاطفية العذبة ،وقد علل هو نفسه هذا الاتجاه الوجدانى فقال : « ... غير ان الوطن محبوب والمنشأ مألوف ، واللبيب يحن الى ،وطنه حنين النجيب الى عطنه ، والكريم لا يجفو أرضـا فيهـا قوابله ولا ينسى بلدا فيها مراضعه .. » (١) ثم ذكر أنه سـعد فى موطنه الجميل ودرج فى مهده الوضاء وعق الشباب به تمائمه (٢) ، فى هذه الربوع الفنانة ، وسعد فيه بكل غزال مشرق الوجه وضاح :

سقى جنبات القصر صوب الغمـائم
وغنى على الأغصـــان ورق الحمـــائم
بقرطبــــة الغـــــراء دار الأكارم

بلاد بهـــا عق الشباب تمائمى ،وانجبنى قوم هنـــــاك كرام

فكم لى فيهـــا من مســــاء واصباح
بكل غزال مشرق الوجـــه وضـــاح
يقـــدم أفواه الكئوس بتفــــاح (٣)

اذا طاعت فى راحه أنجم الراح فانا لاعظام المدام قيـــام (٤)

وإذا أبعدته الأحداث عن معاهد صباه ، ومرابع لهوه ، وأقامت

---

(١) الذخيرة ق ١ جـ ١ ص ٢٩٤ ، النجيب : الفحل الكريم من الابل ، القوابل : اللاتى يباشرن ولادة النساء .

(٢) عق الشباب تمائمه : أزال الشباب ما كان يحمله فى طفولته من الرقى والتعاويذ .

(٣) يقدم : يغطى .

(٤) الديوان ص ١٢٩ .

الحوائل بينه وبينها فانه يناجيها كما يناجي المحب حبيبته فى لهفة وهيام :

أليس عجيبا ان تشط النوى بك
فأحيا كأن لم أنس نفح جنابك
ولم يلتئم شعبى خلال شعابك
ولـم بك خلقى بدؤه من ترابك
ولم يكتنفنى من نواحيك منشأ (١)

والشاعر حينما يلهج بقرطبة ويهتف بالبنتى وجورفى الرصافة والعقاب والعقيق لا يكتفى بسرد الأسماء وانما يصف جمال هذه الربوع وما تحمله كل منها من ذكريات عذبة وصور رائعة :

ويوم لدى «البنتى» فى شاطىء النهر
تدار علينا الراح فى فتية زهر
وليس لنا فرش سوى يانع الزهر
يدور بها عذب اللما أهيف الخصر   بفيه من الثغر الشنيب نظام
وكم مشهد عند العقيق وجسره
قعدنا على حمر النبات وصفره
وظبى يسقينا سلافة خمره
حكى جسدى فى السقم رقة خصره   لواحظه عند الرنو سهام

والشاعر مخمستان طويلتان يلهج فيهما بهذه المواطن الجميلة ولا عجب ، فقد :

كساها الربيع الطلق وشى الخمائل
وراحت لها مرضى الرياح البلائل (٢)
وغادى بنوها العيش حلو الشمائل

---

(١) الديوان ص ١٣٣ أنشى : اسم ، الشعب : الصدع .
(٢) الديوان ص ١٢٨ – ١٣٨ .
راحت : خفت وطابت ، البلائل : المبتلة .

ولا زال منا بالضحى والأصائل سلام على تلك الميادين يقرأ
واحسن بأيام خلون صوالح
ب «مصنعةالدولاب» أو قصر«ناصح»
تهز الصبا أثناء تلك الأباطح
صفيحة سلسال الموارد سائح ترى الشمس تجلو نصلها حين يصدأ
فالشاعر معذور اذا بكى هذه المعاهد الجميلة المثيرة للذكريات :
معاهد أبكيها لعهد تصرما
أغض من الورد الجنى وأنعما
لبسنا الصبا فيها حبيرا منمنما
وقدنا الى اللذات جيشا عرمرما له الأمن ردء ، والغضارة مربأ(١)
فهى معاهد ذاق فيها حلاوة الحب وتمتع فيها بمجالى الطبيعة وذاق فيها متع الشباب ولذات الحياة :
معاهد لهو لم تزل فى ظلالها
تدار علينا للمجون مدام
زمان : رياض العيش خضر نواضر
ترف ، وأمواه السرور جمام (٢)
فان بان منى عهدها فبلوعة
يشب لها بين الضلوع ضرام
تذكرت أيامى بها ، فتبادرت
دموع ، كما خان الفريد نظام
محل غنينا بالتصابى خلاله
فأسعدنا والحادثات نيام (٣)

---

(١) الحبير المنمنم : الثوب الناعم الموشى ، الردء : الولى المعين ، الغضارة السعة والنعمة والخصب ـ الديوان ص ١٣٦ .
(٢) جمام : غزيرة .
(٣) الديوان ص ١٥٢ .

فالمعاهد ليست مجرد أماكن جامدة وانما هى :

معـاهد لذات وأوطار صـبوة
أجلت المعلّى فى الأمانى بها قدحا(١)

وليست الطبيعة عنده مواطن فحسب ، وانما هى أزمنة ترتبط ارتباطا وثيقا بتلك المواطن :

أين أيامنـا وأين ليـال ... كرياض لبسن أفواف زهـر
وزمـان كأنمـا دب فيـه ... وسن أو هفـا به فرط سكر
حين نغدو الى جـداول زرق ... يتغلغلن فى حـدائق خضر
فى هضاب مجلوة الحسن حمر ... وبراث مصـقولة النبت عفر
نتعاطى الشمول مذهبة السر ... بال ، والجو فى مطارف غبر (٢)

وهنا نلحظ اتساق الألوان على تباين الأشكال ونرى مزج المكان بالزمان ، ونشاهد كيف تدب الحياة فى الطبيعة فالأيام والليالى مثل الرياض المكسوة بالأزهار ، والزمان يترنح فى نشـوة مرحة كأنما مالت به سنة الكرى أو رنحت عطفيه نشوة المدام ، ويتكرر هـذا المعنى فى شعره ، فنعيم العيش عنده كخضرة الخد الجميل المزين ببدء نمو الشعر فيه ، وساعات الزمان يجول فيها اللهو كما يترقرق الطل فى أحداق الأزهار :

وهـل أنسى لديك نعيم عيش ... كوشى الخـد طرز بالعـذار
وسـاعات يجول اللهو فيها ... مجال الطل فى حدق البهار (٣)

---

(١) المعلى أوفر سـهام الميسر حظـا ، والقدح السهم قبل تهيئتـه وكانوا يستعملونه فى لعب الميسر ـ الديوان ص ١٦٠ .

(٢) الديوان ص ٣٣٣ ، الوسن : النوم ، هفا ، مال ، البراثى : الأرض السهلة الجميلة ، عفر : مائلة للبيـاض ، الشمول : الخمر ، المطارف البسة من خز مربعة لها أعلام والمراد أن الجو غائم .

(٣) الديوان ص ٢٠٥ ـ البهـار : زهر أصـفر طيب الريح يعـبرف بعين البقر .

وتشع هذه الصور فى قصـــائده حتى فى الرثاء فهو حين يرثى ابا الحزم بن جهور ويتحدث عن محبة ابنه المتغلغلة فى أعماق النفوس ويذكر الخمر التى تدب فى أعضاء الجسم ، كما يذكر الأمن وظلاله الندية وزهرة العيش التى أينعت كالزهر ، والدنيا التى رنحهـــا الكرى أو مال بأعطافها السكر . وهنا نجد حب الشاعر للطبيعة قد انساه موقف الرثاء :

أهابت اليــــه بالقـــلوب محبـــة
هى السحر للأهواء بل دونها السحر
سرت حيث لا تسرى من الأنفس المنى
ودبت دبيبا ليس يحسنه الخمـــر
لبسنا لديه الأمن نـنــدى ظـــلاله
وزهـــرة عيش مثلما أينع الزهـــر
وعادت لنا عادات دنيـــا ، كأنمـــا
بهـــا وسن أو هز اعطافها سكر (١)

الحب والصداقة :

وليس حب الشاعر مقصـــورا على المرأة ولا على الوطن وانما يمتد الى الأصــــدقاء ؛ فحنينــــه الى حبيبتـــه يختلط بنزوعه الى الطبيعة ويمتزج الاثنان بعاطفة الصداقة الجميلة ؛ فهو يناجيهم ويهفو اليهم فى لهفة وشوق وهيام :

يضـــيق بأنواع الصـــبابة مذهبى
الى كل رحب الصدر منكم مهـــذب
مفضض لالاء الأســـارير مــذهب
ينافس منه البدر غرة كوكب دری أنها ابهى سناء واضوأ
اسقت فما ارتاح والراح تعمـــــل
ولا اسعف الأوتار وهى ترســــل
ولا ارعــوى عن زفــرة حين اعـــذل

---

(١) الديوان ص ٥٢٥ .

ولالى مـذ فارقتكم متعلل سوى خبر منكم على النأى يطرا (١)

وهو حينما يصف صديقه ابا القاسم بن رفق يمزج الوصف بالغزل ، فهو فكه ترد العيون منه مناهل البهجة والسرور وهـو يخجل الورد بخلائقه الوضاءة ، واذا غازلته العيون كاد من الرقة يسيل ويتدفق :

بان عنى ، وكان روضـة عينى
فغدا اليوم وهو روضـة فكرى

فـكه يبهج الخليـل بوجـه
ترد العين منـه ينبـوع بشر

لوذعى أن يبـله الخـبر يوما
اخجل الورد عن خلائق زهر (٢)

واذا غازلتـه مقـلة طـرف
كاد من رقة يذوب فيجـرى (٣)

ثم يناجيه ويناغيه :

يا أبا القـاسم الذى كان ردئى
وظهيرى على الزمان وذخرى (٤)

يا أحق الورى بممحوض اخـلا
صى ، وأولاهم بغـاية شـكرى

ليت شعرى ـ والنفس تعلم ان ليـ
ـس بمجد على الفتى : ليت شعرى

هل لحالى زماننـا من رجـوع
أم لمـاضى زماننـا من مكر (٥)

---

(١) الديوان ص ١٣٧ ، ١٣٨ . الاسارير : الخطوط الظاهرة فى الجبهة ، ترسل : تترسل : تنساب فى رفق ولين ، ارعوى : اكف ، أعدل : الام .

(٢) اللوذعى : ظريف ، الخبر : التجربة .

(٣) الديوان ص ٢٣٢ .

(٤) الردء والظهر المعين المساعد .

(٥) مكر : رجوع .

والشاعر لا يتغنى بجمال الطبيعة الا تغنى بحبيبته كما تغنى بصداقاته :

على « الثغب الشهدى » منى تحية
زكت ، وعلى «وادى العقيق» سلام
ولا زال نور فى «الرصافة» ضاحك
بأرجائها تبكى عليه غمام
تذكرت أيامى بها فتبادرت
دموع كما خان الفريد نظام (١)
وصحبة قوم كالمصابيح كلهم
ــ اذا هز للخطب الملم ــ حسام
اذا طاف بالراح المدير عليهم
أطاف به بيض الوجوه كرام

ثم ينتقل الى ذكرى الحبيب :

واحور ساجى الطرف ، حشو جفونه
سقام يرى الأجسام منه سقام (٢)
تخال قضيب البان فى طى برده
اذا اهتز منه معطف وقوام
يدير ــ على رغم العدا من وداده
سلافا ، كأن المسك منه ختام (٣)

ولا نحب أن نطيل فى ذكر الأمثلة فالديوان حافل بهذه الظاهرة القوية التى يمتزج بها الحب بالصداقة بمظاهر الطبيعة الجميلة الفياضة .

---

(١) تساقطت دموعى كما تتساقط حبات العقد .

(٢) احور شديد بياض العين حول انسانها الشديد السواد ، يرى أنحل ــ ساجى الطرف : ساكنه فى حياء وخجل .

(٣) الديوان ص ١٥٢ ، ١٥٣ .

التقمص الوجداني :

كان تيودور ليبس العالم النفسي Theodor Lipps والفيلسوف الألماني أول من كشف هذه الظاهرة اثناء بحوثه فى الخداع البصرى، وأسس من تجاربه نظرية ملخصها ان يحس الشخص ذاته داخل الموضوع الذى يعالجه ؛ وهذا التقمص وسيلة من وسائل الفهم والمعرفة وهو مزيج من الاستدلال الفكرى والحدس الالهامى والفعل الجسمانى ، والتقمص ليس مقصورا على الخبرة الجمالية بل انه هو المبدأ النفسى « السيكولوجى » لمنبع المعانى كلها ... واقام الفلاسفة والنقاد على هذه الظاهرة نظرية للجمال وان كانوا قد بالغوا فقصروا الادراك الجمالى عليها وحدها (١) ونستطيع ان نبسط هذه الظاهرة فنقول : « اننا نميل الى أن نحس انفسنا فى الموضوعات التى نمعن النظر اليها حتى نصبح نحن والصورة التى نراها والموسيقى التى نسمعها والمسرحية التى نشاهدها والقصة التى نقرؤها شيئا واحدا» ولعل لامرتين أدرك بحسه المرهف هذهالظاهرة فعرف الشعر بأنه « احلال كل مافى نفس الانسان وقلبه من مشاعر خاصة وكل ما فى عقله من تفكير مقدس فى الطبيعة ومزج كل أولئك بما فيها من جمال التصوير والتوقيع » (٢) والفن الكامل هو الذى تتعاون فيه جميع المواهب والمدارك ، ولهذا قرر جويو « ان التصوير فى الشعر يكون نتيجة لتعاون كل الحواس وكل الملكات » (٣) .

والدارس لآثار شاعرنا يراه يندمج بالطبيعة فى جميع فنون شعره ويتجاوب معها ويتأثر بها ويحاول التاثير فيها ، فهو يرتاح لريح الشمال ولريح الجنوب ويصبو لشذا ريح الشرق « الصبا » وينفعل مع البرق اذا ابتسم :

---

(١) ميادين علم النفس الجزء الأول ص ٤٧٥ .

(٢) تيارات ادبية ص ٢٤ .

(٣) مسائل فلسفة الفن المعاصرة ص ٧٣ .

واني أراح اذا ما الجنـــو ب راحت بريا جنوب العــلم
واصبو لعرفان عرف الصـبا واهدى السلام الى ذى سلم
ومن طرب عـــاد نحـو البرا ق أجهشت للبرق حين ابتسم (١)

والنسيم حين يسرى يرق له فيعتل اشفاقا ، والندى يرثى له فيجول دممه رقراقا :

انى ذكرتك بالزهراء مشـــتاقا
والأفق طلق ووجه الروض قد راما
وللنسيم اعتــلال فى أصــــائله
كأنه رق لى فاعتـــل اشــفاقا
نلهو بما يستميل العـين من زهر
جال الندى فيه حتى مال اعناقا
كأن اعينـــــــه اذ عاينت ارقى
بكت لما بى فجال الدمع رقراقا (٢)

وحين تفيض عاطفته الوجدانية يتجاوب مع الطبيعة تجــاوبا كاملا فالحمامة الورقاء شفها الحزن كما شفه فباتت وبات يشكوان الهيام والغصن يهفو بينهما ارتياحا لما يوقعانه من الحان الهيام :

وارق العين والظلمـــاء عاكفـه
ورقاء قد شفها اذ شفنى حـزن
فبت أشكو وتشكو فوق أيكتهــا
وبات يهفو ارتياحا بيننا الغصن (٣)

واذا سعد بلقاء حبيبته تخيل الوصل شخصا ثالثا يظللهما

---

(١) الديوان ص ٢٠٧ ، ٢٠٨ أراح : ارتاح ، الريا : الرائحة الجميلة ، اصبو : اميل ، العرف : الرائحة الزكية ، الصبا : الريح السريعة ، ذو سلم : واد بالحجاز ، اجهش : فزع بالبكاء .

(٢) الديوان ص ١٣٩ .

(٣) الديوان ص ١٦٢ .

بجناحيه ، والظلام يكتمهما فى جانحتيه ولسان الصبح يعلنهما على شفتيه ، وكان السعد ــ من قبل ــ قد شدهما عن أجفان الوشاة :

كأننا لم نبت والوصــــل ثالثنــا
والسعد قد غض من أجفان واشينا
سران فى خاطر الظلمــــاء يكتمنا
حتى يكاد لسان الصبح يفشينا(١)

وهو كما يتأثر بالطبيعة يؤثر فيها سواء فى نعيمه أم فى بؤسه :

ان الزمان الذى مازال يضحكنــا
أنسا بقربهم قـــــد عاد يبكينــا
حالت لفقدكم أيامنــــا ، فغــدت
سودا ، وكانت بكم بيضا ليالينا
اذ جانب العيش طلق من تألفنا
ومورد اللهو صاف من تصــافينا
واذ هصرنا فنون الوصــل دانية
قطافها ، فجنينا منه ماشينا (٢)

وهو فى محنته تظل صلاته بالطبيعة وثيقة فعليها ان تشاركه فى محنته كما شاركته فى نعمته ، فعلى الغمام ان يبكيه ، وعلى البرق ان يطالب بثأره ، وعلى النجوم أن تندبه وتقيم عليه المآتم :

الم يأن أن يبكى الغمــــام على مثلى
ويطلب ثأرى البرق منصلت النصل
وهلا أقامت انجم الليــــل مأتمــــا
لتندب فى الآفاق ماضاع من مثلى (٣)

---

(١) الديوان ص ١٤٦ .
(٢) الديوان ١٤٢ ، ١٤٣ .
(٣) منصلت النصل ظاهر الحد ، والنثل : ضرب من الطيب ــ الديوان ص ٢٦١ ، ٢٦٢ .

حتى قريحته اذا انقدح زنادها أضاء شررها الظلماء ، والربيع يستعيد من خاطره النثر وينضد من وحيه الشعر :

ولولاك لم تثقب زنـــــاد قريحتى
فينتهب الظلمـــاء من نارها سقط
ولا القت أيـدى الربيـــع بدائعى
فمن خاطرى نثر ، ومن روضه لقط(١)

وهو فى مناجاته لحبيبته يمتزج معها بالطبيعة فالزمان استفاد جماله ونضرته من شبابها ؛ والليل تقصر ساعاته مطارحة الهيـام ومقارعة الكئوس ، والنسيم العليـــل يرق متجـاوبا مع المناجاة والمناغاة :

واها لعطفـــك والزمان كأنما ... صبغت غضارته ببرد صبـاك
والليل مهمـا طال قصر طوله ... هاتى ــ وقدغفل الرقيب ــ وهاك
ولطالما اعتـــل النسيم فخلته ... شكواى رقت فاقتضت شكواك
اما منى نفسى فانت جميعهـا ... يا ليتنى أصبحت بعض مناك

حتى وصفه لشعره :

تنافســـه الرياض منورات ... تنفس عن نوافحها الأصيل(٢)

ولا عجب فالشعر عنده هو لؤلؤ الطل فوق عيون النرجس ، أو نسيم الروض تحت ظلام الحندس (٣) وهو منـــه بين السهل المطمئن او الحزن الصعب (٤) أو بين اليأس والرجاء :

أسقيط الطـل فوق النرجس ؟
أم نسيم الروض تحت الحندس(٥)

---

(١) الديوان ٢٨٨ ، ٢٨٩ ثقب : اتقد ، سقط ، شرر .
(٢) الديوان ص ٣٢٤ ــ ٣٢٥ .
(٣) ص ٣٢٣ .
(٤) الحندس الليلة المظلمة .
(٥) اشارة الى ما يطلقه النقاد على الكلام البليغ بأنه السهل الممتنع .

أم نظـــام للآل نســق ؟
جامع كل خطـــــير منفس (١)

دلهت فكـــرى من ابداعــه
حيرة فى منطــق لى مخـــرس

بت منه بين ســـهل مطمـــع
خادع يتلى بحـــزن موئس (٢)

فلا شعر عنده الا لمن كانت قريحته حديقة غناء تتفتح فيهـا الأزهار وترف فيها الثمار :

ما الشـــعر الا لمن قريحتـــه غريضة النور غضة الثمـــر
تبســـم عن كـــل زاهر ارج مثل الكمام ابتسمن عن زهر (٣)

وقد أعان الشاعر خياله الخصب وعاطفته القوية فسهلا عليه عملية التقمص الوجدانى :

يدنو بوصلك حين شط قراره وهم اكاد به اقبـــل فـــاك
ما الورد فى مجناه سامره الندى متحليـــا الا ببعض حـــلاك
كلا ولا المسك النموم أريجـه متعطـــرا الا بوسم ثنـــاك
اللهو ذكرك لا غنـــاء مرجـع يفتن فى الاطلاق والامساك (٤)

والشاعر حتى فى مدائحه يستعير من الطبيعة التى امتزجت بلحمه ودمه وتفكيره ما يزين به مدائحه ، فخلائق ممدوحه :

همم تنافسها النجوم ، وقـد تلا
فى سؤدد منهـــا العقيب عقيبـا

---

(١) عقد منظوم باللآلىء المنسقة ابدع تنسيق من كل غال ثمين .

(٢) الديوان ص ٢١٢ .

(٣) الديوان ص ٢٠٧ ــ غريضة غضة رطبة ، النور : الزهر الأبيض ، ارج : زكى الرائحة الكمام : غلاف الزهر .

(٤) الديوان ص ٣٤٦ ، ٣٤٨ ، ٣٤٩ ــ النموم : المذيع ، الأريج توهج ريح الطيب الوسم : العلامة الثنا " .ر الثناء وهو المديح .

ومحاسن تندى رقائق ذكرها
فتكاد توهمك المديح نسيبا

كالآس أخضر نضرة ، والورد أحم
ر بهجة ، والمسك أذفر طيبا (١)

وتتجلى هذه الظاهرة فى نثره كما تتجلى فى شعره فهو فى سجنه يخاطب أبا الحزم بن جهور قائلا : « وهل لبس الصباح الا بردا طرزته بفضائلك وتقلدت الجوزاء الا عقدا فصلته بمآثرك ، واستملى الربيع الا ثناء ملأته من محاسنك ، وبث المسك الا حديثا اذعته فى محامدك . . . » .

وفى مواقف الرثاء تستولى عليه هذه النزعة القوية فيقول فى رثاء ابن ذكوان (٢) :

أين الحفاوة روضها غض الجنى ؟
اين الطلاقة ماؤها سلسال ؟

هيهات لا عهد كعهدك عائد
اذ أنت فى وجه الزمان جمال

حيا الحيا مثواك ، وامتدت على
ضاحى ثراك من النعيم ظلال

واذا النسيم اعتل فاعتامت به
ساحاتك الغدوات والآصال

فأنت ترى فى الرثاء تعبيرات لا تكاد تراها الا فى النسيب أو وصف الطبيعة ، فالروض غض الجنى ، والطلاقة ماؤها سلسال والفقيد فى وجه الزمان جمال ، وتمتد على ضريحه ظلال النعيم والنسيم يعتل فتتناوله البكر والأصال لتهديه الى ساحته . . .

* * *

---

(١) الديوان ص ٣٢٩ ـ مسك اذفر : شديد الطيب .

(٢) الديوان ص ٧٠١ الديوان ص ٣٥٦ ، ٣٥٧ السحب : المطر ، الضاحى البارز للشمس ، أعتام : اختار .

والحقيقة أن هذه الظاهرة كانت قليلة قبل ابن زيدون ثم شاعت بعده فى شعراء الأندلس وساعد على ازدهارها طبيعة البلاد الرائعة الفتانة ، ومن ابرز الشعراء الذين اندمجوا فى الطبيعة وبرزت فيهم ظاهرة التقمص الوجدانى ابن عمار وابن خفاجة من شعراء الأندلس المتازين ؛ وهذه الظاهرة الواضحة جعلت بعض الباحثين الغربيين يقررون أن للأندلس صدى قويا فى شعر الطبيعة عند الاوربيين وان اختلفت بينهما السمات بحسب اختلاف المواهب والبيئات ؛ وذكر أن لابن زيدون اثرا واضحا فى شعر الطبيعة الأوربى الذى يربط بين الحب والطبيعة فى كثير من الاحيان (١) واذا كان مارتينو Mortino يقرر ان الفن وحده هو الذى يرد الطبيعة فى بعض نواحيها الى الانسانية (٢) فان ابن زيدون استطاع بفنه ان يحمل الطبيعة على مشاطرته ما احسه من احلام واشجان ومن الغريب أن معظم الباحثين لم يفطنوا لهذا الشعور العميق عند ابن زيدون ؛ وان كان نيكلسون لمح هذا فجعل قصيدته فى الزهراء معبرة عن الشعور العميق بالطبيعة (٣) كما فطن من الباحثين العرب الى هذه الظاهرة البارزة عند ابن زيدون أستاذنا الدكتور ابراهيم سلامة حيث قرر أن الاتجاه العاطفى الرمزى المتعلق بالطبيعة والذى اتجه اليه الأدب الأوربى فى القرن التاسع عشر كان معروفا لدى العرب من يوم ان عرفوا الشعر وبخاصة لما شاهدوه رائعا جميلا فى الأندلس واستشهد على هذا بقصيدة ابن زيدون فى الزهراء ثم بمقطوعته البائية التى مطلعها (٤) :

متى أبثك ما بى   يا راحتى وعذابى (٥)

---

(١) شعر الطبيعة للدكتور سيد نوفل ص ٢٦٨ ، ٣١٢ وتيارات ادبية للدكتور ابراهيم سلامة ٣٥٢ ، ٣٥٣ .

(٢) تيارات أدبية ص ٢٥٢ .

(٣) الديوان ص ١٣٩ ، ١٤٠ .

(٤) Aliterury History of the Arabs P. 425

(٥) الديوان ص ١٤٩ ، ١٥٠ .

ثم حلل هاتين القصيدتين وعقب عليهما بقوله : « هذه الرمزية أو هذا التمثل فى الطبيعة هو ما يريده النقد الأدبى ، وهو بعينه ما فهمه العرب من زمن بعيد ، وهو ماكان واضح الأثر جليا فى طبيعة الأندلس الواضحة » (١) .

ولقد اشاد الباحثون الغربيون بعبقرية ابن زيدون فرآه كور المثل الأعلى لمن تلاه من الشعراء (٢) ويرى غومس « انه أعظم شاعر قديم انجبته الأندلس (٣) ويرى نيكل أنه كان ممثلا لأنقى اسلوب عربى منهجى فى الأندلس وانه من الممكن موازنتـــــه بالمتنبى أو البحترى ... » ثم يقول : « ... وانه لولا تاثير ولادة عليه لفقد الشعر العربى أعظم جواهره الثمينة (٤) ويقرر جب « أن ابن زيدون يعتبر على الأرجح اعظم شعراء الأندلس بأغانى حبه المبكر وبرسائله الشعرية فى اخريات حياته » (٥) ويقرر ليفى بروفنسال وهو من أكبر المستشرقين الدارسين للأندلس فى العصر الحديث ان ابن زيدون « يعد بحق اكبر شعراء العصر الكلاسيكي الأندلسى الثانى ، والمتغنى بالحب الذى لا يعدله احد ، وقد أوحى اليه اتصاله بولادة اشعارا رائعة الجمال متميزة فى اكثر الأحيان بخلوها من البريق الصاخب الذى تميز به شعر من سبقه من الشـــعراء ، وشعره الى ذلك ذو نزعة انسانية يكاد يشبه شعر الغربيين » (٦) ويذكر فيليب حتى « ان بعض الدارسين يعد ابن زيدون أعظم شـــعراء الأندلس على الاطلاق » (٧) .

---

(١) تيارات ادبية ص ٢٥٢ ، ٢٥٣

(٢) Iln Zaidoun P.154

(٣) الشعر الأندلسى ص ٢٢ .

(٤) Hispano Arabic Poetry P.106,118

(٥) Arabic Literatus P. 78.

(٦) سلسلة محاضرات عامة فى تاريخ الاندلس ص ١٠٥ .

(٧) تاريخ العرب المطول جـ ٣ ص ٦٦٤ .

ولقد أولع كثير من المستشرقين فى دراساتهم للأدب المقارن بالاقتباس من ابن زيدون وموازنته بالمشهورين من شعرائهم الفزليين كما ترجموا كثيرا من آثاره أشرنا اليها فى بحثنا السابق عنه (١) .

وبعد : فقد حان لابن زيدان أن يحتل مكانه الجدير به فى سجل الآداب العربية قديمها وحديثها سواء فى شعره أم فى نثره ، وحان لنا أن نولى تاريخ الأدب الأندلسى ما يستحقه من عناية وتقدير .

ومن يمن الطالع أن يتجه كثير من الباحثين الآن الى هذا الأدب محققين أو دارسين ما تيسر لهم من تراثه المجيد وهى الخطوة السابقة للبحث العميق فى دراسة هذه الآداب وابراز مقوماتها الفنية الأصيلة . وقد تم حديثا نشر ديوان ابن دراج الأندلسى والأعمى التطيلى وابن خفاجة الأندلسى ، وكلها محققة تحقيقا علميا دقيقا ونرجو أن يستمر هذا الاتجاه العلمى الرشيد وبقدر مانبذل من جهود نصل الى نتائج قيمة ونرود جنات يانعة ونقطف ثمارا ناضجة وازهارا متفتحة وظلالا وارفة ، ونستطيع أن نضيف الى تراثنا التليد آثارا جديرة بالروعة والخلود .

---

(١) ابن زيدون عصره وحياته وأدبه ص ٥٢٤ ، ٥٢٥ .

مصادر البحث

لا يتسع المجال لذكر جميع مصادر هذا البحث ، ولقد ذكرناها فى هامش الصفحات ، ومن شاء استبقاءها فليرجع الى كتابنا « ابن زيدون عصره وحياته وادبه » من صفحة ٥٤٩ ـ ٥٦٨ ونكتفى هنا بذكر أشهرها ونبدأ بالمخطوطات والمصورات اولا .

١ ـ اعتاب الكتاب لابن الابار مخطوط رقم ٨٧٨ تاريخ تيمور بدار الكتب .

٢ ـ ترتيب المدارك للقاضى عياض مخطوط رقم ١١٩٨٩ بدار الكتب .

٣ ـ تمام المتون الى شرح رسالة ابن زيدون للصفدى مخطوط ٢٤٨ أدب بدار الكتب .

٤ ـ جذوة المقتبس للحميدى نسخة مصورة عن نسخة اكسفورد رقم ١١٩٧٥ ح بدار الكتب .

٥ ـ الحلة السيراء لابن الابار نسخة الجامعة العربية .

٦ ـ خريدة القصر للاصفهانى فى الجزء الحادى عشر مخطوط رقم ١٠٠٩٨ ز

٧ ـ الكوكب الثاقب للسلوى الاندلسى رقم ٣٣٥ تاريخ تيمور .

٨ ـ المختار من شعر شعراء الأندلس نسخة خطية وحيدة فى العالم بمكتبة حسنى عبد الوهاب بتونس .

٩ ـ مسالك الأبصار للعمرى الجزء العاشر مخطوط رقم ٨ م معارف عامة .

١٠ ـ نزهة الجلساء للسيوطى مخطوط رقم ٨١٣ شعر تيمور .

١١ ـ ابن زيدون عصره وحياته وادبه للمؤلف نشرته مكتبة الانجلو سنة ١٩٥٥ .

١٢ ـ الاحاطة فى اخبار غرناطة لابن الخطيب ، مطبعة الموسوعات بالقاهرة سنة ١٣١٩ .

١٣ ـ اظهار المكنون لمصطفى عنانى مطبعة المعارف الأهلية سنة ١٣١٧ هـ .

١٤ ـ أعمال الأعلام لابن الخطيب المطبعة الجديدة بالرباط سنة ١٩٣٤ .
١٥ ـ بغية الملتمس للضبى ، مطبعة روخس بمدريد سنة ١٨٨٤ .
١٦ ـ البيان المقرب الجزء الثالث للمراكشي طبع باريس سنة ١٩٣٠ .
١٧ ـ ديوان ابن زيدون ورسائله تحقيق المصنف مكتبة نهضة مصر سنة ١٩٥٧ .
١٨ ـ الذخيرة لابن بسام الأجزاء الأول والثانى والرابع ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٤٢ .
١٩ ـ سرح العيون فى شرح رسالة ابن زيدون لابن بنان ـ المطبعة الاميرية بالقاهرة فى عهد سعيد باشا .
٢٠ ـ الصلة لابن بشكوال طبع مدريد سنة ١٨٨٢ .
٢١ ـ فوات الوفيات لابن شاكر ـ المطبعة الاميرية بالقاهرة سنة ١٢٨٣ .
٢٢ ـ قضاة قرطبة للخشنى طبع مصر سنة ١٣٧٣ هـ .
٢٣ ـ قلائد العقيان للفتح بن خاقان ـ المطبعة الأميرية بالقاهرة سنة ١٢٨٣ .
٢٤ ـ مطمح الانفس للفتح بن خاقان مطبعة الجوائب بالآستانة سنة ١٣٠٢ هـ .
٢٥ ـ المعجب للمراكشى ـ مطبعة الاستقامة بالقاهرة سنة ١٩٤٩ .
٢٦ ـ ملوك الطوائف لدوزى تعريب كامل كيلانى مطبعة عيسى الحلبى سنة ١٩٣٣ .
٢٧ ـ نفح الطيب للمقرى طبع ليدن سنة ١٨٦١ .
ومن أهم المراجع الاجنبية .

مراجع

1. Hispano Arabic Poetry By Dr. A.R. Nykl. Baltimore 1964.
2. Spanish Islam By Dozy Translated By Stokes London 1913.
3. The Moors in Spain By Lane - Poole & Gilman London 1920.
4. Ibn Zaidoun Par Auguste Cour (Constantine 1920.

فهرس

صفحة

مقــدمة ٣

القسم الأول ــ الفردوس المفقود ١٥

الفصل الأول الحضارة الأندلسية ١٦

الفصل الثــانى : الأحداث السياسية ٣٠

الفصل الثالث : الحياة الأدبية ٤٤

القسم الثاني ــ الأديب الموهوب ٦١

الفصل الأول : بداية صالحة ٦٢

الفصل الثــانى : احداث عاصفة ٨٣

الفصل الثالث : عاطفة عميقــة ١٠٥

الفصل الرابع : محنة قاســية ١٣٦

الفصل الخامس : سياسة حكيمة ١٦٠

القسم الثالث ــ صفحة الخلود ١٨٧

الفصل الأول : معالم الصورة ١٨٨

الفصل الثــانى : شاعر الحب والجمــال . . . ٢٠٩

مصادر البحث ٢٤٧

صدر من سلسلة أعلام العرب

اسم الكتاب	المؤلف
١ ـ محمد عبده	عباس العقاد
٢ ـ المعتمد بن عباد	على ادهم
٣ ـ جابر بن حيان	د . زكى نجيب محمود
٤ ـ عبد الرحمن بن خلدون ...	د . على عبد الواحد وافى
٥ ـ ابن تيمية	د . محمد يوسف موسى
٦ ـ معاوية	ابراهيم الابيارى
٧ ـ سيد درويش	د . محمد احمد الحفنى
٨ ـ عبد القاهر الجرجانى	د . احمد بدوى
٩ ـ عبد الله النديم	د . على الحديدى
١٠ ـ عبد الملك بن مروان	د . ضياء الدين الريس
١١ ـ مالك	امين الخولى
١٢ ـ القلقشندى	د . عبد اللطيف حمزه
١٣ ـ الطبرى	د . احمد محمد الحوفى
١٤ ـ الظاهر بيبرس	د . سعيد عبد الفتاح عاشور
١٥ ـ ابن الفارض	د . محمد مصطفى حلمى
١٦ ـ المختار الثقفى	د . على حسنى الخربوطلى
١٧ ـ الوليد بن عبد الملك	. سيدة اسماعيل الكاشف
١٨ ـ الأصمعى	. احمد كمال زكى
١٩ ـ زكريا أحمد	صبرى أبو المجد
٢٠ ـ قاسم امين	د . ماهر حسن فهمى
٢١ ـ شكيب ارسلان	احمد الشرباصى
٢٢ ـ ابن قتيبة	د . عبد الحميد سند الجندى
٢٣ ـ ابو هريرة	محمد عجاج الخطيب
٢٤ ـ عبد العزيز البشرى	د . جمال الدين الرمادى
٢٥ ـ الخنساء	محمد جابر الحينى
٢٦ ـ الكندى	د . احمد فؤاد الاهوانى
٢٧ ـ الصاحب بن عباد	د . بدوى طبانه
٢٨ ـ الناصر بن قلاوون	د . محمد عبد العزيز مرزوق
٢٩ ـ احمد زكى	أنور الجندى
٣٠ ـ حسان بن ثابت	د . سيد حنفى حسنين

٣١ ـ المثنى بن حارثه الشيبانى ... عقيد محمد فرج
٣٢ ـ مظفـر الـدين كوكبورى ... عبد القادر أحمد
٣٣ ـ رشـيد رضـا ... ... د . ابراهيم أحمد العدوى
٣٤ ـ اسحاق الموصـلى ... ... د . محمود أحمد الحفنى
٣٥ ـ ابو حيان التوحيدى ... ... د . زكريا ابراهيم
٣٦ ـ ابن المعتز العبـاسى ... ... د . احمد كمال زكى
٣٧ ـ الزهاوى ... ... د . ماهر حسن فهمى
٣٨ ـ ابو العـلاء المعرى ... ... د . عائشة عبد الرحمن
٣٩ ـ احمد لطفى السيد ... ... د . حسين فوزى النجار
٤٠ ـ الجوينى امام الحـرمين ... د . فوقية حسين
٤١ ـ صلاح الدين الأيوبى ... ... د . سعيد عبد الفتاح عاشور
٤٢ ـ عبد الله فكرى ... ... محمد عبد الغنى حسن
٤٣ ـ عبـد الله بن الزبير ... ... د . على حسـى الخربوطلى
٤٤ ـ عبد العزيز جاويش ... ... انور الجندى
٤٥ ـ ابن رشيد القيروانى ... ... عبد الرءوف مخلوف
٤٦ ـ محمـد عبد الملك الزيات ... محمود خالد الهجرسى
٤٧ ـ حفنى ناصف ... ... محمود غنيم
٤٨ ـ احمد بن طولون ... ... د . سيدة اسماعيل الكاشف
٤٩ ـ محمود حمدى الفلكى ... ... احمد سعيد الدمرداش
٥٠ ـ أحمد فارس الشدياق ... ... محمد عبد الغنى حسـن
٥١ ـ المهدى العباسى .. .. د . على حسنى الخربوطلى
٥٢ ـ الأشرف قانصوه الغورى ... د . محمود رزق سليم
٥٣ ـ رفاعه الطهطاوى ... ... د . حسين فوزى النجار
٥٤ ـ زرياب ... ... د . محمود احمد الحفنى
٥٥ ـ الكندى « المؤرخ » ... ... د . حسن أحمد محمود
٥٦ ـ ابن حزم الأندلسى ... ... د . زكريا ابراهيم
٥٧ ـ ابن النفيس ... ... د . بول غليونجى
٥٨ ـ السيد احمد البدوى ... ... د . سعيد عبد الفتاح عاشور
٥٩ ـ المـأمون ... ... د . محمد مصطفى هداره
٦٠ ـ المقـرى ... ... محمد عبد الغنى حسن
٦١ ـ جمال الدين الأفغانى .. ... عبد الرحمن الرافعى
٦٢ ـ الجاحظ ... ... د . احمد كمال زكى
٦٣ ـ ابن ماجد ... ... د . انور عبد العليم
٦٤ ـ محمـد توفيق البكرى ... ... د . ماهر حسن فهمى
٦٥ ـ محمود سـامى البارودى ... د . على محمد الحديدى
٦٦ ـ ابن زيـدون ... ... على عبد العظيم

دار الكاتب العربي للطباعة والنشر